خواطر من أيام العمر

أسامة كامل أبو شقرا

خواطر من أيّام العمر

خواطر من أيّام العمر

أسامة كامل أبو شقرا

خواطر من أيام العمر

الطبعة الأولى – بيروت - 2023

ردمك، ISBN: 978–1– 7387694 -1– 4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو نسخ أو استعمال أي جزء منه بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من المؤلف.

أعمال سابقة للمؤلف

دليل الموضوعات في آيات القرآن الكريم - الطبعة الأولى - بيروت - 2001.

أصول تطبيق قانون الضريبة على القيمة المضافة - الطبعة الأولى - بيروت - 2002. الطبعة الثانية - بيروت 2004.

المسيح (عليه الصلاة والسلام) في القرآن - الطبعة الأولى - بيروت 2004.

وترجم إلى الفرنسية في العام 2013 بعنوان:

Jésus - Christ et la Vierge Marie dans le Coran - 1ère édition - Beyrouth - 2013

الاقتصاد في القرآن - الطبعة الأولى - بيروت - 2007.

أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا - تحقيق - الطبعة الأولى - بيروت - 2011.

حنينُ الحُبِّ - الطبعة الأولى - 2016 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

عودة إلى أسباب أحداث القرن التاسع عشر في جبل لبنان - 2017 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

الجهاد في القرآن، لا قتال بعد وفاة النبيّ ﷺ – 2018 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

أحاديث الرسول ﷺ بين الصحيح والمنحول - طبعة أولى - 2021 - دار يافا العلمية للنشر والتوزيع – عمان الأردن. ودار الدندشي للطباعة والتوزيع – مونتريال – كندا. وطبعة ثانية – 2022 – جفرا ناشرون وموزعون – عمان – الأردن.

حوار شيخين في الإسلام - 2021 - دار يافا العلمية للنشر والتوزيع – عمان الأردن. ودار الدندشي للطباعة والتوزيع – مونتريال – كندا. وطبعة ثانية – 2022 – جفرا ناشرون وموزعون – عمان – الأردن.

وينتصر الحب (مجموعة قصص اجتماعية) – طبعة أولى – 2022 – بيروت لبنان

المحتويات

المقدمة.....11
خواطر وجدانية.....13
نافذتي.....15
عارف أبو شقرا - خمسون عامًا على وفاته.....19
أحمد مؤيد العظم في ذمة الله.....23
خمسون عامًا مع الأرقام.....25
إلى والدي الحبيب في ذكراه الأربعين.....28
في حفل تكريم المرحوم عارف أبو شقرا.....31
جمال الخريف في مونتريال.....34
في ذكرى المرحوم والدي.....37
من سنوات العمر.....39
حوارٌ مع القلم.....41
بيرُوتُكم وبيروتُنَا.....43
شارع الحمراء.....46
رحلتي إلى الثمانين.....48
خمسون عامًا معًا على دروب الحياة.....51
غربان السلطة.....53
الدّبُر الرئيس.....55

خواطر اجتماعية.....57
نساء بلادي وحضارة الأزياء.....59
لماذا فقدت مونتريال نظافتها؟ 62
عجائب السير في بيروت.....64
نحن شعب يعشق التقاتل في سبيل الآخرين.....67
الزواج المدني في لبنان... بالحجج.....68
أحرجوهم فتخلوا عن دينهم.....71
القمر وقصة عنترة.....73
خطر السنجاب والقندس على البيئة.....74
أصداقةٌ بشرطٍ!!؟؟ 76
من يحدد مقاييس الجمال؟ 77

الكِذبَةُ «الصادقةُ».....79
هل نحن حقًّا أحرار؟ 82
الكلمةُ أخطرُ من الرَّصاص.....84
الإيمان الدّينيُّ ضرورةٌ إنسانيّة.....87
اختلاف الرأي لا يفسد للودِّ قضية.....90

خواطر إسلامية.....93
رسالة إلى ابنتي.....95
هل كان مصطفى العقاد حقا سبب احتلال الأميركيين للعراق؟ 99
رسالة إلى إخواني المسلمين في بلاد الاغتراب 103
كيف يعالج القرآن الكريم مشكلة الفقر.....107
بدعةُ الطعامِ «الحلال».....112
في تحريم معايدة الأقباط في عيد الفصح.....114
حدُّ الرجم في الإسلام.....116
رسالة إلى أبي بكر البغدادي.....119
هل تستحق صورٌ كاريكاتورية كل ما يحصل؟ 122
أين كفر المسيحيون؟ 124
هلال رمضان 128
أين نحنُ اليومَ منَ الإسلامِ؟ 131
داعش ... والأزهر 134
هل الدّينُ أفيونُ الشعوبِ!!!؟؟؟ 137
المحافظةُ على البيئة من واجباتِ المسلم 140
التحرُّر من «قيود» الإسلام! 143
تعدد الزوجات.....146
«الحجاب الإسلامي» 152

خواطر في هموم الوطن 157
حلمٌ ليته يتحقق 159
تشبهوا بالكبار 162
ثورةٌ بلا سلاح 164
اعتبروا يا أولي الألباب.....166
لا تستقووا بالأجنبي 168
في لبنان أيضًا نريد تغيير النظام 170

أهكذا تكون حرية الرأي والتعبير؟ 173
الدولة أول المستفيدين من ارتفاع الأسعار 176
أي لعنة حلت في أرض الحضارات؟ 179
ما أشبه اليوم بالأمس 181
نداء إلى فخامة رئيس الجمهورية 182
إلى متى سنبقى قطعان غنم؟؟!! 183
أقلية تفرض دستور «الإخوان» 185
الطائفية فرضها الأجنبي وتناقض الدستور 187
دمار العرب من دمار العراق 190
ماذا قدم لي وطني؟ 192
تفتيت الشرق وتهجير مسيحييه 195
فرنسا، «الأم الحنون» على مصالحها 200
شارلي إيبدو ومركز التجارة .... هل من علاقة؟ 202
مسؤولية فرنسا عن حادثة «شارلي إيبدو» 204
حرب المائتي سنة 206
دعاء 209
الحزنُ القاتل 210
كفاك وعيدًا 212
خمسون عامًا والحرائقُ في دمي 214
تفتيت البلاد العربية 216
كفى أمتنا تفتيتًا 218
سبعون عامًا على النكبة 221
في لبنان أيضًا نريد إسقاط النظام 224
ليس دفاعًا عن العرب 227
فلتكنْ جريمةُ نيوزيلندا الأخيرةَ 230
العلمنة الكيبيكية 233
لا تصدقوا أمي 236
عذرًا إخواني اللبنانيين 239
لبنان ما بعد 17 تشرين 241
ودفَنْتُ حُلُمِي 244
القضاء في الأربعينيات 247
في استقلالية القضاء 249

فرّقونا صغارًا، ويدعوننا إلى الوحدة كبارًا 251
هل نعرف نحن حقًّا عدوّنا 253
رسالة من التاريخ 257
سؤال إلى السيد رئيس الجمهورية 260
رسالة ثانية من التاريخ 261

خواطر في اللغة 265
خطر العامية على الفصحى 267
تلاوة الأخبار فنٌّ 270
اللغة خزانة التراث 272

المقدمة

يقول الشاعر: «كلُّ علمٍ ليس في القرطاس ضاع». وعلى الرُّغم من أنّ قرّاء الكتاب الورقيّ قد أصبحوا قلائل جدًّا، فقد رأيت أنّه، يبقى أفضل وسيلة لحفظ ما تخطُّه الأقلام ولنقله إلى الأجيال اللاحقة.

وعلى الرُّغم من أنّ معظم ما حوى هذا الكتاب قد نُشر في حينه، في الصحف والمجلات وعلى بعض مواقع التواصل الاجتماعي، فقد كانت غايتي من وضعه، الرغبة في حفظ مقالات وكتابات في موضوعات مختلفة، ممّا كان يجول في خاطري كلّما مرّ أمامي حدث أو مناسبة أو أمرٌ أثار في نفسي رغبة الكتابة. ولذا اخترت له عنوانا: «**خواطر من أيام العمر**».

وقد صنفت هذه الخواطر في خمسِ مجموعات، وحسب التسلسل التاريخيّ لكتابتها أو نشرها:

خواطر وجدانية وأدبية
خواطر اجتماعية
خواطر في الإسلام
خواطر في هموم الوطن
خواطر في اللغة العربية

وإذا رأيت يا قارئي الكريم، بعض التكرار، في أمور أو آراء أو معلومات وردت في غير مقالة، فهذا ما قد فرضه الموضوع أو البعد التاريخي بين كتابة المقالة والأخرى.

وإني إذ أنشر هذه الخواطر، وإن كان منها ما قد أصبح من التاريخ، فلعل الأجيال القادمة تستخلص منها بعض العِبَر.

أسامة كامل أبو شقرا

نيسان / ابريل 2023

خواطر وجدانية وأدبية

نافذتي[1]

في إحدى شققِ الطبقة السابعة من أحد المباني على جادة «الأكادي» في مدينة مونتريال، اتخذنا أنا وزوجتي، مسكنًا لقضاء سويعاتٍ من خريف العمر.

لغرفتي نافذةٌ تطل على جُزءٍ من حديقة عامة شاسعة الأطراف. أقف يوميًا مرتين أو أكثر أمامها لأتفقد هذا الجزء، الذي يفوق مساحة حديقة الصنائع في بيروتنا الحبيبة. يفترش أرضَه صيفًا بساطٌ سندسيّ من العشب الأخضر، ترويه الأمطار، ولو مرة في الأسبوع، شأن خاصيّة الجوّ الكندي، لتبقيَه دومًا مخضرًّا. وفي إحدى ثناياه خصّصت البلدية ثلاث مساحاتٍ صغيرة كملاعب للأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين السنتين والعشر. وجهّزت كلًا منها بما يناسب من الهياكل المعدنية يتسلقها أولئك الأطفال ليتزحلقوا بعدها، على الألواح المخصّصة لذلك، نزولًا إلى الأرض المفروشة بالرمل. وهكذا يعيشون لساعاتٍ في أحضان الطبيعة فتخفف تلك الألعاب عن أنفسهم ضغط ذلك المخزون من الطاقة الذي بدأ يتفجر في أجسادهم الصغيرة. وترى أمهاتِهم أو آباءَهم يراقبونهم من على مقاعدهم التي وضعتها البلدية خصّيصًا بالقرب من تلك الملاعب.

فكم تذكرت طفولتي، وأنا أنظر إليهم، حين كنت أتسلّقُ أشجار حديقة منزلنا في جديدة مرجعيون لأقطف ما تيسر من ثمراتها، أتلذّذُ بطعمها الشهيّ، الذي لم تكن بعد قد أفسدته الأسمدة والأدوية الكيماويّة.

يتخلل هذه الحديقة ممراتٌ، ليس فيها الكثير من التعرّج، فُرشت أرضُها بنوع من الحصى الصغير الرمادي اللون، وعلى جوانبها زُرعت بضعة مقاعد من حديد وخشب. وانتصبت على أطرافها وفي بعض ثناياها أشجارٌ وارفةٌ منها ما لا يزيد ارتفاعه عن المترين أو الثلاثة ومنها ما قد يفوق الأربعة عشر مترًا.

من نافذتي أرى على ذلك المقعد شابّين متلاصقين، حينًا يقبّلها وحينًا تقبّله، وأحيانًا يتبادلان أطراف الحديث؛ آهٍ... ليتني أستطيع سماع بعضٍ من كلماتهما فتعود بي الذاكرة إلى سنين عديدة خلتْ، يوم كنا في ريعان الشباب، نفوسنا مملوءة بالحيويّة والتفاؤل بمستقبل واعدٍ. «ألا ليت الشباب يعود يومًا...». وعلى تلك الممرّات أرى رجالًا ونساء من مختلف الأعمار، هذا مسنٌ يتوكأ على عصاه

[1] كتبتها في 2007/9/25.

وينقل أقدامًا أتعبتها السنون. وذاك كهلٌ يسير بخطىً حثيثةٍ سعيًا وراء قوةٍ يمدّ بها جسده ليبعد ما استطاع تلك الأيام التي قد تفرض عليه التوكأ على العصي أو القعودَ على كرسيٍّ متحرّكٍ، أو في سريرٍ في إحدى زوايا غرفة قليلًا ما يخرج منها. وذلك شابٌّ يهرول أو يركض ليُكسب جسده القوة التي تمدُّه بالحيوية والنشاط.

وقد أترك أنا أيضًا نافذتي وأهبط إلى تلك الحديقة متشبهًا بمن سبقني إليها ولأحرك هاتين الرجلين لعشرين أو ثلاثين دقيقة أعود بعدها إلى كتبي وأوراقي ودفاتري.

كلٌّ منا يفرُّ إلى تلك الحديقة ليبتعد ولو لساعة أو حتى أقل عن ضوضاء المدينة وتجهيزاتها الحديثة التي جعلت أجسادنا تفتقر إلى الكثير من الحركة.

أما عصافير الدُّوري وطيور الحمام والنورس وغيرها فلا تزال تتمتع بما توفّره لها الطبيعة، وها هي تتنقل بين أغصان الشجر وعلى أرض الحديقة لتتقوَّت لساعتها، لا لتجمع أكثر قدرٍ ممكن كما يفعل الإنسان، الذي يجمع حبًّا في الجمع. ولا أنسى ذينك السنجابين يتنطّطان على أرض الحديقة ثم يتسلقان أغصان الشجر سعيًا أيضًا وراء قوت يومهما.

هذه أيام الصيف تتوالى مسرعة ليأتي بعدها فصل الخريف. فإذا جاءت أيّامُه الأولى رأيتَ أوراق الشَّجر تتبدلُ ألوانها، فمنها ما يتحول أخضره إلى الصُّفرة وهذا إلى البرتقاليّ وذاك إلى العنَّابيّ وذلك إلى ما يقارب الأحمر. وقد ترى في الشجرة الواحدة لونين أو ثلاثة أو أكثر. لوحات جميلة خلَّابة رسمتها يد الطبيعة. ثم تبدأ تلك الأوراق تتساقط على أرض الحديقة إلى أن تعرى أغصانُ الشجر تمامًا بانتظار فصل الشتاء. ولكن تبقى هناك بضع شجرات رؤوسها شامخة، شموخ الأرز، تتحدى الفصول الأربعة وتغيّراتها، رافضةً أن تخلع رداءها الأخضر الجميل الذي خصّتها به الطبيعة.

وتذهب أيّام الخريف ويأتي فصل الشتاء، فأراه من نافذتي وكأنّي به يقول للأمطار: كفاكِ أنتِ، فاذهبي وابحثي لكِ عن أرضٍ أخرى بحاجة لأمواهك فقد اشتاقت ثلوجي لهذه الأرض. وتبدأ الثلوج تفترش أرض حديقتي وتتعلق بأغصان شجرها من شدّة الشوق. وما هي سوى أيَّامٍ حتى يختفيَ كليًا ذلك البساط السُّندسي ليحلَّ محلَّه بياضُ الثّلج النّاصع. وإذا بأرض حديقتي تصبح كلّها قطعةً بيضاء واحدة. ولكن قد يحتاج أحدهم أن يجتازها من طرف إلى آخر فيتركَ خلفه آثار أقدامٍ تدلُّ على مسيرته. وقد يثير هذا غضبَ الثّلوج فتعود إلى الهطول لتمحوَ تلك الآثار.

وينتقل عمَّال البلدية من الاعتناء بالحديقة إلى رفع الثُّلوج عن الطُّرق والأرصفة. فتلك آلةٌ كبيرةٌ، أراها من نافذتي، ترفع الثّلج من وسط الجادّة إلى جانبيها، وتلك أخرى صغيرة ترفعه عن الرصيف، وهذه ثالثة تسير، بعدهما، تنقل ما تجمع على جانبي الطريق إلى صندوق شاحنة تسير بجانبها، لتغادرها، بعد امتلاء صندوقها، إلى مكان بعيد مخصَّص لتُفْرغَ فيه حملها، فيتحول سهلُه إلى جبلٍ من أكوامِ الثّلج. وتتوالى الشاحنات بالنَّقل إلى أن ترى الشارع وكأنه لم يزرْهُ سوى القليلِ من تلك الثلوج.

كلّ أولئك الذين كانوا يزورون الحديقة صيفًا، وأنا منهم، قبعوا في منازلهم هربًا من البرد القارس، ليتمتعوا بالدّفء الذي توفّره لهم أجهزة التدفئة الحديثة. ومن يأتي إلى مونتريال زائرًا، صيفًا، لا يمكنه تصوّر قساوة شتائها، ففي شهري تموز وآب ترتفع الحرارة إلى ما يزيد عن الثلاثين درجة مئوية، وقد تصل أحيانًا إلى الأربعين، ثم تنخفض في الشتاء إلى ما دون الأربعين تحت الصفر وقد تصل أحيانًا إلى الخمسة والأربعين أو الخمسين. وهذا الزائر سيَعجَب كيف يستطيع جسد من يعيش في كندا تحمُّل هذا الفرق السنوي الكبير في درجات الحرارة الذي قد يزيد عن الخمسة والثمانين درجة. ولكن لعلَّه يتذكَّر أنَّ خالقَ هذه الأجساد، قد زوَّدها بطاقة تجعلها قادرة على التأقلم في مدة وجيزة، مع أي جوٍّ تحتاج العيش فيه. فسبحانه وتعالى والشّكر له على نعمه.

قد تطول أيام الشتاء لأكثر من أربعةِ أشهرٍ ليعود بعدها فصلُ الرّبيع حاملًا معه نسيمات الدِّفء الأولى، فتغادر الثلوج أغصان الشَّجر وأرض حديقتي، وتبدأ البراعم بالتكوّن، وأوراقُ الشجر بالتفتح صغيرةً. ثم ما هي إلا أيام معدودات حتى تزداد حجمًا تحت أشعة الشمس التي تجعل لونها يتحول من القريب من الأبيض إلى الأخضر الذي سبق وخطفته منها أيّام الخريف.

وكثيرًا ما كان يزور مخيلتي، وأنا واقف أمام نافذتي، طيفُ أولئك الذين كانوا يقطنون، لا في مونتريال فقط، بل أيضا في كندا كلِّها. وكيف كانوا يعيشون قبل هذه التجهيزات والآلات والسَّيارات وغيرها... التي تسهِّل سبل المعيشة في هذه الأيام. إنني أتخيلهم، شتاء، يتنقلون عند الضَّرورة على زحَّافات من الخشب تجرُّها الحيوانات، ويرتدون الثياب المصنوعة من الفراء تغطي أجسادهم بالكامل، فيما عدا العينين، ليتحسّسوا طريقهم سعيًا وراء ما قد يحتاجون إليه من مواد الغذاء. وفي الصيف والخريف أراهم يعملون على جمع المؤن من المواد الغذائية ليقتاتوا بها في الشتاء، وقِطعٍ من الحطب والفحم يشعلونها لتقيَهم برده القارس. كما أتخيّلهم ينامون مع العِشَاء أو بعده بقليل لقلّة سبل الإنارة.

فالحمد والشكر دومًا لله تعالى الذي قسم لنا أن نعيش في هذه الأيام التي يتوفّر لنا فيها الكثير مما يجعل معيشتنا أسهل من معيشة الذين سبقونا.

فيا نافذتي العزيزة لكِ مني المحبة والشّكر على ما وفِّرتِ لي من مشاهد جميلة ومناظر خلابة جعلت بصيرتي ترى ما وراء ما يستطيع بصري أن يراه، وزادتني إيمانًا بعظمة الله خالقي وخالق الأكوان جميعها.

عارف أبو شقرا

خمسون عامًا على وفاته[1]

منذ خمسين عامًا غاب عنا عارف أبو شقرا. رحل باكرًا ولم يكن بعد قد أتمّ الستين من سنوات العمر.

عرفته ولم أعرفه. عرّفتني به، منذ صغري، أواصر القربى، ثم عشت قريبا منه بحكم الجوار في السكن. وأخذت أشعر بالرغبة، في حضور مجلسه، تزداد كلما زادتني الأيام نضجًا. ولكن الزمن لم يسمح لهذا الجوار أن يدوم سوى ما يقارب السنوات الثلاث لينهيها بوفاته، رحمه الله، وكنت قد أصبحت في ريعان الشباب. عرفت أنّه معلم يربي الأجيال وأديب وشاعر. ولكنّني يومها لم أطلع سوى على القليل من إنتاجه.

لم أعرفه لأن تلك الفترة من الزمن التي عشتها بالقرب منه، منذ انتقلنا من جديدة مرجعيون للإقامة في بيروت، في أواخر العام 1955 وحتى وفاته، لم تكن كافية لتعرّفني به حق المعرفة. كما لم تكن سنوات عمري يومها كفيلة بجعلي أدرك كيف أعرف الأدباء والشعراء.

وكم كنت أحضر مجالسه، وخاصة مع المرحوم والدي، لأتمتع بسماع تلك الأحاديث التي كانت تدور بينهما، يوم لم تكن بعد محطات التلفزة قد بدأت تدخل إلى أعماق خصوصيّاتنا فتحرمنا لذة التسامر. وكم استقيت من تلك الأحاديث من قواعد اللغة والأدب والأخلاق.

لم أنتسب يومًا إلى مدرسة كان يعلّم فيها، وعلى رغم ذلك فقد أخذت عنه الكثير في اللغة والأدب والأخلاق.

من صفاته الصدق والتواضع والقناعة وحبّ النظام وتطبيق أحكامه، حتى لو كان عليه أو على أحد أفراد عائلته. كما كان ورعًا ومتدينًا، ولكن من غير

[1] كتبتها في 2008/8/3، في الذكرى الخمسين على وفاته. ونُشرت في جريدة الأنباء اللبنانية عدد الاثنين 2008/8/4.

تزمّت أو تحجّر، حتى قال عنه المعلم كمال جنبلاط: «التمسّك بأهداب العقل جعل عارف أبو شقرا لا يتصورُ الإيمانَ والدينَ أشياء متحجرةً معقدةً.»

كما كان من أشدّ المطالبين بحقوق المعلمين في المدارس الخاصّة، بصفته عضوًا فاعلًا في نقابتهم. وقد كتب عدة مقالات في هذا الصدد في جريدة «الأنباء».

منذ حوالي السنتين شعرت برغبة تشدني إلى إعادة طباعة أحد كتبه المنشورة، الذي كان له أثرٌ كبيرٌ في مساعدتي في التخلّص من الكثير من الأخطاء الإملائية، عنيت: كتاب «دروس في الإملاء والمحفوظات»، مما جعلني أطّلع على الكثير من تراثه، ومن ثم مكّنني من استخلاص بطاقة التعريف هذه:

ولد عارف أبو شقرا في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1899، في بلدة عماطور - قضاء الشوف – لبنان. توفي والده، يوسف خطار أبو شقرا، ولم يكن هو، بعد قد أتم السادسة من العمر. فكان من والدته المرحومة عمّتي، «سليمة» أن رفضت مبدأ الزواج ثانية، وفاء لذكرى زوجها، ولتتفرّغ كليًا لتربية طفليها، «عارف» وشقيقته الصغرى «ليلى»، وبرعاية جدهما «خطّار». وتوفي «الأستاذ» عارف في الثالث من آب (أغسطس) من العام 1958. وكانت والدته لم تزل على قيد الحياة.

تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة الإرسالية الإنكليزية في عماطور. ثم انتقل بعدها إلى مدرسة الشويفات الدولية (مدرسة شارلي سعد)، في بلدة الشويفات، حيث أنهى تحصيله الثانوي، في العام 1914. ومع بداية الحرب العالمية الأولى في ذاك العام، عاد إلى عمّاطور ليكون بين أهله وأقاربه وليهتم بالأملاك التي خلّفها له والده. ولكنّه في تلك الأثناء، لم يكن ليدع الأيام تذهب سدىً، إذ كان يتابع تحصيله العلمي على نفسه بما تيسر له من الكتب. وبعد انتهاء تلك الحرب، في العام 1918، عاد إلى بيروت فانتسب إلى الجامعة الأميركية، لمتابعة الدراسة في أصول التعليم، إلى أن حصل فيها على لقب «أستاذ».

بعد ذلك عاد إلى عماطور، حيث بدأ ممارسة مهنة التدريس، في مدرسة أنشأها بالاشتراك مع أمين أفندي عبد الصمد. ثم علّم في عين قني (المجاورة لعماطور) في مدرسة شفيق بك الحلبي.

في العام 1928 يمم ثانية، شطر بيروت ليصبح مدرّسًا للغة العربية والتاريخ في مدارس «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية». وبعد ثمان وعشرين سنة، أي في العام 1956، انتقل إلى «مبرة الملك سعود لتعليم أبناء فلسطين»، في برج

البراجنة من ضواحي بيروت، لمتابعة رسالته في التعليم، حيث بقي حتى وافته المنية في العام 1958.

لم يقصر «الأستاذ» نشاطه على التدريس فقط، تلك المهنة التي لم يتخلَّ عنها ما دام على قيد الحياة، بل أضاف إليها، مهنة تثقيفية أخرى لا تقل عنها أهمية، أعني مهنة الصحافة، مما أتاح له نشر أبحاثه في السياسة والاجتماع واللغة والتاريخ والأدب، إلى جانب ما ترجمه عن الإنكليزية إلى العربية.

كانت بدايته في الصحافة، في العام 1928، حين تولى رئاسة تحرير مجلة البادية، التي كان المرحوم نسيب، ابن خاله داود أبو شقرا، صاحبَها ومديرها المسؤول؛ وهي «مجلة أدب وتاريخ وعلم واجتماع». ولكنها، توقفت بعد سنتين فقط، بسبب النقص في المال.

وفي العام 1938 شارك في تحرير مجلة «الأمالي» التي كان الدكتور عمر فرّوخ صاحب امتيازها ومديرها المسؤول. وهي «مجلة أسبوعية تبحث في الثقافة». لكنها، أيضا، لم تعمر لأكثر من أربع سنوات، والأسباب دومًا مادية.

ومع انطلاقة جريدة «الأنباء» الأسبوعية، في 16 آذار من العام 1951، التي كانت، ولم تزل، تنطق بلسان «الحزب التقدمي الاشتراكي»، بدأ بكتابة سلسلة مقالات في السياسة والاجتماع في «زاوية»، خصصت له في صفحتها الأولى، عنوانها «دعاء»[1]، بتوقيع «أبي ذر». وكان اختياره لهذا الاسم عائدًا لإعجابه بالصحابي الجليل «أبي ذر الغفاري». وقد استمر في تحرير هذه الزاوية حتى العام 1954. وقد كان من الرعيل الأول في الحزب المذكور إذ يعود تاريخ انتسابه إليه إلى 1949/5/1 وكانت بطاقة عضويته فيه تحمل الرقم /10/. مارس مهام مساعد أمين السر العام للحزب من 1953/3/12 ولغاية 1955/12/6، هذا بالإضافة إلى تعيينه عضوًا مرشدًا في 1955/4/28.[2]

إلا أنه بعد العام 1954، لم ينقطع عن الكتابة في الصحف، فقد كانت له بضع كتابات في جريدة الأنباء وفي غيرها، في لبنان وفي بلاد الاغتراب نخصّ منها جريدة «صوت البيان» التي كان يصدرها أسبوعيًا، في مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأميركية، «صاحبها ومحررها: راجي ظاهر». وجريدة «نهضة العرب» التي كان يصدرها، في مدينة ديترويت – ميشيغن – في

---

[1] وفي الربع الأول من العام 1956 أصبح اسمها «شذرات» ولكنه لم يعد يحررها بشكل منتظم.

[2] هذه المعلومات زودتنا بها أمانة السر العامة في الحزب التقدمي الاشتراكي بإفادتها المؤرخة في 2007/5/23.

الولايات المتحدة الأميركية، صاحبها ومديرها المسؤول: سعيد داود فياض، مرتين في الأسبوع.

إلى جانب ذلك فقد نشر بعض القصص القصيرة في مجلة «الكتاب» التي كانت تصدر شهريًا عن دار المعارف في مصر وتعنى «بالآداب والعلوم والفنون».

كتبه المطبوعة أربعة، اثنان من تأليفه هما: «دروس في الإملاء والمحفوظات»، طبع في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، و«ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف»، طبع في العام 1957. والثالث: وضعه بالاشتراك مع الدكتور عمر فروخ وعنوانه «خمسة شعراء جاهليين»، طبع في العام 1944. والرابع: «الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية»، وضعه والده الذي لم يعش طويلًا ليتسنى له نشره، فبقي مخطوطًا إلى أن قام المرحوم عارف بنشره بعد أن تحرى نصَّ المخطوطة وعلّق على حواشيها وملاحقها ووضع مقدمتها وفهارسها، وذلك في العام 1952.

وقد ترك مخطوطة في «تاريخ جبل حوران»، كما له أيضًا مخطوطة حول «آداب المذهب الدرزي» عاجلته المنية، عشرين يومًا، قبل أن يتمكن من وضع اللمسات الأخيرة عليها، هذا ما قاله قبل وفاته بأيامٍ قليلة. ولكن ما يؤسف له أن فقدان الكثير من محتوياتها جعلها غير صالحة للنشر.

أما في الشعر فله ديوان لم يزل أيضًا مخطوطًا، إلى جانب قصائد متفرقة ألقاها في مناسبات مختلفة. ولا ننسى عدةَ أناشيد وضعها منها: نشيد المقاصد، ونشيد العاملية، ونشيد معهد التمريض، التابع لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، وكذلك نشيد للجيش اللبناني، يعرف بنشيد بشامون[1].

وإذ أرجو الله أن يزيدنا في كل جيل من أمثال عارف أبو شقرا، أتمنى على كل من عرفه أو تتلمذ على يديه، أن يذكره بالخير وأن يطلب له الرحمة من الله العلي القدير.

1 وقد قام كاتب هذه السطور بجمع ما خلّفه عارف أبو شقرا من كتابات منها ما هو منشور في الصحف والمجلات ومنها ما كان لم يزل مخطوطًا، وصنفها في خمسة كتبٍ في مجلد واحد بعنوان «أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا»، نشر في بيروت في العام 2011.

أحمد مؤيد العظم في ذمة الله[1]

مع غروب شمس يوم أمس الأحد (2008/10/12)، غابت شمس رجل من رجالات سوريا الكبار. أجل لقد فاضت روح مؤيد بك فغادرنا إلى الأبد، ولكن ذكراه العطرة ستبقى في قلوبنا وقلوب محبيه ما حيينا.

يا موت هل تدري من الذي أخذته من بين ظهرانينا؟ لقد حرمتني، يا موت، من أبي أسامة، ذلك الصديق الصدوق المحب المحبوب. أخذت مني جاري العزيز الكريم الذي عرفته منذ بضع وثلاثين سنة، وتوطدت علاقتنا منذ أن نقلت مسكني إلى جوار مسكنه في العام 1977. ثم تطورت تلك العلاقة إلى صداقة متينة، أساسها الاحترام والمحبة المتبادلين، مجردة من أي غاية مادية. ومذ ذاك كنت أسعى دومًا للقائه كي نتبادل أطراف الحديث الممتع في موضوعات شتى.

كان في كل مرة يتحفني ولو بمعلومة قيمة من مخزون ما تجمع في ذاكرته على مدى السنين مما خبره في الناس أو عايشه من أحداث. كان دمث الأخلاق، لبقًا لباقة الدبلوماسي المجرَّب، متواضعًا تواضع الكريم الحسب والنسب، يحترم الكبير والصغير، سواء في السن أم في المقام. لم أسمعه يومًا يتبجح بعمل قام به أو يفاخر بحسب أو نسب، وهو سليل عائلة من أكرم العائلات في سوريا.

كنت أشعر دومًا أنني أمام رجل رفع مقام الوظيفة التي كان يتولاها، لا هي التي رفعته، رجلٍ يفرض احترامه ومحبته على كل من عرفه.

ولكن الدهر بخل عليه في أن يمضي السنوات الثلاث الأخيرة من سني عمره قرير العين بذريته، فإذا به يخطف من بينهم ابنته الوحيدة وحبيبته منيرة. فكانت هذه أسوء نازلة حلَّت به طوال حياته، فبدأ جسده ينهار يومًا بعد يوم إلى أن صار غير قادر على الاستمرار في احتواء نفسه الكبيرة ففارقته بالأمس إلى الأبد.

وعلى رُغم ذلك الوهن فلم يخنه عقله يومًا. وكم من مرة سألني قائلًا: هل قد أصبحت الآن في أرذل العمر؟ فكنت أجيبه: ما دام العقل سليمًا فلا رذالة.

من هو صديقي هذا؟ إنه أحمد مؤيد عمر العظم: ولد في حماه – سوريا في العام 1915، وبعد أن أنهى فيها دروسه الابتدائية انتقل إلى دمشق لمتابعة الدراسة حيث أنهى فيها المرحلة الثانوية. ثم انتقل إلى بيروت ليلتحق بالجامعة الأميركية، وبعد تخرجه فيها في إدارة الأعمال عاد إلى دمشق ليدرس الحقوق في جامعتها.

1 كتبتها في 2008/10/13 ونشرت في العدد 23498 من جريدة النهار تاريخ 2008/10/15

وبعد ذاك التحق بوزارة الخارجية السورية التي عينته في السلك الدبلوماسي فكان قنصلًا في القدس. ومع حلول نكبة فلسطين عاد إلى الوزارة في دمشق إلى أن عين مديرًا للمراسم في القصر الجمهوري. وبعد العام 1952 أعيد إلى السلك الدبلوماسي فعين قنصلا في الإسكندرية ثم في تركيا ثم في قبرص. وإثر إعلان الوحدة بين سوريا ومصر في العام 1958، تسلم مهام القائم بأعمال سفير الجمهورية العربية المتحدة إلى بغداد. ثم بعد انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر، أصبح سفير سوريا إلى أنقره إلى أن أحيل إلى التقاعد، المبكر، في العام 1965.

وعلى رغم بعد مركز عمله عن لبنان الذي أحب، فكان يأتيه متى تسنى له ذلك، أو لقضاء أشهر الصيف في ربوعه مع عائلته، إلى أن استقر فيه منذ أن تقاعد وحتى وافته المنية.

فرحمة الله عليك يا صديقي الحبيب، يا أبا أسامه، وأسكنك فسيح جنانه. ولأبنائك وأحفادك من بعدك الصبر والسلوان وطول البقاء.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنَّا لله وإنَّا إليه لراجعون.

خمسون عامًا مع الأرقام[1]

الاكتشافات والاختراعات والإنجازات المهمة تكون بداياتها أحلامًا تدغدغ مخيلات أصحابها قبل أن تتحول إلى حقيقة واقعة. وما من إنسان، في جميع مراحل حياته، إلاّ ورسم في مخيلته صورةً أو خطةً لعملٍ ينوي القيام به. وعلى الرُّغم من أن لكلّ مرحلة أحلامًا تتناسب مع عدد سنوات العمر، كحلم الطفل بالحصول على لعبة رآها مع تربٍ له أو سمع منه عنها؛ إلاّ أنّ هناك حلمًا يرافق الإنسان منذ طفولته وحتى دخوله معترك الحياة أو إلى ما بعد ذلك، عنيت المهنة التي يرغب في أن يعمل بها عندما يصبح شابًا، أيكون مهندسًا أم طبيبًا أم مزارعًا أم غير ذلك؟ واللائحة طويلة. وكثيرًا ما يبدل ويغير ويعدِّل في طموحه، ولكن الحلم يبقى حلمًا.

أنا لم أشذّ عن هذه القاعدة. وعلى ما أذكر، فإنني في أوائل العقد الثاني من سنوات العمر كان حلمي أن أمتهن الهندسة، وبالتحديد هندسة الميكانيك التي كانت ستتيح لي إمكان تحقيق الحلم الأكبر، ألا وهو اختراع محرك يستمد طاقته من الماء. مع الأيام وتبدّل الظروف، أخذت تشدني بزة ضابط الجيش، فتحوّل حلمي إلى الانتساب إلى الكلية الحربية لتحقيق هذه الغاية. ولكن مع السنة النهائية من التعليم الثانوي، تبدلت رغبتي فرحت أحلم في دراسة الفلسفة.

وفجأة، مع صباح الخامس من شهر آذار من العام 1959، رأيتني أعمل في أحد المصارف التجارية في بيروت. ومع ذلك اليوم بدأت رحلتي الطويلة مع الأرقام. فكان أن امتهنت، بعد ذلك، مهنة المحاسبة وتدقيق الحسابات ولم أزل حتى يومي هذا.

وإذا كانت المهنة سبيلًا لتأمين موارد العيش ومتطلباته، إلاّ أن لكلّ منها لمساتٍ يزداد مع الأيام تأثيرها على صاحبها في تفكيره ونهج معيشته وتعامله مع الآخرين، حتى في كلامه. فبائع الورد يفوح عطر وروده من حديثه. أما رفيق الأرقام فقد تصطبغ كلماته بصبغة جمود تلك الأرقام ويبوستها.

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة النهار عدد يوم الجمعة 06 آذار 2009 - رقم 23631 السنة 76، وقد عدلت هيئة التحرير عنوانه ليصبح: خمسون عامًا مع الأرقام – «مهنتي كمحاسب.. وتوصيتي». ونشر أيضًا في مجلة المحاسب اللبنانية العدد 37 الفصل الأول 2009.

كذلك فهي تعلّم صاحبها كثيرًا مما لم يتعلمْهُ سواء في المدرسة أم في الجامعة. ويزداد تأثيرها في سلوكه وعمله كلما تقدمت به السنون في ممارستها.

فقد علمتني الأرقام أن أعتمد المنطق أساسًا في كل عمل أقوم به. إذ أن النتائج تحكمها المعطيات دومًا. فعملية جمع اثنين واثنين مثلًا، لا يمكن أن تُنتِجَ إلاّ أربعة. كما أن قسمة عشرة على اثنين ستكون نتيجتها خمسة، مهما تغير نوع المقسوم أو لونه.

كما تعلمت منها، أنّ أقصرَ مسافة بين نقطتين هي الطريق المستقيم، وهذا ما جعلني أحاول جهدي أن اعتمد مبدأ «خير الكلام ما قلّ ودلّ»، وأنّ الاختصار الموضح، والتوجه المباشر إلى الهدف أو الغاية، سواء في القول أم في الكتابة، يجعلان السامع أو القارئ يستوعبان مقالتي من دون ملل.

علمتني الأرقام، أيضًا، الصبر وطول الأناة. فكم من «ليلة نابغية[1]» أمضيتها بحثًا عن قرشٍ واحدٍ زادت به إحدى جهتي ميزانٍ حسابي عن الأخرى.

والرقم جامدٌ أحاديُ المعنى غيرُ قابلٍ للتأويل، فالخمسة لا يمكن أن تعنيَ أربعة أو ستة . وفي هذا صدقٌ متناهٍ. وهو يختلف عن الحرف بحركاته (الفتحة والضمة والكسرة والسكون)، اللواتي يجعلنه متعددَ المعاني، قابلًا للتأويل. فهذا الرقم الجامد لا يعكس أيّ نوعٍ من العاطفة كتلك التي تفوح من بيتٍ واحدٍ من الشعر. وكثيرًا ما يكون في إظهار العاطفة ولو القليلُ من المبالغة، وفي المبالغة بعضٌ من الكذب، كي لا أقول أكثر. فإذا قال خبير المحاسبة في تقريره: «لقد بلغ رصيد الصندوق في مؤسسة كذا... بتاريخ كذا... ما قيمته ألف ليرة لبنانية»، فهو يصور بصدقٍ حقيقةً واقعةً. أما عندما قال الأخطل الصغير:

قتل الوردُ نفسَهُ حسدًا منكِ *** وألقى دِماهُ في وجنتيكِ

والفراشةُ ملّتِ الزهرَ لما ** حدّثتها الأنسامُ عن شفتيكِ

فقد ارتقى إلى أعلى حدود المبالغة. وقديمًا قيل: «أعذبُ الشعرِ أكذبُه».

فيا زميلي العزيز، الذي لم يزلْ طريَّ العود وفي بداية المشوارِ، أوصيكَ بأن يكون تقريرك المالي دومًا عاكسًا الحقيقة بصدقٍ ومن دون إي تناقضٍ، فأنت رفيقُ الأرقام الصادقة. والصدقُ من صفات الأنبياء. وتقريرك ليس سلّمًا ترقاه لتصلَ إلى ما ليس لك فيه حق. وأوصيك بألا تسْعَ وراء الشهرة الزائفة بطريقة أشهر شعراء العربية، أبي الطيب المتنبي، الذي بعد أن اعتلى أرفعَ درجاتِ الفخرِ عندما قال:

[1] نسبة إلى النابغة الذبياني في قوله: كِليني لهمٍّ يا أميمة ناصبي***وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ.

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني *** والسيفُ والرمحُ والقِرطاسُ والقلمُ

عاد وانحدر إلى أدنى دركات الخنوع، حين قال لسيف الدولة الذي ضربه فأدماه:

إن كان سَرّكمُ ما قال حاسِدُنا*** فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

أخيرًا، أقول لك يا أيها الزميل: إذا لم تستطع أن تعملْ بالمهنة التي تحب، فنجاحك يضمنه لك حبّك للمهنة التي تعملُ بها.

إلى والدي الحبيب في ذكراه الأربعين[1]

سلام الله عليك يا من كنت علّة وجودي في هذه الدنيا.

أربعون عامًا مضين على غيابك عنّا ولم تزل ذكراك حيّةً في صدري وفي عقلي وفي مخيلتي، كأنَّ هذا الغياب قد حصل بالأمس القريب.

لست أدري يا أبي الحبيب إن كانت روحك لم تزل تطّلع على ما يجري في هذه الدنيا أم في بلدنا الذي أطلقوا عليه خطأً صفة: «قطعة من الجنة»؟ أم حتى بيننا نحن أبناءك الذين لم نزلْ ننتشي من تلك السّمعة الطّيبة التي تركتها لنا إرثًا، بين الذين عرفوك؟ فالروح من أمر الله وما أوتينا من العلم إلاّ قليلا.

ولكن هل تدري يا والدي بأنّ الله تعالى قد كرّمك بأن استرجع نفسك إليه راضية مرضية في ذلك اليوم الذي اعتبرناه في حينه يومًا رهيبًا؟

نعم لقد كرّمك فعلًا يوم شاء لعينيك ألاّ تريا هذه الأحداث والأحوال التي لم تزل تعصف بنا منذ ما بعد رحيلك عنا.

إن الإسلام الذي آمنتَ به وزرعته في نفسي دينًا للمحبة والتسامح والتآخي واليسر والتعقل، ابتلي برجالٍ نصّبوا أنفسهم أئمة على أبنائه وغسلوا أدمغة البُسطاء منهم وراحوا يستغلونهم أبشع أنواع الاستغلال خدمة لمآربهم الشخصية ولمصالح الذين وراءهم. لقد بلغ فيهم الاستغلال حد الإجرام فجعلوا من هؤلاء المساكين قنابل موقوتة يفجرونها ساعة يشاؤون، كي يقتلوا الأبرياء أينما وحينما يحلو لأولئك «الأئمة»، حتى وإن كانت ضحاياهم تؤدي الصلوات لخالقهم، لا فرق في المساجد كانوا أم في الكنائس. ثم يسمّونها «عمليات استشهادية» دفاعًا عن هذا الدين الذي هو بريء منهم، براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب.

هؤلاء البسطاء الذين ينفذّون، وللأسف ببراءة المؤمن الموعود بالجنة وبالحور العِين، أوامر أولئك «الأئمة» المختبئين في جحورهم كالفئران، أظهروا للإسلام وجهًا لا علاقة له به، فإذا بالكثير من أبناء الأمم الأخرى أصبحت لديهم قناعة بأن الإسلام والإرهاب صِنوان.

أما الوحدة العربية التي كنتَ من أنصارها، بل من عشاقها، وكنت دومًا ترجو ربك أن يبعث من بين أبناء يعرب قائدًا يزيل تلك الحدود الوهمية التي فرضها الاستعمار بُعيد الحرب العالمية الأولى، فلم تعد يا والدي الحبيب، تذكر على لسان

[1] تُوُفِّي في العاشر من شهر تشرين الثاني من عام 1970 رحمة الله عليه. كتبتها في 2010/11/10.

أيٍّ ممن يُسمَّون مسؤولين عن هذه الكيانات العربية، بل على العكس من ذلك فهم يعملون ب«إخلاص»، سواء عن علم مسبق أم عن جهل مطبق، على تفتيت هذه الكيانات المسماة دولًا.

وبذور محبة الأوطان التي كنت، دومًا، تُرويها في حدائق القلوب، جرى تطعيمُ ما أنبتت، وفي بداية نموه، لا كما يُطعِّم المزارعُ الأشجارَ البرّية لتصبح طيبةً مثمرة، بل طُعمت بمطاعيم التفرقة وبأنّ مصلحة الأجنبي أهمُّ من مصالح الوطن وأبنائه. وكي لا تؤثّر عوامل الوطنية الحقّة في براعم هذه المطاعيم، أُلبِستْ أثوابَ الطائفية والمذهبية تحت شعار «تعدد الحضارات والثقافات غنىً»، إلى أن نمت تلك الأشجارُ وأينعت ثمارها فوُزعت على بسطاء العقول وضعاف النفوس لتغذيهم بالتفرقة والكُره والبغضاء بين أبناء البلد الواحد، إلى أن عمّ التقاتل والقتل والتقتيل والتهجير والإجرام بجميع أنواعه وأشكاله وألوانه في لبنان، هذه «القطعة من الجنة»، على مدى خمسة عشر عامًا بدأت بعد غيابك عنا، يا والدي، بنحو السنوات الخمس، وما زلنا حتى يومنا هذا نرزح تحت تلك الأضرار، سواء المعنوية منها أم المادية، التي خلّفتها لنا تلك السنوات العجاف. فكانت النتيجة أن صحّت على اللبنانيين نبوءة المرحوم كمال جنبلاط حين قال عنهم: «قسم يموت وقسم يهاجر وقسم يُجنّ». وقد بلغ بنا الجنون أن تحولت المذاهب الدينية أحزابًا سياسية متنافرة، كي لا أقول جيوشًا متحاربة...

أمّا إن سألتني عن الأخلاق الحميدة التي أنشأتنا عليها وكنت دومًا تنمّيها فينا، فلم يعد لها وجود إلاّ في القليل من نفوس أبناء وطني.

المال أصبح معبود البشر يسعون دائبين للحصول عليه، سالكين جميع السبل وبجميع الوسائل على مبدأ: «الغاية تبرر الوسيلة». فالرشوة، التي كنت تمجُّها، وتحضنا ليس فقط على اجتنابها، بل أيضًا على محاربتها، على الرُّغم من ضآلتها في أيامك، ومن سريتها ومن حياءِ المرتشين والرَّاشين معًا، فقد أصبحت اليوم عامَّة وعلنية يطلبها المرتشون بكل وقاحة ومن غير سقف لقيمتها. وإذا صودف بينهم متعفِّفٌ عنها فترى أقرانه يسمونه: «حمارا».

المحبة والتآخي بين الناس لغير تجارة أو كسب ماديّ، اللتان عملت دوما على نشرهما بين أبناء وطنك، حتى أسست ورعيت طويلًا الجمعيات لهذه الغاية، انقلبتا في هذه الأيام إلى الرياء والمراآة في سبيل الوصول إلى غاياتهم، سواء المادية منها أم المعنوية.

فيا والدي الحبيب، لن أطيل عليك أكثر من هذا إذ بإمكاني أن أكتب المجلدات عن هذه الأوضاع والأحوال المزرية التي نعيش فيها. وأعود لأقول هنيئًا لك في مثواك الأخير لأنك لم ترَ شيئًا من هذا القليل الذي أخبرتك به.

رحمك الله ودامت تعاليمك دستورًا لي ما حييت أنا ابنك الذي لم ينسَ يومًا سؤالَ الباري تعالى أن يزيدك رحمة وغفرانًا.

خطبة في حفل تكريم[1]

المرحوم عارف أبو شقرا

أصحاب المعالي والسعادة، سيداتي سادتي

عرفته ولم أعرفْهُ، عبارةٌ جرت على لساني بعد أن تجمعت تحت ناظري هذه الكميةُ من الأعمال التي تركها عارف أبو شقرا والتي جمعتها في هذا المجلد. عرّفني به الدم الشقراوي الذي جرى في عروقه ولم يزل يجري في عروقي. ولكن هل كان من السهل عليّ، ولم أكن بعد قد بلغت العشرين من سني العمر يوم غادرنا إلى الدار الآخرة، أن أعرف فيه المربيَ والمعلمَ والشاعر والأديب والمؤرخ والصَحفي والنقابي والحزبي والمؤمن المتدين المتمسك بتعاليمِ دينه بعقلٍ راجحٍ، جعل المعلمَ كمال جنبلاط يقول فيه: «هذا التمسكُ بأهداب العقل جعل عارفَ أبو شقرا لا يتصورُ الإيمانَ والدّينَ أشياء متحجرة معقدة يجب أن تبقى على ما تغلفت به من تقاليد للحياة وعاداتٍ للفكرِ رجعية».

صحيحٌ أنه غادرنا منذ نيفٍ وخمسين سنةً، ولكنه لم يزلْ حيًا بيننا بروحِه التي زرعها في ما خلَّفه من تراث ولم تزل تجولُ بيننا، فكلما صدح صوتٌ في أحد معاهد جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية منشدًا:

عَهْدَنَا بالمقاصِدِ *** في ظِلالِ المَعَاهِدِ

ذُكِرَ عارفُ أبو شقرا شاعرُ المقاصد وكاتبُ أبيات هذا النشيد.

وكُلَّما ذُكرت جريدة الأنباء ذُكر معها «أبو ذرٍ»، صاحبُ افتتاحيتِها، «دعاء» ثم «شذرات»، منذ عددها الأول.

---

[1] ألقيتُ هذه الخطبة في حفل تكريم المرحوم عارف أبو شقرا في قصر الأونيسكو في بيروت يوم الأربعاء الواقع فيه 23 تشرين الثاني 2011 لمناسبة صدور كتاب (أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا) وهو عبارة عن مجلد يحوي خمسة كتب. والذي كان لي شرف تحقيقه.

وكُلَّما نطق بالضاد واحدٌ ممن لم يزالوا على قيد الحياة، أطال الله أعمارهم، ممن تتلمذوا عليه، ذَكرَه شاكرًا له تلك الأسس التي أعطاهُ إياها في حَدَاثتِهِ كي يبنيَ عليها ملكةً لغويةً أصبحت، للأسف، نادرةً في أيامنا هذه، وقد رأينا اليوم عينةً منها في ما أتحفنا به أستاذُنا الكبير محمد البعلبكي، نقيبُ وعميدُ الصحافة اللبنانية، والذي خطر لي يومًا أن أسألَهُ قائلا: هل عرفت عارف أبو شقرا؟ فإذا به ينتفض قائلا بصوتٍ تعلوه نبرةُ الفخر: طبعًا عرفته فقد كان معلمي وأستاذي رحمه الله.

وهنا أرغب في أن أُلقيَ على مسامعِكم ما حصل لي مع معالي الأستاذ إدمون رزق في أول مرةٍ أخاطبه فيها، وكانت هاتفيًا، فبعد أن حييته عرَّفتُه باسمي، فأجاب بأدبه وخُلُقه: تشرفنا، ولكن لم أكد أقول له بأنني بصدد تجميع تراث المرحوم عارف أبو شقرا، حتى أسمعَ ذلك الصوتَ الوقورَ يتبدلُ إلى صوتٍ من قد عثر للتوّ على صديقٍ له بعد غياب طويل، ليقول لي بسرورٍ واضحٍ: نعم نعم هذا صديقي وزميلي، كنا سويةً في مجلسِ نقابة المعلمين إبّان حقبةِ الجهادِ التي خاضتها النقابة لاستصدار قانون المعلمين، وإنّي على استعدادٍ لأية مساعدة قد تطلبُها مني. فإذا بذلك الشعور الذي تملكني في بداية حديثي معه، في أنّي كنت أخاطب رجل سياسة لا يربُطُني به أيُ رابطةٍ، بل لم أكن قد اجتمعت به من قبلُ، ليتحول إلى شعورٍ نابعٍ من صداقةٍ متجذرةٍ تعود أصولُها إلى عقودٍ من الزمن. وهنا لا بد لي من أن أنوِّهَ بأن الصورتين الوحيدتين اللتين حواهما هذا المجلد كانتا من محفوظات (أرشيف) معالي الأستاذ إدمون وقد سهوت عن أن أشير إلى ذلك في متن الكتاب، فعذرًا يا أستاذي الكريم وجلَّ من لا يسهو.

وإذا ما أردت أن أسترسل في سرد أقوال كثيرين ممن التقيتهم ممن تتلمذوا على عارف أبو شقرا أو عاصروه فسيطول بنا المقام ولذا أرجوهم أن يتقبلوا اعتذاري، وأخصّ منهم بالذكر من هم بيننا الآن.

أيها السادة الكرام

كثيرون منا عرفوا من أعمال عارف أبو شقرا: تحقيقَه لكتاب: «الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية» الذي كتبه والده، وكُتُبَه: «ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف» و«دروس في الإملاء والمحفوظات» و«خمسة شعراء جاهليين»، وهذا الأخير كتَبَه بالاشتراك مع صديق عمره الدكتور عمر فرّوخ، رحمه الله. وقد كنت أنا أيضًا واحدًا منهم، إلى أن بدأتُ بتحقيقِ أعماله الأخرى التي لم يتمكن، في حياته، من أن ينشرها كتبًا، والتي صنفتُها في الكتب الخمسة التي يضمها هذا

المجلد، بتنوعها من شعرٍ وتاريخٍ وأدبٍ ونقدٍ اجتماعيٍ واقتصاديٍ وسياسيٍ وأدبيٍ وقَصَصٍ وروايات من واقع الحياة في جبل لبنان في القرن التاسع عشر، وقد رغبت في وضعها في متناول أيدي أبناء لبنان عمومًا والأجيالِ الصاعدةِ خصوصًا، كي يطلعوا على أفكار وعادات وقيم آبائنا وأجدادنا.

كما أرجو كلَّ من يستطِيع أن يُنهِضَ من السُبات ما تحويه خزائنُ الآباء أو الأجداد من أعمالهم غير المنشورة، فليفعلْ من دون تردد إذ لا بد من أن يكون ولو في بعضٍ منها كنوزٌ فكريةٌ. وقد قال الشاعر الإنكليزي جون ميلتون: «إنّ قتْلَ كتابٍ جديدٍ لا يقلُّ عن قتْلِ إنسان. فمن قتلَ إنسانًا قتلَ كائنًا عاقلًا في صورةِ الله. أما من قتل كتابًا جيدًا فقد قتلَ العقلَ نفسَه، بل قتلَ صورةَ اللهِ عينَها».

وفي الختام، وبالنيابة عن أبناء عائلتي، أبو شقرا، وبلدتنا، عماطور، أتقدم منكم جميعًا بجزيل الشكر لمساهمتكم في إنجاح هذا الاحتفال، ولا بدّ لي من أن أخصّ بالشكر كلًا من: جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ومنتدى الفكر التقدمي وجريدة الأنباء ونقابة الصحافة ونقابة المعلمين، والأب الروحي لهذا الاحتفال، واضع مقدمة هذا الكتاب، معالي الأستاذ إدمون رزق. ورحم اللهُ عارف أبو شقرا من كان السببَ في اجتماعنا هذا،

وعشتم وعاش لبنان.

جمال الخريف في مونتريال[1]

تبدأ تباشير فصل الخريف في مونتريال بالظهور قبل موعده «الجغرافيّ» بنحو الشهر. فحرارةُ الجوّ، يروحُ يتناوبُها فصلا الصيفِ والخريفِ، ولكن لا كحركة المدِّ والجزر إذ في هذه انتظامٌ زمنيٌّ، بل هي أشبهُ بلعبةِ شدِّ الحبلِ تتأرجحُ فيها الغلبةُ بين الطرفين في كلِّ لحظة وفي غير انتظام، فبعد أن تتيقنَ من أنَّ الغلبةَ ستكونُ لهذا الفريقِ فإذا بك تراها تحولت إلى الآخر. وهكذا تصبحُ حالُ الجوّ، فاليوم ترتفعُ الحرارةُ إلى ما يزيدُ عن الثلاثين درجةٍ مئويةٍ وفي اليوم التالي قد تنخفض إلى ما دون الخمس عشرة أو قد تتدنى ليلا لتصل إلى السبع درجات، لتعود إلى الارتفاعِ غدًا أو بعد غد.

وقد نستيقظُ صباحًا وقُبّةُ السماء لا يعلوها أيُّ وشمٍ من الغَمامِ، وأشعةُ الشمسِ تملأ الأرضَ والسماءَ. ثم قد لا تمضي ساعاتٌ معدوداتٌ ليتحوّلَ صفاءُ الجوّ إلى غيومٍ متلبدةٍ تمنعُ ولو شعاعًا واحدًا من أشعة الشمسِ أن يخترقَها، فينوبُ عنها وميضُ البرقِ في تزويدِ الطبيعةِ بفُسحاتٍ متقطعةٍ من النورِ. وتتولى الرياحُ مهمةَ هَزْهَزَةِ الأشجارِ فترى أغصانَها والجذوعَ تتمايلُ كأنها تتراقصُ على أنغامِ حفيفِ الريح، بينما دويُّ الرعدِ يصمُّ الآذان. ثم ينهمرُ المطرُ غزيرًا فتغسِلُ أمواهُهُ أوراقَ وأفنانَ الشَّجرِ وإسفلتَ الطرقاتِ وأسطحَ المنازلِ والسياراتِ، على الرُّغمِ من نُدرةَ التلوثِ في الجوّ، تجعلُ كلَّ شيءٍ في مونتريالَ يَلبسُ دومًا ثوبَ النظافةِ. إنَّها عاصفةٌ عابرةٌ، أو كما نقولُ في شرقنا: «سحابةُ صيفٍ»، قد لا تمتدُّ لأكثرَ من ساعةٍ واحدةٍ تهدأُ بعدها سريعًا، فتتحولُ تلكَ الغيومُ، في ساعاتِ الأصيلِ، إلى أشكالٍ فنيةٍ، متناثرةٍ هنا وهناك، تنعكِسُ عليها أنوارُ شمسِ الأصيلِ راسمةً لوحةً متعددةَ الأشكالِ متناسقةَ الألوانِ المتدرجةِ من الرماديِّ الدّاكنِ إلى الأبيضِ الناصعِ، يتخلَّلُها الأصفرُ والبرتقاليُّ والأحمرُ، إلى أنْ تنحسِرَ مع تواري قرصِ الشمسِ خلفَ الأفقِ البعيدِ.

أُطِلُّ في الصباحِ من على شُرفةِ المنزلِ لأمتّعَ ناظريَّ بلوحةٍ فنيةٍ أُخرى رسمَتها بلديةُ المدينةِ، بِساطًا سُندسِيًا من العُشبِ الأخضَرِ تعلُوهُ أشجارٌ متنوعةٌ، غيرُ مثمرةٍ، تتراوحُ طولًا بين المترين وما يزيدُ عن الخمسةَ عشر مترًا، في

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرّسالة – مونتريال – كندا في العدد 422 تاريخ 2018/9/14.

حديقةٍ شاسعةِ الأطرافِ، هي واحدةٌ من عدّةِ حدائقَ عامَّةٍ موزعةٍ على أحياءِ المدينةِ، رئاتٍ تزودُ السُّكان بالهواءِ النقيّ، وملاعبَ للأطفال، ومتنزهاتٍ للمسنين. ومع تباشيرِ فصلِ الخريفِ يبدأ المشهدُ يتبدّلُ يوميًا حتّى ما بعد بدايتِه الجُغرافيةِ ببضعةِ أسابيع. اليوم أرى بضعَ وريقاتٍ سَقطتْ عن الأغصانِ وافترشَت الأرضَ، بعد أن زادَ اصفرارُها إلى البنّيّ. وبعدَ يومٍ أو اثنين أرى اخضرارَ أوراقِ شجرتين أو ثلاث قد رُصّع بمجموعاتٍ من الأوراقِ الصُّفر، تقولُها عناقيدُ عنبٍ، لوَّحَتْها شمسُ الصيفِ بقليلٍ من الصُفرةِ، تتدلى من بين أوراقِ كرمةٍ عُلّقتْ أغصانُها على شجرةِ ملُّولٍ في أعالي جبالِ لبنان. ثم تأخذُ أعدادُ تلك الأوراقِ تتزايدُ وتتبدَّلُ ألوانُها بالتدريجِ. فبعد أن تزدادَ صُفرةً يومًا بعد يومٍ، تأخذُ بالتّحوّلِ إلى الاحمرارِ ليقرُبَ بعده من البُنّيّ، فترى الشجرةَ الواحدةَ، أحيانًا، متلونةً بخمسةِ ألوانٍ أو أكثرَ. ثمَّ تروحُ تتساقطُ على أعشابِ الحديقةِ، التي تحتفظُ بخُضرتِها حتى تُغطّيها ثلوجُ الشتاء، إلى أن تعرى الأغصانُ تمامًا معلنةً البدايةَ الفعليةَ لفصلِ الخريفِ. أما أشجارُ الأرزِ التي تنتصِبُ في أماكنَ متفرقةٍ من الحديقةِ، كأنَّها هناك لحراستِها، فتتحدَّى بشُموخِها عواملَ الطّبيعةِ محتفظةً بأوراقِها الخُضرِ على أغصانِها على مَدارِ السّنةِ .

وفي طرفِ الحديقةِ القريبِ من المبنى، الذي نسكُنُ في إحدى شققِ الطبقةِ الخامسةِ منه، بضعُ شُجيراتٍ تلاصَقَتْ وتكاثفتْ كأنَّها عُلَّيقَةٌ صغيرةٌ، ولكن من دونِ شوكٍ، على حافَّةِ ساقيةٍ في ربوعِ جبالِ لبنان.

وبجانبِ هذه «العُليقة» شجرةٌ سبقتْ أخَوَاتِها بالتّعرّي كُليًا، حولَها بِضْعٌ بأوراقِهنَّ المتلونة، كأنّهُنَّ يُحاولْنَ أن يَحتضِنَّ تلكَ الأختِ ليدْرَأنَ عن أفنانِها نفحاتِ نسائِمِ رياحِ الخريفِ .

ومع أوائلِ شهرِ تشرين الأول (أكتوبر) يبدأ لونُ أوراقِ تلك «العُلَّيقةِ» يتحولُ يومًا بعدَ يومٍ من الأخضرِ إلى الأحمرِ الأرجوانيّ بمنظرٍ أراهُ كلَّ صباحٍ يتبدلُ بانتظامٍ بازدِيادِ عددِ الأوراقِ المُحمرَّة، إلى أن يذوبَ الأخضرُ كليًّا في الأرجوانيّ، ثم يروحُ هذا يتحولُ إلى الزَّهريّ فالأبيض فالأصفر، وقد تستغرقُ مراحلُ هذا التحوُّلِ ما يقارب الشَّهرَ الواحدَ، إلى أن تبدأَ تلك الأوراقُ تتساقطُ كأنَّها تريدُ تخفيفَ الحملِ عن الأغصانِ التي تتحضَّرِ لاستقبالِ ثلوجِ الشتاءِ القادمِ.

هذه اللوحةُ التي تُرسُمُها أشجارُ حديقتِنا هي صورةٌ مصغّرةٌ عمّا نراهُ في خارجِ المدينةِ، حيثُ تكسُو تلك الألوانُ، بتنوُّعِها وتعدُّدِها، أشجارًا، متلاصقة الأغصان، قائمةً على أراضٍ مختلفَةِ المساحاتِ، من جزيرةٍ صغيرةٍ في إحدى

البحيراتِ إلى سهولٍ واسعةٍ تمتدُّ عشراتِ أو مئاتِ الكيلو مترات، «جنات على مد النظر» .

فسُبحَان الخالق فيما خلق.

في ذكرى المرحوم والدي[1]

منذ نيّفٍ وأربعة عقودٍ رحلتَ عنا يا والدي الحبيب وانتقلتَ إلى جوارِ ربّكَ. لم أكن يومها طِفلًا فسنواتُ عمري كانت تضعني في أوائل سنِّ الكهولة، ولكنني كنت دومًا أشعرُ بأنّي طِفلٌ أمام بحر معرفتك.

هذه الثلاثة والأربعون عامًا لم تنسني منك شيئًا: وجهكَ الحسن، قوامكَ، وقارك، طلعتكَ البهية، هدوء طبعكَ، رجاحة عقلك، سعة معرفتك، حُلمك، طيبة نفسك، محبتك للناس. فلم أرَ منكَ يومًا علاماتِ الكُرهِ تُجاه أحدٍ منهم بمن فيهم من حاول أذيتك أو أذاكَ.

كم أرشدتني، وأنت معنا، إلى حلِّ العُقدِ التي واجهتني.

سنواتٌ عديدة لم يمرّ يومٌ عليّ منها لم أذكرك فيه. وكم مرّة كنت أبحث فيها عن معلومة ما، أعادني فيها عقلي الباطن إلى اللجوء إليك فأردّد في نفسي جملةً اعتدتها في حياتك قائلًا: «سأسأله». ولكن سرعان ما يُعيدني أسى فراقك إلى واقع الحياة وسننها، فأراني من دونك.

لم أنسَ يا والدي الحبيب ما علمتني من الحِكَم والأمثال والأقوال المأثورة. ولم أزل أشعر بالفخر وأنا أقول لمُحدّثِي: كان والدي يقول كيت وكيت، أو حفظتُ عنه كذا وكذا...

لستُ أدري يا أبتِ إذا كُنتَ تتطلعُ من عليائكَ على حال عيشتنا التي جعلني حُبّي لكَ أقول: هنيئًا لك بأن رحلتَ عن هذه الدنيا قبل أن ترى هذا التشرذم لا في الوطن العربي فقط، الذي كُنتَ من دُعاةِ وحدته، بل أيضًا في لبنانك «جبلكَ» الذي أحببتَ. هنيئًا لك لأنك لم تعِشْ لترى هذا الفساد الذي يُعشّشُ في نفوس الغالبية العُظمى ممن يُسمَّوْنَ: «رجالاته» أو «المسؤولون» عن زمامِ أموره.

لبنان الذي كان في أيامك «سويسرا الشرق» أعادوه إلى عصر الجاهلية الأولى، اقتتل أبناؤه فيما بينهم خمسَ عشرة سنة، زُهِقت فيها من الأرواح ما يزيد عن المائة والخمسين ألفًا ما عدا من عوّقته جروحه وأقعدته عاجزًا في إحدى

[1] كتبت هذا المقال في 2013/11/10، في الذكرى الثالثة والأربعين لوفاته.

الزوايا، ولا تسألْ عن التهجير القسري سواء داخليًا أم إلى أقصى حدود المعمورة. ولم نزل، بعد ما يزيد عن العقود الثلاثة، نعاني من آثار تلك الحرب القذرة.

فلسطينُ دخلت في عالم النسيان. العراق أصبح ثلاثًا بعد أن دنّس الاحتلال الأجنبي أرضه. وقُتِل وهُجِّر الملايينُ من أبنائه، وما زال الموت يحصد فيه المئات يوميًا. مهد الحضارةِ دُمرت معالمه وسرقت آثاره ونُهبتْ موارده.

بلاد الشام، أرضُ الحضارات، منذ ما يزيد عن العامين ونصفِ العام ونيرانُ التقاتل، بين أبنائها، تلتهم الأرواح منهم من دون تفريق بين طفلٍ أو امرأة أو شابٍّ أو عجوز. مئات الآلاف حتى اليوم أمواتٌ وجرحى، الملايين تاهوا نازحين أو لاجئين في أصقاع الأرض. دمارٌ وخرابٌ ونهبٌ وحرقٌ والآتي أعظم.

واليمن وتونس وليبيا ومصر لا يعلم مصيرها إلا الله عزّ وجل.

دينُ الإسلام السمحُ تُذبحُ الناس باسمه ذبح النعاج، ولكن اطمئنّ يا والدي فما زالوا يقولون: «الله أكبر» ... و«لا إكراه في الدين» أصبحت: «من ليس من رأيي واجبي أن أذبحه من الوريد إلى الوريد». أعوذ بالله... أعوذ بالله... أعوذ بالله...

وأخيرًا يا أبي الحبيب: نمْ قرير العين فالحمد لله لم يشُذّ عن تعاليمك أيٌّ من ذُريتك، ولم تُلطّخْ يدُ أيٍّ منا سواء بالدمِ أم بالفساد.

رحمة الله عليك في مثواك الأخير.

من سنوات العمر[1]

اليوم انقضت خمسةٌ وسبعون عامًا من العمر، ولا أعلم كم بقي لي منها. أنا اليوم متقاعدٌ، أبٌ لثلاث زهراتٍ وجدٌّ لحفيدين، أرجو الله أن تكونَ أعمارهم جميعًا مديدة مِلؤها الصحة والسعادة والتوفيق. ابيضَّ ما تبقى من شعر رأسي كثلج صنين، وأحنَت السنون ظهري بما أثقلت كاهليَّ.

كلما استرجعت ذكرى تلك السنين أشعر كأنها مرّتْ كأيامٍ معدوداتٍ. شريطُ فيلمٍ سينمائيّ طويلٍ يمرُّ أمام مخيلتي في بضع ثوانٍ. فبالأمس تزوجت وبالأمس بدأت حياتي العملية، بل وبالأمس فقط كنت طفلًا يلعب بين أشجار حديقة منزلنا في جديدة مرجعيون، يتسلق غصونها ليقطف ثمرةً من تين أو مشمش أو أكّي دنيا.

وأعود إلى الواقع فأستعرضُ ما علمتني الأيام بحلوِها ومرّها فأستخلصُ بعضًا منه:

مهما طال بقاؤنا في هذه الدنيا تبقى الحياة قصيرةً، فلنملأْ بالمسرّة والأمل والتفاؤلِ كلَّ ساعة من ساعاتها مهما قست ظروفها.

مهما بلغنا من العمر يبقى في داخل كلٍّ منا قلبُ طِفْلٍ يطغى بشعوره أحيانًا على شعور قلبنا العجوز، ومن دون علمٍ مسبّق.

النكد قاتلُ الحبِّ والمحبّة، ومنشارُ الأجسام والأعمار.

عوِّدْ لسانكَ على النطقِ بالكلمة الطيبة فهي قد تجعل العدوَّ صديقًا. أما السيئةُ فقد تجعل الصديقَ عدوًا.

لا تدعْ يومًا يمرّ من عمرك من دون عملٍ منتجٍ، ولو كان ضربةً واحدةً من قلمٍ أو معولٍ أو مطرقة.

الأعمالُ العظيمة تبدأُ حلمًا.

المحبة لا تكون دومًا بالعطاء، فقد يكون في الحرمان أحيانًا، كثيرٌ من المحبة.

[1] كتبت هذا المقال يوم بلوغي الخامسة والسبعين في 2014/4/8.

العائلة أساس الوطن، وبقدرِ ما تكون صالحةً يصلحُ الوطن، وإذا كان الأبُ رأسَ العائلة فالأمُّ عمادُها فهي التي تجمع أو تفرّق. كما يقول المثل العاميّ: «الأمّ بِتْلِم».

السعي وراء الرّزقِ واجبٌ، ورعاية العائلة أوجبُ.

يجبُ ألاّ يُنسينا العملُ التمتعَ بدفء وحنان العائلة.

ابتسامةُ أو ضحكةُ طفلٍ لا تُقدّرُ بثمن. وإسعادُه، ولو بلمسةِ حنانٍ، أعظم من الصدقة.

الإيمان حاجة ضرورية للإنسان، وكما قالَ أحدُ الحكماء «لولا الإيمان لهلكَ الإنسان».

التَّزمُّتُ والتعصُّبُ يشوهان كل معاني الدين والإيمان، ويدمران المجتمع والوطن.

أنا لستُ دومًا على حقٍّ، فقد يكون غيري مُحِقًّا وأنا مُخطئًا، فلا يجوزُ لي أن أرفضَ رأيَ غيري لأنه يُخالفُ رأيي.

عليَّ أن أقبل الناس كما هم فأنا لا أستطيع إعادةَ تكوينهم كما أرغب في أن يكونوا.

أنا لست وحدي في هذه الدنيا ولحرّيَتي حدودٌ يجبُ ألاّ تتخطى حدودَ حرية الآخرين. والحرية المطلقة حلمٌ وسرابٌ.

عندما نسترجع الأيام الخوالي تُسيطر على مُخيلتنا الذكرياتُ الجميلةُ ونتناسى المُرَّ منها.

قولُ الحقّ ولو حسِبْنا فيه الخسارة، أفضلُ من الكذبِ ولو حسبنا فيه الربح.

الحقيقة لا تخفى إلى الأبد.

الصِدقُ من صفات الأنبياء.

العِتابُ كالملح للطعام، قليله يُقرّبُ الغريبَ وكثيره يُنَفِّرُ الصديقَ.

التنظيم في العمل يوفِّر الكثيرَ من الوقت والجهدِ.

إذا صنعتَ معروفًا لأحدٍ فلا تنتظرِ المقابلَ منه هو، فقد يأتيك ممن لا تتوقعه.

بعضُ الأمورِ يمكننا التحكّمُ بها وأخرى تُفرضُ علينا من حيث لا ندري، فالإنسان مخيَّرٌ ومسيَّر.

هذا غيضٌ من فيضِ ما علمتنيه الثلاثة أرباع القرن التي كُتب لي أن أكملها في هذا اليوم من سنوات العمر، ولست أدري هل أو كم بقي لي من مزيد.

والشكر والحمد دومًا للباري تعالى، موزّع الأعمار والأرزاق.

حوارٌ مع القلم[1]

خاطبني قلمي يومًا، قائلًا: يا سيّدي، لقد مضى على ريشتي ما يناهزُ نصف قرنٍ من الزّمن وهي تخطُّ أرقامًا يابسةً جامدةً لا حياةَ فيها، ألا يحقُ لها، بعد هذه العقود، أن ترسِمَ حروفًا تُصاغُ كلماتٍ ذوات معانٍ وصور؟

فأجبتُه: يا صديقي ورفيقي على دروبِ هذه الحياة الدنيا، لولا العَشَرةُ والمِائةُ والألفُ لما كان لنا، أنا وعائلتي، طعامٌ يغذّي أجسادَنا وشرابٌ يُنعشُها ومنازلُ نأوي إليها وننعمُ بالسّكينة فيها.

قال: لا شكَّ في ذلك، ولكن بقدرِ ما يحتاجُ الجسدُ إلى الغذاءِ المادِّيّ، تحتاجُ النّفسُ إلى غذاءٍ روحيٍّ تُعطيها إيّاهُ الكلماتُ الطّيّبةُ، ولا يقلُّ أهمّيّةً عن المادِّيّ.

قلت: والأرقامُ، أيضًا، أساسُ كثيرٍ من العلومِ والصّناعات التي قدّمت، وتقدِّمُ، لنا الوسائلَ المتعدِّدة الأشكال والأنواع، التي تسهِّل اليوم سُبلَ عيشِ البشرِ على أديمِ هذه الأرض.

قال: ولكِن، ألا ترى يا سيّدي، أنّ تلك العلوم قد أوجدتْ أيضًا وسائلَ عديدةً قتلت الإنسان والحيوان، وأفسدت الغرْسَ والزّرعَ والتُّرابَ والماءَ والهواءَ، ودمّرت الحجرَ، ولم تزلْ؟

قلت: هذا صحيحٌ، ولا أحد يُنكِر أنّ لكلّ شيءٍ حسناتِه وسيئاتِه، سواءٌ ممّا خلقَهُ اللهُ أم صنعه الإنسانُ، فالشّمسُ التي تُنيرُ بأشعّتها النهارَ قد تحرقُ حرارتُها الأبدانَ، والماءُ الذي يُنعشُ الأجسادَ قد يُميتُها غرقًا. والسُّمُّ قليلُه دواءٌ وكثيرهُ فناءٌ. والاختراعاتُ والاكتشافاتُ الحديثة إن استُخدِمت للخير نفعت، وإن وُجِّهت للشّرّ قتلت ودمّرت.

قال: أجَل، وهنا يكمنُ دورُ غِذاء الرّوح. فإنْ زُرِعتْ ونَمَت في النُّفوسِ بذورُ الكلمةِ الطّيّبة، تغلّبَ جوهرُ الخيرِ فيها على الشّرّ وعمَّ الأرضَ السّلامُ والأمنُ والأمانُ. أمّا إنْ خبُثت البذورُ فسيخرجَ منها مارِدُ الشّرّ ويحوّلَ الأرضَ جحيمًا لا يُطاق.

قلت: نِعْمَ الرأيُ الصّائبُ بما نطقتَ يا صديقي الصّدوقَ، فها قد حانَ وقتُ التّقاعدِ، لا القعود، فإنّي أعدُكَ بأنّني، فيما تبقّى لي من العمرِ المقسومِ بمشيئةِ الله تعالى، ومن دونِ أن أهجرَ الأرقامَ أو أتخلّى عنها كليًّا، فسأُفسِحُ لك الحيّزَ الأكبرَ

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – مونتريال – كندا في العدد 431 تاريخ 2019/2/8.

لبناءِ كلماتٍ، تَزرعُ الخير في النفوسِ، وتُحاربُ فيها الشّرَّ، أحجارُها أحرفٌ طيّبَةٌ، تتمتّع برسمِها ريشتُكَ الوفيّة. فبشِرْها وهيّئْ لها المِدادَ الكافي.

بيرُوتُكم وبيروتُنَا[1]

قالت لي ابنتي يومًا: يا أبتِ، إنّك تقطع آلاف الكيلومترات لتأتيَ من مونتريال إلى بيروت لتمضي بيننا أسابيع معدودات، ثم أراك في معظم الأيام تبقى حبيس هذا المنزل، فلماذا لا تقوم بزياراتٍ للأماكن التي كنت تتردد عليها سابقًا؟ وبالتأكيد لك ذكرياتٌ كثيرة في العديد منها.

فقلت: يا بنيّتي، إنَّ أكثر وأهمَّ ما يدعوني إلى المجيء إلى لبنان، هو رؤيتكم أنتِ وشقيقتيك وحفيديَّ الحبيبين. أمّا عن الذكريات فلا شكَّ في أنَّ لي منها الكثير الكثير في هذه المدينة التي أحببتها وأمضيت فيها العديد من سنوات الشباب والكهولة. ولكن، يا حبيبتي، بيروتكم اليوم تختلف كثيرًا عن بيروتنا نحن. لقد تغيرت معالمها حتى أنّي بتُّ أشعر بأنّ ما لم يزل يربط بينهما هو الاسم فقط.

فما تسمونه أنتم اليوم «وسط المدينة» كنا ندعوه نحن «البلد»، وشتّان بين الاثنين، ف«البلد» كان بلدنا حيث كنَّا نقصده ونلتقي فيه جميعنا، غنيّنا وفقيرنا ومتوسط الحال على حدٍّ سواء. أما «وسط مدينتكم» فقد أصبح حُكرًا على الأغنياء وميسوري الحال من روّادِ المطاعم والمقاهي والملاهي والفنادق الفخمة، والمحلاتِ التجارية التي تبيع أغلى البضائع. بينما كان أبناء جيلنا وآباؤنا يجدون في «بلدنا» كلَّ ما يحتاجون وبالنوعيات والأسعار التي تناسب كُلًّا منهم.

ثمَّ ماذا تبقى من ساحة الشهداء، والتي كنَّا نسميها أيضًا «ساحة البرج»؟ لا أرى اليوم من قديمها سوى مبنيين اثنين حافظا على شكلهما الخارجيّ فقط، وتمثالَ الشهداء الذي أعيد إليها، ولكنّي كلما نظرت إليه أراه نُصبًا غُرسَ في قطعة أرضٍ صحراوية. فأين جارته، تلك البحيرة، التي كانت تتوسط الساحة، بنافورتها التي كانت تدفع المياه عاليًا لبضعة أمتار. وأين ساعة الزهور التي كانت تعلن الأوقات نطقًا بلغة عربية فصحى. وأين أشجار النخيل الباسقة التي كانت تحميها جميعًا، وطيور اليمام التي كانت تعشش فوق أغصانها؟ وأين تلك الأبنية الحجرية التي كانت تشكل حدود تلك الساحة؟ وأين صالات السينما والمسرح التي كنَّا نرتادها؟ أين «الريفولي» و«الأوبرا» و«الأمبير» و«الدنيا» و«الروكسي» وغيرها؟

[1] نشر هذا المقال في العدد 25946 -جريدة النهار بتاريخ 2016/4/7. - السنة 83. وفي مجلة المستقبل الكندي – السنة الثالثة عدد حزيران 2019.

وأين مسرح «شوشو»، رحمة الله عليه؟ أين سوق الصاغة وسوق النورية وسوق سرسق وخان البيض ودرج الأربعين وسوق الأرمن؟ كلها أصبحت في خبر كان.

ثمَّ ما تسمونه اليوم «أسواق بيروت» فيوم زرتها، وعلى الرغم من إتقان بنائها، شعرتُ بالأسى لأنني رأيتني في مجمَّعٍ تجاريٍّ حديثٍ لا يمتُّ إلى بيروتنا بأيِّ صلة فيما عدا أسماء ممراته. لم أجد فيها من سوق الطويلة وسوق آياس وسوق الجميل وسوق الفرنج وسوق سيور وسوق الجوخ... سوى أسمائها. وأين «بركة العنتبلي» التي كان رواد تلك الأسواق يتحلَّقون حولها ليطفئوا حرّ وعطش الصيف بكؤوسٍ من العصير الطازج أو «العِرقِ سوس»؟

حتى شارع الحمراء الذي كنا في شبابنا نرتاد مقاهيه وصالات السينما الحديثة، التي تحولت اليوم إلى محلات تجارية، أو كنَّا نقصده لنتمشّى على أرصفته ونتنشقَ رائحة الصابون الممتزجة بروائح العطور، تنبعثُ من أثواب وأجساد الحسان اللواتي كنَّ يشاركننا تلك الأرصفة؟

والأبنية البسيطة ذوات الارتفاعات المتوسطة والغرفِ الفسيحة والأسقفِ العالية، التي بنيت، بالحجر الرملي أو الصخري، أو أسطح القرميد، في النصف الأول من القرن الماضي، اختفى معظمها لتحلَّ محلّه هذه «الأعمدة الإسمنتية» الشاهقة الارتفاع، والمسماة «أبراجًا»، بغرفها الأشبه بالعلب. هذه المدينة التي تغسل أقدامَها أمواجُ البحر، بمياهه التي كانت نقية نظيفة، ويظاهرها الجبل الذي كان حلوًا أخضر، حرمت تلك الأبراج عيون سكانها من رؤية البحر والجبل معًا. أمَّا نحن فقد كنَّا، إذا نظرنا إلى بيروت من مشارف الجبل، نرى أبنيتها وبيوتها بوضوح، بينما اليوم فلا نرى سوى غيوم التلوث تحجب رؤيتها ورؤية بحرها بالكامل.

أين أصبح، بساطة العيش ونقاءُ الهواءِ وصفاءُ مياه البحر؟ بل أين المحبة التي كانت تربط بين سكان بيروتنا؟ ففي بيروتكم اليوم، يا ابنتي، الجارُ لا يعرف أسماء جيرانه إلّا إذا قرأها على لوحة «الأجراس» المثبتة على جدران مداخل الأبنية. وإذا ما التقى اثنان منهم في المدخل أو في المصعد فقد لا يتبادلان حتى التحية، بينما لم نكن، نحن، نكتفي بها، بل كنَّا نتبادل الأحاديث المطولة والزيارات، حتى من دون مواعيد، وكأننا نعيش في منزلٍ واحد.

سأدع جانبًا الكلام عن الحالة السياسية والأمنية والاقتصادية وعن الفساد المستشري وعن حقوق المواطنين الضائعة، وعن سوء الأخلاق وانعدام الضمير،

وعن الغلاء والماء والكهرباء وغيرها. وسأكتفي بأن أقول، وبأسفٍ شديدٍ: لقد تبدل اسم لبنان من «سويسرا الشرق» إلى «جمهورية الزبالة».

فهل تلومينني بعد، يا قُرّة العين، إذا ما رأيتني معتكفًا في المنزل أنتظر يوم عودتي إلى كندا، حيث أشعر بأنّني إنسانٌ بكلِّ ما للكلمة من معنى؟

فلا تعذلوا، بل اعذروا، يا أحبتي، إنسانًا كسره الحزن والأسى على وطنه الذي يراه يضيع من بين يديه وهو لا حول له ولا قوة.

شارع الحمراء[1]

في عصرِ يومِ أحدٍ من أواخرِ سِتينيّاتِ القرنِ الماضي، كنَّا، أنا وصديقي سمير، نتنقلُ بين مداخلِ صالاتِ السينما في ساحةِ الشُّهداءِ نبحثُ عن فيلمٍ يثيرُ فينا رغبةَ المشاهدةِ. وكنَّا يومَها لم نزلْ عازبَين وفي أواخرِ العقدِ الثالثِ من سنواتِ العمرِ.

ولمَّا لم نجِدْ ضالتَنا قال سمير: لِمَ لا نذهبُ إلى شارعِ الحمراءِ؟

قلتُ: وما عَسانَا نفعلُ هناك؟

قال: نتنزَّهُ على أرصفتِهِ ونشمُّ رائحةَ الصابونِ.

بدأ نجمُ شارعِ الحمراءِ يتلألأُ في سماءِ بيروتَ إثرَ أحداثٍ أمنيّةٍ، عمَّت الكثيرَ من أنحاءِ لبنانَ لنحوِ الأشهرِ الستةِ في العامِ 1958، بينما بقِيتْ بعيدةً عن ذاك الشارعِ. كما عزَّزتْ مكانتَهُ نهضةٌ عُمرانيّةٌ، حتى احتلَّ صدارةَ شوارعِ عاصمةِ لبنان. إلى أنْ صارَ ذا شُهرةٍ عالميَّةٍ، حتى أصبحَ يقال: «من زارَ بيروتَ ولم تطأْ قدماهُ شارعَ الحمراءِ، كمن زارَ روما ولم يعرّجْ فيها على شارعِ (الڤيا ڤينيتو)». فقد تشابه الشَّارِعان بقِصرِهما وبمحلاتِهما التجاريَّةِ الراقيةِ وبالمطاعِمِ والفنادقِ الفخمةِ وبمقاهِي الأرصِفةِ على الطريقةِ الغربيّةِ. كذلك فُتِحَت صالاتُ السينما الحديثةُ في أرجاءِ شارعِنا، وراحَتْ تستقطِبُ الكثيرين من روَّادِ صالاتِ ساحةِ الشهداءِ. كما اتّخذَ العديدُ من الأجانبِ العامِلين في الجامعةِ الأميركيَّةِ والشركاتِ الأجنبيّةِ، مساكنَ لهم فيهِ وفي سائرِ أنحاءِ راسِ بيروتَ، واختلطوا بسكَّانها اللبنانيّين وبمن أتاها من أحياءِ بيروتَ الأُخرى، وبالسّائِحين من البلادِ العربيّةِ والأجنبيّةِ، فشكّلَ الجميعُ خليطًا من البشرِ المتعدّدِي الثقافاتِ واللغاتِ والأعراقِ. واستمرَّ هذا الشارعُ على هذه الحالِ حتى بِدايةِ ما سُمّي بالحربِ الأهليّةِ في العام 1975، ليتحولَ بعدهُ، مرتعًا لبعضِ «المليشياتِ» المتقاتلةِ في تلك الحربِ اللعينةِ.

[1] كتبت هذا المقال في 24 نيسان 2016 ونشر في العدد 420 من جريدة الرسالة – مونتريال تاريخ 2018/7/27.

لم تكنْ مقولةُ صديقي سميرٍ، يومها عن «رائحةِ الصابونِ»، كلامًا عبثيًّا. فمُولِّداتُ الكهرباءِ العاملةُ على المازوتِ، والمنتشرةُ اليومَ عشوائيًّا في أبنيةِ وزوَايا أحياءِ بيروتَ جميعِها، بل وفي لبنانَ أجمع، لم يكنْ لها أيُّ وجودٍ في تلكِ الحقبةِ من الزمنِ. والكثافةُ السُّكانيَّةُ لم تكنْ تبلغُ يومَها ربعَ ما هي عليهِ اليوم، والحالُ كذلك بالنسبةِ إلى عددِ السياراتِ.

وقد كان ذلك النّهارُ من أواخرِ أيامِ فصلِ الربيعِ، حيثُ كانت حرارةُ الجوّ فيهِ قد تخلصَتْ كليًّا من برودةِ الشّتاءِ ولم تبلغْ بعدُ أُولى درجاتِ حرّ الصيفِ. والعائلاتُ التي اعتادت الاصْطيافَ في جبالِ لبنانَ، كانتْ لم تزلْ بعدُ في مساكنِها البيروتيَّةِ. وكانَ شبابُ وشابَّاتُ أحياءِ بيروتَ يقصدونَ شارعَ الحمراءِ في مثلِ ذلك اليومِ، سواءٌ للتنزُّهِ أم التسكُّعِ أم التسوُّقِ من بضائعِهِ الفاخرةِ. أما الحسناواتُ فكُنَّ يرتدينَ ثيابًا من أحدثِ تصاميمِ بيوتِ الأزياءِ العالميةِ، وكانت روائحُ النظافةِ الممتزجةِ بأريجِ العطورِ الباريسيَّةِ، تفوحُ من فساتينهنَّ وأجسادِهنَّ التي تقولُها قد خرجتْ للتّوّ من بين فقاعاتِ رغوةِ صابونِ الحمَّامِ المختلف الروائحِ. وخلوُّ الجوّ مما قد يُعيقُ انتشارَ تلك الروائحِ العطِرةِ، كان يُتيحُ لأنوفِ المتنزّهين التمتعَ بأريجِها.

ولم يكنْ يقتصرُ دورُ شارعِ الحمراءِ على التنزُّهِ والترفيهِ والتسوقِ فقط، بل شكَّلَ أيضًا مِحجًّا لرجالِ الفكرِ من شعراء وأدباء وإعلاميين وغيرهم، يتلاقَون مجموعاتٍ، كلٌّ منها في مقهًى، تقولُهُم قد استملكوا بعضَ طاولاتِه، وكانَ «الهورس شو» أشهرَ تلك المقاهي. وكم قيل عن شعراء وأدباء بأنهم لم يعرفوا من بيروتَ سوى شارعِ الحمراء.

ولا ننسى أن إحدى أوائلِ عملياتِ مقاومةِ الاحتلالِ الإسرائيليّ، في العام 1982، انطلقتْ من «الويمبي»، وهو أيضًا من أشهر مقاهي ذلك الشارع. فبيروتُ هي العاصمةُ العربيّةُ الوحيدةُ التي تجرَّعت سُمَّ الاحتلالِ يومَ تخلَّى عنها العالمُ أجمعُ، بعدما كانتْ لؤلؤةَ الشرقِ وقِبلة السّائحين. أمّا اليوم فقد تحولَ الكثيرُ من تلك المقاهي إلى محلاتٍ تجاريةٍ. كذلك أقفِلَتْ دُورُ السينما نهائيًّا.

أجل لقد كانت سنوات عزّ هذا الشارع، على قِلّة عددها، من أجملِ السنواتِ التي عاشها أبناءُ جيلنا.

فيا ربَّ السمواتِ والأرضِ، أدعوكَ وأسألك أن تحقِّقَ أمانينا في أن تكونَ سنواتُ أعمارِ أبنائِنا وأحفادِنا وذريَّاتِهم، جميعُها أفضلَ من سنواتنا تلك، وأن يعيشُوا بسلامٍ وأمنٍ وأمانٍ وطمأنينةٍ.

اللهمَّ استجبْ دُعائي يا سميعُ ويا مجيبَ الدُّعاء.

رحلتي إلى الثمانين[1]

بعد أرباعِ القرنِ الثّلاثةِ، انقضى اليومَ (الثامن من نيسان – ابريل) العَقدُ الثُّامنُ مما قسمَ لي خالقي من سنواتِ العُمر. ثمانون عامًا أسأمتْ «زُهيرًا»[2] لكنَّها لم تُسْئِمْني. لقد خصَّني ربّي فيها بزوجةٍ صالحةٍ، ورزقني منها ثلاث زهراتٍ، ملأنَ حياتي بعطرِ وبراءةِ الطفولةِ صغيراتٍ، وبدلالِ وحنانِ ومحبةِ البنتِ يافعاتٍ وشابَّاتٍ، فعرفتُ معنى الحياةِ الهنيئةِ والعِيشةِ الرّاضية. ثم وهبني هديتين من أجمل الهدَايا، حفيدينِ، جعلاني أستعيدُ معهما لذةَ التّمتُّعِ ثانيةً بعذوبةِ الطّفولةِ البريئة.

ولا أنسى ما منحني من القُدرةِ والصّبرِ وطولِ الأناة، أعانتني كلُّها على القيام بأبحاثٍ في القرآن الكريمِ وغيره، أصدرت بنتيجتها بضعة كتبٍ، أرجوه تعالى أن يكون فيها النّفْعُ إلى أبناء قومي والبشرِ أجمعين.

وعلى الرُّغمِ مما مرَّ بلبناننا وبلادنا العربية، ولم يزلْ، من أحداثٍ مؤلمةٍ مؤسفةٍ، وهجرةٍ وتهجيرٍ، فقد حفظَ لي كرامتي وكرامة عائلتي أينما أقمنا أو حللنا. وعند كلّ ضائقةٍ ماديةٍ، ومن دون أن أدري، كنت أرى بابًا يُفتحُ امامي لم أكن أراه. فالحمد والشكر لك يا إلهي.

وعندما أعود لأستعرض بالذّاكرة بعضًا من مسيرةِ حياتي، على مدى تلك الأيام والشهور والسنوات، أراها صورًا تمرُّ في مخيلتي مسرعةً، وأسرعَ مما يمرُّ أمام أنظارنا فيلمٌ سينمائيٌّ تاريخيٌّ.

ثمَّ تقودني الذّكريات لأستخلصَ بعضًا مما تعلّمتُه في «مدرسة» الحياة ولا تحويه الكتب، فأقول:

كلّما تقدّم بنا العُمرُ ازدَدْنا تَقَبُّلًا لأمورٍ كنَّا نأنَفُها.

زَرْعُ الفتنةِ بين الجُهَلاء سهلٌ كإشعالِ النّار في الهشيم، ووأدُها صعبٌ كإطفاء لهيبِ نارٍ متّقِدة.

عوّدْ لسانَك أن يقولَ خيرًا أو فليصمُتْ.

لا تعملْ على تشويه مُعتقداتِ غيرك، فلكلٍّ منَّا معتقداتٌ يُجِلُّها.

الاجتزاءُ أنجعُ وسيلةٍ لتشويهِ الحقائقِ.

---

[1] نشر على صفحتي على الفيس بوك يوم 2019/4/8.

[2] هو زهير بن أبي سلمى بقوله: سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعِشْ** ثمانين حولًا لا أبَ لكَ يسأمِ.

سأواصل دومًا اتباع قول والدي، رحمه الله: لا تقعُدْ في مكانٍ قد يُطلبُ منك أن تغادرَه.

الخطأ لا قاعدةَ له.

ما كلُّ من ابتسمَ في وجهي وأسمعني كلامًا جميلًا، صديقٌ.

إن لم تستطعْ أن تعملَ بالمهنةِ التي تحبُّ، فنجاحُك يضمنُه حُبُّكَ للمهنةِ التي تعملُ بها.

الطُّمأنينةُ والإيمانُ يجلبان السَّعادة.

أهونُ المعْضِلات ما يُحلُّ بالمال.

كثيرًا ما يَفرِضُ علينا العملُ أو الاجتماعياتُ احترامَ أشخاصٍ وإقامَةَ علاقاتٍ معهم، كنَّا نتمنى لو لم نرهمْ في حياتنا قطُّ.

قد أُحبُّ وأُجِلُّ إنسانًا ما، ولكنّي لن أُنزِّهَهُ أُو أقدّسهُ أو أكونَ له عبدًا مهما سما موقعه.

رفقةُ السَّفرِ تكشفُ معدنَ الرَّفيق.

مهما طالتْ عِشرتُك لإنسانٍ ما فلن تعرفَه جيدًا حتى تعاملَه.

الحبُّ الذي لا يستمرُّ إلا بالمال ليس حبًّا.

صاحبُ القلم ذو عقلٍ راجحٍ، وحاملُ السِّلاحِ لا عقلَ له.

من لا يسألُ عنِّي إذا غبتُ، ولا يتذكّرُني إلا طلبًا لمالٍ فلا حاجةَ لي فيه.

بعضُ الكلام يُعمِّرُ، وبعضُه يُدمِّرُ.

لا تُبنى الأوطانُ بصورةٍ أو بأغنيةٍ أو بكلامٍ منمّقٍ أو بأبياتٍ من الشّعر، بل بالعملِ الدّؤوبِ وبكلِّ إخلاصٍ وجهدٍ.

المرأةُ ليستْ داءً مُعديًا أو وباءً لتعزل، ولا سلعةً رخيصةً مبتذلةً لتعرض.

ليس عيبًا في أن تقتبسَ عن غيرك رأيًا أو قولاً، ولكنَّ العيبَ في أن تنسبَهُ لنفسِكَ، وتُغفِلَ اسمَ صاحبِه.

ارسمْ طريقك دومًا قبلَ أن تخطوَ خطوتَك الأولى.

إذا لم يكنْ لديك في حياتكِ هدفٌ تسعى إليه فلا معنى لها.

كثيرًا ما تكونُ المظاهرُ خدّاعةً، فلا تحكمْ على أحدٍ قبل أن تختبرَه جيدًا.

ولا تطلقْ حكمك على كتابٍ قبل أن تدرسه درسًا معمقًا.

في الأزماتِ ينكشِفُ الكثيرُ من المنافقين.

لو فهم النّاس تعاليمَ أديانهم بشكلٍ صحيحٍ لعمَّ السّلامُ الكونَ.

لو كنتُ أعرفُ، قبلَ أن أصبحَ أبًا، لذةَ لقاءِ الأبناءِ، لما ابتعدتُ عن والدَيَّ ساعةً واحدةً.

بعثَ اللهُ الأديانَ لتؤلِّفَ بين البشرِ، فاصطنعوا المذاهبَ لتُفرِّقَ بينهم.
إن رُمتَ عملًا، فليكنْ كما يصلح، وإلا فتركه أصلح.
لو عرف كلُّ الناس جذورهم لعمَّ السلامُ الكونَ.

ختامًا أدعو اللهَ، في يومي هذا، أن يكون ما تبقَّى لي من العمر ما دامت الحياة تليق بي وما دام قلمي لم يجفَّ، وألّا يُريَني مكروهًا في أحدٍ من أفراد عائلتي، كي أُغادرهم قريرَ العين.
اللهم استجبْ دُعائي، وأكرمني وارحمني في شيخوختي.

تعليق الصديق د. علي حرب

وقد علق، على هذا المقال، الصديق العزيز الأديب والمربي الدكتور علي منير حرب، بهذه الكلمات:

صديقي أسامة الذي أعتزّ وأفخر
أسعد الله أيامك وزيّن عمرك بالعافية وضياء الفكر
قرأت «رحلتك الثمانينية الحكيمة» فأعجبت واستمتعت، ووجدتك كعادتك متألقًا فكرًا ولغة وروحًا تتسع للكون كله.
مباركة هي سنوات عمرك يا صديقي، التي لا أحسبها بالعدد إنما بحصاد الحكمة الذي جمعت.
أينما قرأتك يا عزيزي، وكيفما وقعت على نتاج فكرك وقلمك، لا أفقد فيك خصالًا باتت من لصيق لحمك ودمك:
صدق متناه في شفافيته، إيمان ناصع هادئ في رسوخه وتجذره، وحكمة رفيعة تجمع آيات صالحات من خبيز التجربة ومعاركة الأيام والناس.
هنيئًا لك يا صديقي ما أنعم الله به عليك، وليبارك ما تبقى من لياقة الحياة لك، وليبق فكرك وقادًا وقلمك سيّالا ونبع حبك وتسامحك فيّاضًا كفيض النعمة الإلهية علينا.
علي حرب

خمسون عامًا معًا على دروب الحياة[1]

كنّا غريبَين، لا يعلم أحدُنا بوجود الآخر على أديم هذه الأرض. فتلاقينا من دون أن نعرفَ لماذا. وتعارفنا وتوافقنا، ثم ربطت بيننا رابطة الزواج، وجمعتنا تحت سقفٍ واحد، في مثل هذا اليوم الرابع والعشرين من تشرين الأول منذ خمسين عامًا. فأصبحتْ هي أقربَ إليَّ من أمّي وأختي، وغدوتُ أنا أقربَ إليها من أبيها وأخيها.

ومذْ ذاك اليوم، ونحن نسير معًا على دروب هذه الحياة بحلوها ومرّها. رزقنا الله ثلاثَ زهراتٍ ملأنَ حياتنا ببراءة الطفولة صغيراتٍ، وبحنان البنت يافعاتٍ وناضجاتٍ. وهنّ اليوم عونٌ لنا في شيخوختنا. ولا أنسى ذينك الحفيدين اللذين استرجعنا مع كلٍّ منهما لذّة التمتّع ببراءة طفولةٍ، لم ننسَ يومًا طعمها. وكم يسعدُ الإنسان، ويتلذّذ، بحلاوةٍ تذوقها يومًا، ثم عادتْ إليه ثانيةً مكافأةً على يدٍ، سهر الليالي وعارك الأيّام ليراها قادرة على أن تكون أقوى من يدِه.

ولكنَّ رحلة العيش ليست نزهةً، بل هي صراعٌ دائم. وكي يتمكّن الإنسان من الحصول على ما يقيه شظف العيش، عليه أن يكون أقوى من أن تتفوّق عليه صعابُ ذلك الصراع. وإن كان وحيدًا فلن يكون له هدفٌ يسعى إليه. ومن لم يكن له هدفٌ فسيبقى كمن يراوح بين رجليه. وتنشئة العائلة أسمى الأهداف. فهي نواة المجتمع. مصيره مرتبطٌ بمصيرها، فإن صلَحت صلح. وإن تفككت فسد وانهار.

وعلى الرغم من هجراتنا القسرية، وما نزل بلبناننا من أزمات ومصائب، جرّاء ما حدث فيه إبّان مسيرتنا هذه، فقد كانت «ناديا»، رفيقةُ دربي، عمادَ الأسرة الصلب الصبور. فبالصبر والمحبة والتعاضد والإرادة الصادقة تمكنّا، ويدانا متماسكتان، من اجتياز ما واجهنا من العقبات، ومن التغلبِ على المصاعبِ.

فالشكر والحمد لك يا إلهنا على ما أسبغته علينا من النِّعم. فلمّا أضعفت الأيامُ جسدينا عوضتنا بقوة الإرادة. ولمّا ضعف بصرنا، منحتنا قوة البصيرة. ولمّا ضعفَ سمعنا، أبقيتَ صوت الإيمان مالئًا قلبينا. فلا تحرمنا من نعمة العقل، واحفظْ لجسدينا قوة الوقوف والسير من دون الحاجة إلى من أو ما يُعينُنا، حتّى آخر يومٍ

[1] كتبتها في 2020/10/24، بمناسبة مرور خمسين عامًا على زواجي.

في رحلتنا هذه، التي لا ندري متى ستنتهي، فنغادر إلى الدار الآخرة، لنلحق بمن سبقونا، ونفسح المجال لمن سيأتي بعدنا، وتستمرّ الحياة. فهذا ليس بأيدينا، بل أنت وحدَك يا ربُّ من يقرّره.

غِربانُ السُّلطَة

في الأساطير، أنَّ بِضعةَ غِربانٍ تسلّمَتْ، في غفلةٍ من الزَّمنِ، زمامَ الأمور في ربْوةٍ من أجملِ روابي الشَّرقِ. فيها من الأشجارِ المثمرةِ ما لذَّ وطابَ، ترويها ينابيعُ أمواهٍ عذبةٍ قلَّ نظِيرُها.

لم تكنْ تلك الغِربانُ على اتفاقٍ يومًا على ما فيه الخيرُ لتلكَ الرَّبوة، ولكنّ المصالِحَ الخاصَّةَ كانت الأمرَ الوحيدَ الذي اتفقتْ عليه. فتقاسمتْ أنحاءها وخيراتِها، ولم تتركْ لصغار الطّيور سوى بعضِ الفُتاتِ. ولتتمكَّنَ تلك الغربان من الاستمرارِ في التّزعُّمِ والتَّربّعِ على رِقابِ تلك الطُّيور زرعتْ في نفوسهنَّ الكراهيةَ والأحقادَ تُجاهَ بعضِهنّ بعضًا، بعدَ أن فرّقَتْهنّ أنواعًا وفصائلَ متناحرة. وجمعَ كلُّ من تلك الغربان حولَه عددًا من الزّرازير وأشباهِها، وأنعم عليهنّ بالألقاب المتنوّعة، وخصّهنّ بمواردَ لا بأسَ بها. واكترى أسرابًا من الوراور لتكون أبواقًا تهتِفُ لمصلحة فصيلِهِ المتمثّلةِ بمصلحةِ ذلك «الزعيمِ».

وكانَ كلُّ غُرابٍ دائمَ النَّعيق بكيلِ التُّهمِ والشَّتائمِ بوجهِ أندادِهِ، مُدّعيًا بأنّهُ حامي حقوقَ أبناءِ فصيلِهِ. ولم يكنْ يتوانى عن افتعال الأزمة، كلّما شعرَ أنَّ حصّتَه من خيرات الرَّبوةِ تتعرَّضُ لخطرٍ ما. وهكذا غدَت الأزماتُ والمشكلاتُ والمعضلاتُ دائمةَ التوالي لإلهاءِ «الرّعايا» عمَّا يقومُ بهِ «زُعماؤها» من نهبٍ وسرقةٍ وتخريبٍ، لثروات الرّبوة.

أمَّا إذا تجمَّعَ بعضٌ من صغارِ الطُّيور للمطالبةِ بحقوقهنّ في الحصول على ما حُرمنَ منه من الثّمرِ أو المياه، فكانَ أحد كبارِ تلك الغربان يبعث ببعضِ أتباعِه لتندسّ بينهنّ ثم تفتعلَ خلافاتٍ تفرضُ على تلك الطُّيور أن تَذهبَ أيدي سبأ[1]، من دون أن تحصل على أي شيء.

وكانَ يُحيطُ بهذه الرَّبوةِ روابٍ وأصقاعٌ يحكمُها صقورٌ، يطمعُ كلٌ منها في السَّيطرةِ عليها، ولو لم يكنْ يخافُ الاصطدام مع الباقين لعمد إلى ذلك، ولذا كان يعمدُ إلى توثيقِ علاقته بأحدِ «زُعمائها» واعدًا إيَّاه بأنه إذا لم يتمكن من جعله حاكمَ الرّبوةِ الأوحدَ، فسيساعده على تحصيلِ حقوقِ فصيلِه، إنْ هو نفّذَ ما يطلبُهُ منه. كما كان ذاك الصّقرُ يُنعِمُ على «حليفِهِ» بعطاءاتِ مختلفةٍ ومتنوّعةٍ حسبَ

[1] اليَدُ: الطَّرِيق، يقال: أَخَذَ القَومُ يَدَ بَحْرٍ. قيل للقوم، إذا تَفَرَّقوا في جهاتٍ مختلفة: ذَهَبوا أَيدي سَبَأ أَي فَرَّقَتْهم طُرُقُهم التي سَلَكُوها كما تَفَرَّقَ أَهلُ سَبأ في مذاهبَ شَتَّى. (عن لسان العرب).

الأمر المطلوب منه أن يؤدّيَه. وهكذا أصبحَ كلُّ غرابٍ «خادَمًا» لمصالحِ صقره، آملًا ترسيخَ أقدامه على أرضِ سُلطتهِ وتوريثها لأبنائه.
وهكذا عاشت طيور هذه الربوة الجميلة تتسوّلُ قُوْتَها اليوميّ مقموعة مذلولة؛ وتلك الغربان ماضية في نهجها. ولكن لما تحققت تلك الطيور من نضوب موارد ربوتهنّ، وأيقنت أن الغربان لن تتوانى عن مصِّ ما تبقى من دمائهنّ، وبالتالي لم يبقَ لديهن ما تُخشى خسارته، كسرنَ جدرانِ الخوف من تلك الغربان وأزلامها، انتفضنَ وثُرنَ، صغارَا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، في سبيل استعادة الحقوق والحريات والموارد والعيش الكريم.
في البدء، لم تصدّق الغربان أن النعاج يمكن أن تثور يومًا في وجه جزاريها. فراحت تعمل على بثّ الفرقة بين رعاياها بالأساليب القديمة والمستحدثة، ثم بالوعود البراقة والكلام المعسول المؤيد لمطالب الطيور، وكل غرابٍ يلقي اللوم على الآخر. ولكن الطيور لم تنطلِ عليها الحيل وتابعت مسيرتها. فما كان من تلك الغربان إلا أن لوثت مياه ينابيع الربوة، واستنجدت بصقور الربى المحيطة، فبعثت لها ببضعة «قيقان» لتزيد نواحي الربوة فسادا وخرابا، وأشعلت النار في بعض أشجارها، مما اضطر الكثير من الطيور، إلى هجرة أعشاشها، إلى حيث يمكن لأجنحتها أن تنقلها. أما اللواتي لم تتمكن من ذلك، فأصبح همّها البحث عن قوت يومها بين حطام أغصان الأشجار المحترقة، ذليلة، تستجدي من الغربان، فتات فضلات ما خصّت به زرازيرها ووراورها.
وعادت تلك الغربان إلى نعيقها وإفساد ما تبقى من الربوة، غير آبهة، سوى لإرضاء وتنفيذِ رغبات الصقور اللواتي استخدمتها.

الدُّبُرُ الرئيس

في الأساطير، أن أعضاء جسم أحدِ أبناء البشر، اجتمعوا للتداول في شان أداء عمل أعضائه جميعها.

فقال الدماغ: كلٌّ منّا ومن سائر الأعضاء، يعمل لمصلحة هذا الجسد الذي نعيش فيه، ولكن كثيرًا ما يتهاون أو يتقاعس أحدُنا في القيام بدوره، سواء عن خطأٍ أم إهمالٍ أم غيره. ولذا أقترح أن نُكلّف أحدَنا بمهام تنظيم ومراقبة أداء سائر الأعضاء. وبما أنّي أحتل الموقع الأعلى في رأس الإنسان، ولأنّي أقدرُكم على التخطيط والتفكير، فأرى أن تعلنوني رئيسًا عليكم، وأن يعلن كلٌّ منكم ولاءه لي.

فقال اللسان: بل أنا أولى منك بذلك، لأني لولبُ ترجمة أفكارك وتنظيمك، ولولبُ تأمين وتوزيع الغذاء لجميع أعضاء وغدد الجسم.

فقال القلب: أيها الدماغ، على الرُّغم مما لك من القدرات، فلا تنسَ أنّك تتوقف عن العمل إبّان نوم الجسد، بينما لا أتوقف أنا ولو لثانية واحدة، كي يبقى هذا الجسد حيًّا.

واعترضت الرئتان بالقول: ولكن، أيها القلب، أنت لست وحدك من يعمل على مدار الساعة، فنحن من نؤمن الهواء المنعش واللازم لك، ولتنقية الدّماء التي تغذي سائر أقسام الجسد.

واحتدم النقاش والجدال بين الجميع، كلٌّ يطلب الرئاسة له. إلى أن صاح فيهم الدُّبُرُ، قائلا: اسمعوني جيدًا، فمهما كانت قدرات أيٍّ منكم، فأبقى أنا أفضلكم للرئاسة لأني أقواكم جميعًا.

فانطلقت ضحكات التهكّم من معظم أعضاء الجسد الذين سمعوا كلام الدُّبُر.

عند ذاك، صاح الدبر مجدّدًا قائلا: إن لم تقبلوا بالحسنى فانتظروا ما سيحلُّ بكم جميعًا.

وفي اليوم التالي، وبعد أن أيّدته الأمعاء، بشقيها الغليظ والدقيق، شدّ الدبر عضلاته بأقصى قوتها، فتعطّل بذلك خروج الثفل.

وفي منتصف اليوم الثالث، وبعدما شعرت سائر الأعضاء بالخطر على صحتها وصحة الجسد بالكامل، الناجم عن تراكم السموم، التي بدأت بتعطيل عمل معظم غدده وخلاياه، أذعنت وقبلت على مضضٍ، وبشبه الإجماع، وأعلنت الدّبُر رئيسًا عليها ولمدة محددة، على سبيل التسوية.

فاعتلى الدُّبر كرسيّ الرئاسة، وأرخى عضلاته بالكامل. وجرّاء ما أمّنته له تلك الكرسي من الراحة، صار يُمضي معظم أوقاته متراخيًا وشبه نائمٍ. فكان أن راحت الغدد المحيطة به تعيث فسادًا، في ظلّ سكوت الأمعاء عما يحصل.
وما كاد نصفُ مدة الرئاسة المتفق عليها، حتّى بدأ السَّقام يظهر على معظم مفاصل وأعضاء الجسد. فراحت تتوالى الاعتراضات والانتقادات على سوء أداء الرئيس وحلفائه ومن حولهم. ولكن بدل أن يضحّي ذلك الرئيس، بما لم يكن يستحقُّه من النِّعم، في سبيل مجموع الجسد، أصرّ على إكمال مدّة ولايته، غير مبالٍ بما يجري، وبصحة الجسد، مستمدًا الدعم من الأمعاء.
ولم تكد تنتهي تلك الولاية حتى أوشك التّلف أن يُفني أعضاء وأجزاء ذلك الجسد التعيس، الذي كان في السابق يُضرب المثل بوسامته ونضارته ورشاقته.

خواطر اجتماعية

نساء بلادي وحضارة الأزياء[1]

خلعت النقاب عن وجهها وقالت: أريد أن أرى النور كما أعطانيه ربي. فقلنا لا خطيئة، بل ولا ضير في ذلك، فالمرأة لا تضع النقاب على وجهها وهي مُحرِمة، إبّان قيامها بمناسك الحجّ أو العمرة. ثم رفعت الغطاء عن رأسها تاركة لشعرها حرية التمتع بنور الشمس ودفئها وللنسيم أن يتغلغل بين خصلاته. فقلنا لم لا؟

بعد ذلك أخذت تُدخل بعض التعديلات على أزيائها ولكنّها لم تتخلَّ عن الحشمة. كما لم تأبه لاعتراض بعض الرجال. في البدء كانت تلك التعديلات تسير ببطء. ثم أخذت تسارع الخطى بالوتيرة نفسها التي كان يسير بها تطور قطاع الاتصالات. فبدأت تصلها، متسارعة، أوامر «سلاطين الحضارة» المتربعين في بيوتات الأزياء في باريس ولندن وميلانو. وراحت هي تمتثل لأوامر أولئك «السلاطين» بحجة السير في ركب «الحضارة» الآتية إلينا من الغرب.

فكشفت عن زنديها ثم عن ذراعيها، وهي تقول، بلسانها، من دون قلبها: أيها الرجل اتقِ الله ولا تنظر إلى بنظراتك الغريزية...

وباسم الحرية، التي حصلت عليها مما سمي «بالثورة الجنسية» في الستينيّات من القرن العشرين، أصدر «السلاطين» أوامرهم، إلى أتباعهم من نساء العالم، في البدء بتقصير التنانير شيئًا فشيئًا، إلى أن أوجبوا أن تعلو كفّتها السفلى عن الركبة بما لا يقل عن السنتيمترات الخمسة، وامتثلت المرأة في بلادي إلى تلك الأوامر، وكالعادة من دون أي اعتراض، وهي تقول بلسانها... أيضًا: أيها الرجل اتقِ الله وغضّ الطرف...

ثم استمرت الأوامر سريعة بوجوب الكشف عن الكتفين ثم الظهر ثم ما تيسر من الفخذين ثم... وهي تقول، بلسانها...فقط: أيها الرجل، ما أكشف عنه من جسدي هو لي أنا ولحريتي وليس لك فيه أيّ حق...

[1] نشرت في جريدة النهار العدد 21993 يوم الاثنين في 2004/6/21.

وعلى الرّغم من أنّ ما بقي مستورًا من الجسم لم يعد يشكل أحيانًا ربعه أو حتى أقل، فهي لم تكن تنفكّ عن السؤال قائلة: لماذا أنت هكذا أيها الرجل، لمَ لا تمتنع عن إلقاء النظرات غير البريئة على مفاتننا؟ فما نحن إلا «مأمورات» من قبل «سلاطين الحضارة». وما نظراتك تلك إلا مما لا يمكن أن يقال عنها سوى أنها من قبيل «تخلفك عن ركب الحضارة». ولا تنسَ «أن النظرة الأولى لك والثانية عليك».

بالله عليكن أيتها السيدات والآنسات، هل تعتقدن أن جميع رجال هذا العصر هم من أمثال النبي يوسف، عليه السلام؟ أم هل تركتنّ لنا النظرة الأولى؟ فنحن أينما التفتنا كانت نظرتنا هي الثانية أو الثالثة أو أكثر؟

وأخيرًا وليس آخرًا، وصلت الأوامر من «السلاطين» بأن يكون السراويل[1] ضيقًا جدًا، وخصره منخفضًا (خصر واطي)، والقميص فوقه قصيرًا بحيث ترتفع كفته عن كفة السراويل بما لا يقل عن السنتيمترات الخمسة، كي ينكشف جزء غير يسير من البطن والظهر. وإذا ما انحنت إحداهن إلى الأمام زادت تلك المساحة المنكشفة من الجسد حتى يكاد، أحيانًا، أن ينكشف جزءٌ مما يغطيه اللباس الداخلي، وهي لا تأبه لما يجري، لأنها «متحضرة»، وما أن يستقيم جسدُها ثانية حتى تراها ترفع سراويلها بحياء وخفر، وكأنها تخشى من أن يقال بأنها تخالف قواعد وقوانين «الحضارة».

اطمئني سيدتي، فلن تشعري بعينيّ ترمقك بأي نوع من النظرات، ما دمت ترتدين ثيابًا كهذه، فأنا سأمتثل لأوامرك، ولكن لا تظنّي بأنها تقوّى منّي أو تعففٌ، بل رحمة ورأفة بي أنا لأجنب نفسي من الشعور بالاشمئزاز أو حتى الغثيان من رؤية ذلك اللحم المترهل يتدلى من البطون بابتذال، من فوق خصر السراويل، أو أرى تلك الأرداف المنتفخة تصارع قماش السراويل! فمن سيكون المنتصر؟ هل سيتمكن القماش من الصمّود في وجه ضغط الأرداف؟ أم تكون هذه أقدرَ على تمزيق ذلك القماش؟

فعذرًا سيدتي، إن كنت قد شوهت ولو بعضًا من جمال ذلك الجسد الذي كنّا نقدس، أو كنتُ قد تجرأتُ على نقد ما أوصلتنا إليه معايير «الحضارة» في عصرنا هذا، فأنت التي شرعت لنا ذلك، وأنا لم أجد تعبيرًا أرقّ أو ألطف.

---

[1] سراويل كلمة مفردة على رغم كونها على وزن إحدى صيغ جمع التكسير، وهي تجمع على سراويلات.

أما أنتن أيتها السيدات «المتخلفات عن ركب تلك الحضارة» فأستميحكن عذرًا إذا كان في كلامي شيءٌ من الشمولية غير المقصودة، وأنا على يقينٍ من أنّكنّ لستنّ موافقات على ذلك التجرّوءِ المبتذل على اقتحام حرمة جسد المرأة وتجريده من أنوثته، ذلك الجسد الذي يحاول بعضهم جعله من أرخصِ السلع وأبخسها ثمنًا. إذ كم لمست منكن ذلك الاشمئزاز كلما ظهرت على شاشات التلفزة سيدة من تلك اللواتي تسمين أنفسهن «متحضرات».

فيا أمهاتِ اليوم وأمهاتِ الغد «المتحضرات»، أنا لا أقول لكنّ عُدن إلى ما كانت عليه نساء العصور الوسطى من الجهل والتخلف. بل رأفة ورحمة بنا وبحق الأمومة والأنوثة اللتين نحترم ونجلّ، أرجوكن أن تُعِدن لأزيائكنّ ولو بعضًا من الحشمة. وبالله عليكنّ، فليكن ما نرتشفه من الغرب محصورًا في اكتشافات أهله العلميّة النافعة. أما قواعد السلوك والأخلاق فبلادنا منبعها. ولتكن لكنّ شخصيةٌ قادرة على مفاخرة نساء العالم أجمع بما لدينا من القيم الدينية والأخلاقية. فالحضارة الحقيقية ولدت وترعرعت وتطورت في بلادنا، قبل أن يكون هناك في الغرب مجتمعات مدنيّة. ولنُعِدْ، مجتمعين، لبلادنا مجدَ أجدادنا الذين صدّروا الحرف والقيم والحضارة، إلى أهل تلك الأمصار التي نستورد نحن اليوم منها ما يسمى خطأً ب «الحضارة».

لماذا فقدت مونتريال نظافتها؟[1]

منذ ما يزيد عن الست عشرة سنة وصلتُ إلى مدينة مونتريال. وكان الفصل شتاءً والثلوج تغطي الطرقات والشوارع والمباني. وبعد بضعة شهور حلّ فصل الربيع، وتلاه فصل الصيف، ومعهما اختفت الثلوج، فخلعت المدينة ثوبها الأبيض الجميل لترتدي ثوبا أخضر يفوق سابقه جمالا. وتمدّد العشب الأخضر بسطًا سندسية في حدائقها. وأول ما لفتني تلك النظافة التي كانت تستوطن الساحات والشوارع والأزقة والحدائق وحافلات النقل المشترك ومحطات مترو الأنفاق. ولم يكن ما انبسط من تلك الساحات والشوارع يتسع لسكنى تلك النظافة، بل ضمت الثنايا والزوايا ودرجات السلالم، أيضًا إلى منازلها.

وكم كنت أشعر بالاغتباط والإكبار عندما كنت أرى أبناء هذه المدينة الجميلة يتسابقون لالتقاط ما قد يرونه صدفة يعتدي على حرمة تلك النظافة، حتّى ولو كان وريقة صغيرة، ليضعوه في السلال التي خصصتها البلدية لمثيلات هذه الوريقة. وكم سمعت بعضهم يقول: هذه مدينتنا فلماذا نجعلها قذرة؟

ولكن وللأسف، فيبدو لي أن تلك النظافة قد بدأت تهجر مساكنها في هذه المدينة. فأعقاب السجائر بدأت تحتل الزوايا والثنايا. والقناني والأكياس البلاستيكية راحت تفترش سجاد أرصفة الشوارع والساحات والحدائق. وأوراق الصحف والمناديل، وقسائم النقل العام وبطاقاتها أخذت، كلها تملأ الحافلات ومحطات الأنفاق. حتى مقاعد وزجاج هذه الحافلات والمحطات لم تسلم من الرسم والكتابة عليها بمواد الدهان المتعددة الألوان وبأشكال وكلمات مؤذية ومقرفة. ولم يكتفِ أعداء النظافة بذلك بل عمدوا إلى الكتابة والتشويه على زجاج ومقاعد حافلات مترو الأنفاق بالحفر بآلات حادة، وكأني بهم يرغبون في منع العمال قدرة إزالة هذه «التحف الفنية» التي يعرضونها على جدران «متاحفهم».

فلماذا حصل هذا التغيير؟ ولماذا يريد بعضهم أن يشوّه جمال هذه المدينة ويحولها إلى حاويات للقاذورات؟ ومن هو المسؤول عن ذلك؟ هل هو جهاز البلدية؟ أم هم أبناء مونتريال؟

---

[1] كتبت هذا الكلام في 2007/9/11، إثر ملاحظتي تبدلًا ملفتًا في نظافة شوارع مونتريال في صيف ذلك العام. ولأنّ ذلك لم يدم طويلا فلم أنشره في حينه. وأنشره اليوم لأخذ العبرة فقط.

ولا أتصور أنسانًا في الدنيا يحب أن يعيش في منزل مملوء بالأوساخ والقذارة! والمدينة التي تعيش فيها يا صديقي ليست سوى منزلك الكبير. ويا أهل مونتريال عودوا إلى سيرتكم وعاداتكم القديمة. وأنت يا من ابتلي بآفة التدخين لا ترمِ أعقاب السجائر كيفما اتفق، وكما رفعتَ أذى دخان سيجارتك عن المحال المقفلة، أرجوك ألا تساهم في هذه الخسارة التي بدأت تلحق بمدينتك.

والحديث عن وسائل النقل يقودني إلى التحسر على عادة بدأنا أيضًا نفتقدها في مونتريال. فقد كنت ألحظ أن معظم أو كلّ من يصعدون إلى حافلات النقل العام كانوا يبادرون بإلقاء التحيّة على سائق الحافلة، ثم يشكرونه ويحيونه عند المغادرة. أما اليوم فقد بدأ جيل الشباب يتخلّى عن هذه العادة، وأصبح من النادر أن ترى شابًا يحيّي ذلك السائق ولو بالابتسامة. فلماذا؟؟؟ لست أدري. فقد تكون هذه التحية قد أصبحت من قبيل التخلف بالنسبة لهؤلاء الشباب «المثقفين»!؟

عجائب السير في بيروت[1]

إذا كانت مغارة جعيتا قد خسرت تصنيفها من بين عجائب الدنيا الطبيعية الحديثة[2] فلم نزل في لبنان نصنع الكثير من العجائب والمعجزات، فمن قال بأن زمن العجائب قد ولّى؟ فإليكم، على سبيل المثال لا الحصر، سبعًا من العجائب في أحوال السير في مدينتنا بيروت التي سميت يومًا «ست الدنيا».

العجيبة الأولى: إذا تجوّلت في شوارع بيروت واسترعى انتباهكَ أنّ على جانب أحدها لوحةً، وضعتها بلديتها، تشير إلى أن «وقوف السيارات مسموح»، من دون دفع البدل النقدي، فتأكد أنك أمام إحدى العجائب الحديثة. أما اللوحات التي تشير إلى منع الوقوف فلا تعدّ ولا تحصى.

العجيبة الثانية: إذا كنت راجلًا تسير على الرصيف منفردًا أو بصحبتك طفلٌ أو اثنين أو حتى كانوا عدة أطفال، أو تلامذة قد خرجوا للتوّ من مدرستهم، وأردتم أن تجتازوا الشارع إلى الرصيف الآخر وأوقف أحد السائقين سيارته، من دون أن يكون مرغمًا في ذلك، ليسمح لكم بالانتقال بأمان، فتأكد بأن في الأمر أعجوبة. ففي حضارة بلدنا العزيز، أفضلية السير هي لمن «يطحش أولا».

العجيبة الثالثة: إذا كنت تقود سيارتك واضطررت أن تتوقف لتؤمن طريقك، أو كنت متوقفًا عملًا بالنور الأحمر من إشارة السير الكهربائية، فتبدّل هذا النور إلى الأخضر، ولم يطلق سائق من خلفك العنان لبوق سيارته، فورًا ومن دون أن يراعي أن قد يكون أمامك ما يمنعك من الانطلاق بالسرعة التي يريدها هو، فتأكد أيضًا من أنها أعجوبة. وقد عرَّف أحدهم «اللحظة» بأنها: «الوقت الذي ينقضي ما بين تبدل نور إشارة المرور من الأحمر إلى الأخضر وانطلاق بوق السيارة التي خلف سيارتك».

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة الاقتصاد والأعمال اللبنانية عدد 15 كانون الثاني -15 شباط 2012 رقم 35.

[2] نُظِّم في تلك الآونة، على الشبكة العنكبوتية، استطلاعٌ لاختيار عجائب طبيعية حديثة. وكأيّ حدثٍ يجري فيه الاختيار استنادًا إلى آراء المشاركين إليكترونيًا، فلم يكن من المستغرب ألّا تنال مغارة جعيتا اللبنانية العدد الكافي لتصنيفها واحدة من تلك العجائب.

العجيبة الرابعة: إذا كنت تمشي على الرصيف أو تريد اجتياز الشارع ورآك سائق سيارة أجرة ولم ينبهك ببوق سيارته أو يتوقف بقربك، حتى ولو منعك من اجتياز الشارع، كي يسألك بالكلام أو بالإشارة: «لوين يا أستاذ»، فتأكد أنّ في الأمر معجزة. فسائقو هذه السيارات غير مقتنعين بأنّ من يرغب في استئجار سيارة يسعى إليها بنفسه.

العجيبة الخامسة: سائق سيارة الأجرة الذي يوقف سيارته على جانب الطريق ليقل راكبًا أو ينزله، كي لا يتسبب في عرقلة السير، ولا يوقفها في وسط الشارع أو المنعطف أو حتى في وسط تقاطع الشوارع، فتأكد أن هذا السائق قد بُعث إلينا من زمن المعجزات الغابر. فسائقو سيارات الأجرة يؤمنون بأن الشوارع كانت من أملاك آبائهم ثم انتقلت إليهم بالوراثة.

العجيبة السادسة: سائقٌ آخر من زمن العجائب والمعجزات، ذاك الذي يراعي أفضلية المرور على تقاطعات الشوارع، في غياب رجل الشرطة، أو يتقيد بإشارات السير وبخاصة إشارة ممنوع المرور، اقتناعًا منه بأنّ نظام السير وضع لمصلحة جميع أبناء وطنه، ساقة وراجلين. فكأنما لوحات الإشارات وضعت للزينة فقط.

العجيبة السابعة: سائق الدراجة النارية الذي يتقيد بإشارات السير وينتظر النور الأخضر ليكمل سيره بأمان، أو لا يتجاوز السيارات من على يمينها...، هذا أيضًا يأتينا بالمعجزة السابعة من معجزات السير عندنا. فراكبو الدراجات مقتنعون بأن نظام السير لا ينطبق عليهم، ومما يؤسف له بأن لدى بعض رجال الشرطة القناعة عينها، لعدم اكتراثهم بما يرونه بأعينهم من مخالفات أولئك الدراجين.

ولكن، وإذا نحينا جانبًا مقولة أن القيادة «فنٌ وذوقٌ وأخلاق»، فمن المسؤول عن تردي أحوال السير، ليس في بيروت وحدها بل أيضًا في جميع أنحاء لبنان؟ فرجل الشرطة يخاف، إذا ما طبق القانون، من أن يصبح هو المُعاقَب عوضًا عن المخالِف «المدعوم». وبيروت قد أصبحت مرآبًا للسيارات، والمواقف العامة نادرةٌ، وتلك التي فرضتها القوانين على المباني التي أنشئت منذ ما قبل السبعينيّات من القرن الماضي، تحول معظم المؤجَّر منها، كما الملاجئ، إلى محلات أو مستودعات تجارية إبّان الأحداث الأليمة، وبعد أن عاد الأمن إلى يد الدولة عمدت إلى الاكتفاء بالقبول بتسوية هذه المخالفات مقابل غرامة نقدية، عوضًا عن أن تفرض إعادة الوضع إلى ما كان عليه، فكانت النتيجة أن شُرِّدَت آلافُ السيارات إلى الشوارع. ومع ازدياد أعداد السيارات وقلة عدد المشاة، عمدت البلدية الكريمة إلى توسيع الأرصفة على حساب الشوارع بما فيها الحارات الضيقة. أما المربعات

الأمنية التي تحيط بمنازل «المسؤولين» ومكاتبهم فتُحرِّم الوقوف في مساحات تتوسع بقدر «سمو» موقع هذا المسؤول.

وإلى أن يصبح لدينا حكومة تهتمّ بشؤون الوطن والمواطن نرجو ألا نزداد سوءًا ليس في أحوال السير فقط بل في جميع شؤون معيشتنا.

نحن شعب يعشق التقاتل في سبيل الآخرين[1]

في خمسينيّات القرن التاسع عشر وقع خلاف فيما بين شخصين من عائلتين كبيرتين، تربط بينهما روابط النسب، وتقيمان في قرية واحدة من قرى جبل لبنان، وكان السبب تافهًا جدًا إذ أن أحدهما كان يحرق أشواكًا في أرضه فخرجت النار من تحت سيطرته وامتدت إلى أرض جاره، الطرف الآخر وحرقت إحدى الشجرات فيها. وتطور هذا الخلاف ليصبح تقاتلا بين أبناء العائلتين لم يوفر فيه الطرفان أيّ نوع من السلاح مما كان بحوزتهما، وفي ساعات معدودات سقط عشرة قتلى من كلٍّ من الفريقين بالإضافة إلى عدد من الجرحى. ولكن المفاجأة جاءت من قرية مجاورة بأن حمل أبناء إحدى عائلات هذه القرية أسلحتهم بغية التوجه إلى القرية الأولى، مسرح التقاتل، لنُصرة أصدقائهم أبناء إحدى تينك العائلتين، ثم ما كان من أبناء عائلة أخرى من القرية الثانية، تربطتها أيضًا صداقة مع أبناء العائلة المقاتلة الثانية، أن وجهوا بدورهم أسلحتهم باتجاه أبناء قريتهم قائلين لهم: «عوضًا عن أن نتكبد، كلانا، مشقّة الانتقال كي نتقاتل في ساحة المعركة، فلنتقاتل هنا نصرة لأصدقائنا هناك».

ولكن العناية الإلهية حالت دون سفك المزيد من الدماء بين أبناء تينك العائلتين، إذ بدأت ذخائر طرفي التقاتل بالنفاد، فتمكن العقلاء والوجهاء من الفصل بينهما فتوقف التقاتل، ثم أجلوهما إلى القرى المجاورة، إلى أن تمكنوا من عقد الصلح بينهما.

والجدير بالإشارة إليه، أنّه إبّان التحقيق الحكومي في ذلك الحادث وأسبابه، جاءت أجوبة المشاركين في إطلاق النار متطابقة في المعنى بالقول: «لما رأيت ابن عائلتي شاهرًا سلاحه ويطلق النار باتجاه أبناء العائلة الأخرى، رحت أطلق النار نصرة لأبناء عائلتي، ومن دون أن أعرف السبب».

وقد قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد 11). فهل سنغير نحن يومًا ما بأنفسنا؟؟؟؟

[1] كتبت هذا المقال ونشرته على الفيس بوك في 2012/12/23.

الزواج المدني في لبنان... بالحجج[1]

أعاد عقد الزواج الذي أجراه، أمام الكاتب بالعدل، خلود سكرية ونضال درويش، إلى العلن الجدال حول مشروع قانون الزواج المدني الاختياري. فكان أن انقسم اللبنانيون إلى مؤيد ومعارض، وهذا أمر طبيعي تضمنه حرية الرأي. ولكنَّ المفاجأة جاءت من فتوى سماحة الشيخ الدكتور محمد رشيد عبد الغني قباني، مفتي الجمهورية اللبنانية، التي أطل بها علينا من على شاشة التلفاز، بحدّة وانفعال جعلاني أتوهّم أنّ الأرض قد زُلزلت زلزالها أو أنّ الحرب قد استعرت نارها. إذ قال: «إنني أفتي مستعينا بالله العظيم أنَّ كلَّ من يوافق من المسؤولين المسلمين في السلطة التشريعية والتنفيذية في لبنان، على تشريع وتقنين الزواج المدني، هو مرتدّ وخارج عن دين الإسلام، ولا يُغسل ولا يُكفَّن ولا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين».

فيا صاحب السماحة، اسمح لي بأن أقول التالي:

أولاً: لك الحق في أن تعارض أو ترفض، ولكنك لما أفتيت لم تبيّنْ لنا على ماذا استندت في فتواك هذه.

ثانيًا: لقد حكمتَ على المسؤول المسلم الذي يوافق على هذا المشروع بأنه «مرتدٌّ وخارج عن دين الإسلام» وبالتالي اعتبرته بحكم الكافر، ولكنّك تعلم جيدًا أنّه ما دام الشخص ينطق بالشهادتين فهو مسلمٌ، أليس كذلك؟ وإنّي أذكّرك بقوله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...} (النساء 94).

ثالثًا: ثم أضفتَ بأنّه: «لا يُغسل ولا يُكفّن ولا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين»، حسنًا قُلتَ «مقابر المسلمين»، أي أنك تقرُّ بأنها ملك المسلمين جميعًا وبالتالي هي ليست ملكًا لأيّ فرد أو هيئة أو مؤسسة كائنًا من كان. ثم إنّي أذكّرك بقصة ابني آدم التي ذكرها القرآن الكريم في سورة المائدة إذ بعدما قتل الأخ أخاه {بَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}

[1] نشر في جريدة الحياة العدد 18222 السبت 2013/3/23.

(المائدة 31). وجسم الإنسان ملك لخالقه، ولو كان ملكًا لنا لما حرَّم علينا الانتحار. فما دام الخالق صاحب الشأن، يأمر بالدفن فلا يجوز لأيّ كان أن يمنعه.

خامسًا: إن عقد الزواج في الإسلام عقدٌ مدني يحتوي على ما اتفق عليه الزوجان، أما التوثيق فهو تدبيرٌ وضعيٌّ ليقوم مقام الإعلان عن أنّ ذينك الشخصين أصبحا زوجين، وبالتالي لا تشوب علاقتهما أيُّ شائبة. ولم يرد في القرآن الكريم ما ينصّ على أنّ في الزواج سرًّا دينيًّا كما هو في المسيحيّة. وقواعد الزواج المدني تشبه قواعد الزواج الإسلامي ففي الاثنين يشترط الرضى والقبول، {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ} (البقرة 221). ويحدد ما اتفق عليه الطرفان، ويجوز الطلاق وتفرض العدة بعده...

سادسًا: أمّا إذا كان سبب رفضك هذا الزواج منع زواج المسلمين والمسلمات بغير مسلمات ومسلمين فما منع القرآن الكريم الزواج بهم هم المشركون والكفار، فقط، كما في قوله: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} (البقرة 221). وفي قوله أيضًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ...} (الممتحنة 10). أما أبناء المجتمع اللبناني فليس فيهم، حسب علمي، مشركون بل هم إما مسلمون أو مسيحيون أو يهود، أي هم أهل كتاب. وقد أحل الله الزواج بين المسلمين وأهل الكتاب كما في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} (المائدة 5). ثم ألم يتزوج النبي ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وهي يهودية، وماريا بنت شمعون، وهي قبطية؟ كما أن أبا العاص بن الربيع، زوج زينب ابنة النبي ﷺ، بقي على شركه ومحاربة النبي ﷺ، حتى العام السادس للهجرة، وعلى الرغم من ذلك فلم يفرض النبيّ ﷺ على ابنته أن تترك زوجها قبل إسلامه. وأذكّر بقوله تعالى حيث ساوى الجميع: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة 62)

ولا ننسى بأنه تعالى هو وحده الذي يحلّل ويحرّم إذ يقول: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ} (النحل 116). وهذا النبي الكريم ﷺ يقول: «إنّي والله لم أحلّ إلا ما أحلّ القرآن، ولم أحرّم إلا ما حرّم القرآن» (رواه النسائي 2046).

وفي الختام لا بد لي من أن أسأل: كيف تقبل الدولة اللبنانية عقود الزواج المدني التي تعقد في الخارج وتسمح، بالتالي، بأن تطبق، تحت سلطتها، نصوصٌ قانونيُة غير لبنانية على مواطنين لبنانيين يعيشون على أرض وطنهم؟؟

أحرجوهم فتخلوا عن دينهم[1]

في كل مرّة كان يطرح فيها مشروع التنظيم القانوني للزواج المدني الاختياري في لبنان، كان معظم رجال الدين يقفون سدًا منيعًا ضدّه، وما زالوا. وفي كل مرّة كان رجال السياسة يذعنون ويتراجعون، حرصًا على أصوات العامة، بتبعيّتهم لرجال الدين، في الانتخابات وبالتالي خوفًا من خسارة مواقعهم التي تسنّموها عملا بالنظام اللبناني الطائفي، فتنام المشاريع في الأدراج نومة أهل الكهف. وهكذا أمِنَ أصحاب الغبطة والسماحة والسيادة والفضيلة على انتصار الدين أو المذهب الذي نصّب كلٌّ منهم نفسه وليًا على أبنائه. ولم يُلفِت انتباههم أهميةُ ذلك العدد المتزايد من عقود الزواج المدني التي تنظّم خارج الأراضي اللبنانية، ثم تسجل لدى السلطات اللبنانية وكأنها عقدت في لبنان. كما أنّهم أشاحوا بنظرهم عن أنّ هؤلاء المواطنين، اللبنانيين المقيمين في وطنهم، يخضعون لنصوص قانونية غير لبنانية، مما كان يوقِعهم في مشاكل إضافية، ويفرض على القضاة اللبنانيين أن يحكموا، وباسم الشعب اللبناني، استنادًا إلى قوانين غير لبنانية. كما لم يلتفتوا إلى تلك الشريحة الكبرى من شباب لبنان المثقف الذين يطالبون بقانون يريحهم من عناء وتكاليف السفر إلى الخارج لتحقيق حلمهم في الزواج بمن يحبّون.

إلى أن جاءتهم المفاجأة من شابين شجاعين، وعلى الرغم من أن كليهما على دين الإسلام، فقد تخليا، رسميًا، عن دينهما بطلب شطبه من سجلات النفوس، وعقدا زواجهما برعاية باحثٍ في القانون بارعٍ، ووثقاه لدى كاتبٍ بالعدل جريء. وبعد المراجعات والاستشارات القانونية تم تسجيل عقد زواجهما لدى دوائر النفوس وأصبحا قانونيًا زوجين شرعيين، لا سلطة لرجال الدين عليهما. أهمية هذا الزواج أنه أصبح سابقةً تفتح الباب أمام الشباب الراغبين في الزواج، مدنيًا، بمن يحبون كي يحذوا حذو ذينك الشابين، فالحب لا يعترف بالفوارق من أي نوعٍ كانت.

لم يدُر في خلد رجال الدين الكرام أن إرادة الشباب، إذا عزموا على أمرٍ ما، لا تثنيها العقبات فإن أعاقتهما مرة أو غير مرة فلن يعجزوا عن خلق الوسيلة التي

[1] نشرت في جريدة الحياة في 2013/3/19.

تحقق لهم رغبتهم. أضف أنهم اعتقدوا أن كلامهم باسم الدين كافٍ لعدم خروج الشباب من تحت سلطانهم، كما غاب عنهم أنّنا نعيش في القرن الواحد والعشرين لا في العصور الوسطى. متناسين أيضًا، أنّ «كثرة الضغط تولّد الانفجار». أما المسلمون منهم فقد نسوا قوله تعالى: أن «لا إكراه في الدين»، ووصية النبي الكريم ﷺ لعامليه إلى اليمن معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، بقوله: (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفِّرا.) ونسَوا أيضًا ما رواه أبو مسعود الأنصاري إذ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنّي لأتأخرُ عن صلاة الصبح من أجل فلانٍ مما يطيل بنا». فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قطُّ أشد مما غضب يومئذٍ، فقال: «يا أيها الناس إن منكم مُنفِّرين فأيّكم أمَّ الناس فليوجز فإنّ من ورائه الكبيرَ والضعيفَ وذا الحاجة» (رواه مسلم 466).

وما زالوا ينفّرون ويعسِّرون إلى أن أحرجوا أولئك الشباب فأخرجوهم، حتى بدأوا يطلبون شطب المذهب عن صفحاتهم لدى دوائر النفوس، ويتخلّون بالتالي، رسميًا، عن دينهم.

ألا يحق لي هنا أن أسأل رجال الدين الكرام: هل كانت غايتكم، في عدم التيسير، تخلّي الشباب عن الدين؟ أهذا ما يرضيكم؟ ثم إذا كنتم اليوم ترفضون القبول بتنظيم الزواج المدني الاختياري، فهل تقبلون غدًا بالمساكنة من دون عقد، كما يجري حاليًا في أوروبا وأميركا، التي قد يواجهكم بها الشباب المحرج واليائس من آرائكم!!!؟؟؟

فيا سادتي الكرام، تذكّروا دومًا قول جبران: «أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة». وأنّ هؤلاء الشباب هم أولادكم، وقديمًا قيل: «أعن ولدك على برّك بثلاثة أشياء: لطف معاملته، وجميل تنبيهه إلى زلاته، وحسن تنبيهه إلى واجباته. واسلك في تربيته طريق الترغيب قبل الترهيب، والموعظة قبل التأنيب. إن القسوة في تربيته تحمله على التمرد. والدلال في تربيته يعلمه الانحلال، وفي أحضان كليهما تنمو الجريمة.»

وختامًا أهنئ نضال وخلود على زواجهما وأحييهما على شجاعتهما وإقدامهما على هذه الخطوة الجريئة، التي أصبحت الأولى في الطريق إلى الدولة المدنية. ولا أنسى، العرَّابين، الأستاذ طلال الحسيني والكاتب بالعدل الأستاذ جوزيف بشارة.

القمر وقصة عنترة[1]

يوم لم تكن بعد فضائيّات التلفزة وما يسمى بمواقع «التواصل الاجتماعي» على «الشبكة العنكبوتية»، قد غزت المنازل وقطّعت التواصل إلى حد كبير بين أفراد العائلة الواحدة، كنّا نسمع من آبائنا الكثير من الروايات والحكم والأقوال المأثورة، ذات العبر والمعاني القيمة، سواء مما توارثوه عن سابقيهم أم مما تعلّموه من تجاربهم في هذه الحياة.

منها، مثلاً، عبارة، سمعتها مرات عديدة، لا من والدي فقط، بل من كثيرٍ من أترابه، وهي: «سيصل أهل الغرب إلى القمر والعرب ما زالوا مختلفين في قصة عنتر» (من دون التاء). وتمضي الأيام ويضع «آرمسترونغ» قدميه، في العام 1969، على سطح القمر ويغرس فيه علم الولايات المتحدة الأميركية.

وعلى الرُّغم من أنّ كلّ دولة كان لها محطة تلفزة، واحدة أو أحيانا اثنتان، تبث عليها البرامج الرصينة ونشرات الأخبار، فقد كنّا نعتمد كثيرًا على محطات الإذاعة لاستقاء الأخبار.

وما زلت أذكر جيدًا طُرفةً حدثت في ذلك اليوم. كان بلوغ القمر قد حدث في إحدى ساعات الصباح حسب توقيت بيروت، وقد سمعنا الخبر موجزًا في أثناء ساعات العمل. ولمّا عدت إلى المنزل رغبتُ في أن أستمع إلى تفاصيل ذلك الحدث التاريخي من نشرة أخبار «إذاعة لبنان»، لأنّ نشرة التلفزيون كانت تبثُّ مساءً. وهنا كانت المفاجأة، كان الخبر الأول، عن ذلك الحدث المهم، وهذا طبيعيٌّ بالتأكيد، أما الخبر الثاني، نعم الثاني، فقد كان عن أنّ أحد الباحثين قد اكتشف أمرًا ما عن «قصة عنترة»، لم أعد أذكر تفاصيله لسخافة الموضوع. صدقوني هذا ليس مختلقًا ولا من نسج الخيال ولكنّه حقيقيٌّ وحصل فعلاً.

وهنا دعوني أسأل العارفين: هل نحن أمام اختلافٍ جديد في عصرنا هذا، حول المسلم الصحيح، كما كان في قصة عنترة؟ فهل يكفي أن يحفوَ شاربيه ويعفوَ عن لحيته، أم عليه أيضًا أن يرتدي ثوب السلف الصالح؟

---

[1] نشرت في جريدة الحياة عدد 20 تموز (يوليو) 2014 رقم 18734.
http://alhayat.com/Opinion/Letters/3683203/%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%85%D8%B1-%D9%88%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%B9%D9%86%D8%AA%D8%B1%D8%A9

خطر السنجاب والقندس على البيئة

جاء في الأخبار، يومًا[1]، أنّ بعض علماء البيئة يُلقون باللائمة على السنجاب والقندس في تفاقم مشكلة الاحتباس الحراري.

فقالوا بأن السنجاب، بالفرنسية (Ecureuil) وبالإنكليزية (Squirrel)، يجعل بيته أنفاقًا في ثلوج القطب ليتقي الصقيع، فيساهم بذلك في ذوبان تلك الثلوج وبالتالي في زيادة حرارة الكرة الأرضية.

والقندس، بالفرنسية (Castor) وبالإنكليزية (Beaver)، يبني بيته في الأنهار مستعينًا بكمياتٍ كبيرة من الأخشاب، قد تشكّل أحيانًا سدودًا تعيق تدفق مياه النهر، وكثيرًا ما يقطع الأشجار أيضًا لتلك الغاية، وبذلك يساهم أيضًا بالتأثير السلبي على البيئة، وبالتالي في زيادة الاحتباس الحراري.

ويُعزُون أيضًا إلى هذا التأثير للاحتباس الحراري، مسؤولية ازدياد الأمراض فتكًا بالإنسان وانقراض الكثير من الحيوانات، البحرية والبرية.

لدى سماعي خبر قول هؤلاء العلماء حضرني قول أحد الحكماء إذ قال: «إن أخطأ العالم يتأسف وإن أخطأ الجاهل يتفلسف». أنا لا أعني بأنّ هذا القول ينطبق على علماء البيئة، فقد يكون كلامهم صائبًا، ولكنّي أراه ينطبق على بعضِ ما جاءونا به. فإذا كان السنجاب والقندس يتحملان بعضًا من مسؤولية الاحتباس الحراري فبنو الإنسان عامةً يتحملون المسؤولية الكبرى، من جراء ما عملت أيديهم بهذه الأرض التي أرادنا الله أن نكون خلفاء فيها.

فهل كان السنجاب والقندس من أشعل الحروب بالأسلحة الفتاكة المدمرة؟

أم هما اللذان لوثا أمواه البحار والأنهار بالفضلات الإنسانية والصناعية؟ أم هما اللذان لوثا الهواء الذي تتنشقه رئاتنا بدخان المعامل والمصانع والسيارات وغيرها، ما يميت الملايين من البشر سنويًا بسرطان الرئة؟

أم هما اللذان اخترعا السجائر ولوثا محتوياتها ومحتويات المشروبات وما شابهها بمواد الإدمان المسرطنة؟

[1] كان ذلك في أواخر العام 2014.

أم هما اللذان اخترعا الأسمدة الكيماوية والأدوية الزراعية والبيوت البلاستيكية للزراعة بغية زيادة الإنتاج من دون التحقق من أثرها على هذه البيئة المسكينة؟

ومن اخترع العلف الاصطناعي للحيوانات الداجنة التي تسببت بالعديد من الأمراض التي لم نسمع بها سابقًا؟ ومن صنع الأدوية التي تَبيّن فيما بعد أنها إذا قضت على مرضٍ تسبّبت بغيره؟

وما سمّي زورًا «هواية» الصيد، فمن صنع لهذا الصياد تلك الأسلحة الفتاكة كي يتمتّع بقتل الملايين من الطيور والحيوانات البرية؟

والاستغلال العشوائيُّ للموارد الطبيعية، هل كان من صنع السنجاب أم القندس؟

ثم إذا قطع القندس شجرة لبناء بيته فقد قطع بنو البشر مليارات الأشجار فحولوا الكثير من الجنان إلى صحاري.

فإذا كنا نعتبر أنفسنا علماء عقلاء لا جهلاء فحريٌّ بنا ألّا نكتفي بالتأسف فقط، بل علينا أن نصلح ما أفسدناه لأمِّنا الأرض التي روتنا من مياهها وأطعمتنا وألبستنا من خيراتها.

ولا تنسَ أيها الإنسان «أنك من التراب وإلى التراب تعود»، كبيرًا كنت أم صغيرًا، رئيسًا أم مرؤوسًا، غنيًا أم فقيرًا.

أصداقةٌ بشرط!!؟؟[1]

طلب مني صديق، يومًا، ألاّ أنشر على «الفيس بوك» آرائي السياسية والوطنية لأنّها تخالف آراءه. وطلب مني ثانٍ، ألاّ أنشر آرائي في الدين، لأنها أيضًا لا توافق آراءه. وقد برر الاثنان طلبهما، بحجة رغبتهما في عدم خسارة صداقتي.

وإذا ما كتبت بموضوعات أخرى فهل أضمن ألاّ ينبريَ آخرون بطلباتٍ مماثلة؟ فلن يبقى لي إذًا سوى أن أنشر التفاهات، وهذا ما أمقته كلَّ المقت.

فما دام أحدنا يرهن صداقته مع الآخرين بتطابق آرائهم مع رأيه، فهذا يعني أن تنعدم الصداقات بين البشر، إذ هل من الممكن أن نجد في الكون اثنين تتطابق آراؤهما كلّيًا؟ وأليس من المستحيل أن يدوم هذا التوافق مدى العمر كما تدوم الصداقات؟ بل هل يجوز أن تكون الصداقة مشروطةً بتوافق الآراء؟

وهنا أسأل من يقرأ هذا: ما معنى هذا الطلب؟ أليس نوعًا من القمع الفكري؟ فلماذا إذًا ننعت حُكَّامَنا بالدكتاتوريين وكاتمي الأفواه ونطالبهم بالحرّيّة؟

فيا أصدقائي هذه الوسائل (الفيس بوك وغيره) وجدت للتواصل الاجتماعيّ وتبادل الآراء والأفكار والمعلومات، لا للتخاصم بجميع أشكاله، وبالتأكيد لا للشتائم والإهانات ولا لتحقير المعتقدات والمقدسات. وكم من رفيقين جمعت بينهما هذه الوسائل، بعدما قطعت ظروف الحياة بينهما سنوات؟

الصداقة أسمى من أن تُحكم بمثل هذا الشرط. واحترامُ آراء الآخرين دليلُ رُقيّ الفكر وسموّ الأخلاق والتحضُّر.

ولنذكر دومًا قول أحد الحكماء: «اختلاف الرّأي لا يفسد للودِّ قضية».

[1] كتبتها في 2015/7/14، ونشرت على الفيسبوك.

من يحدد مقاييس الجمال؟[1]

منذ سنوات وأنا أبحث، عبثًا، عن الشخصِ أو الأشخاصِ الذينَ يُحدِّدون مقاييسَ جَمالِ النساءِ في عصرِنا هذا؛ فهل منكم من يَدلُّني على واحدٍ منهم؟ أُريدُ أن أسألَهُ عن الأُسسِ والقواعدِ التي ينطلقون منها لتحديدِ مواصفاتِ ومقاييسِ ذلك الجمال.

أما أنتِ سيدتِي فمن قال لكِ بأنكِ ستكُونينَ أكثرَ جمالًا إذا ما كانت شفتاكِ مُنتفِخَتَين؟ من قال لكِ بأنك إذا لم يَعدْ انتفاخُ شفتَيكِ يسمحُ لكِ بالنُطقِ بسهولةٍ، كما لو أنَّ مجموعة من النحل قد لسعتْهُما، تكُونينَ قد لامستِ عتباتِ الجمالِ المُطلقِ؟

من قال لكِ بأنكِ إذا ارتفعَتْ وجنتاكِ، حتى تغورَ عيناكِ، وكأنهُما تنظُرَانِ عبرَ نفقَينِ، ستكُونينَ قد قطعتِ مسافةً لا بأسَ بها على الطريقِ المُؤدي إلى الجمالِ الكُلِّي؟

من قال لكِ بأن الأنفَ المرفوعَ حتى انفراجِ الخَيشومَينِ هو من أهمِّ مقاييسِ الجمالِ؟

بربكِ، سيدتي، أصدقيني: أهوَ جرَّاحُ التجميلِ، الذي يتقاضى آلافَ الدولاراتِ عن إجراءِ الواحِدةِ من تلك العملياتِ؟ أمْ هي الغِيرَةُ تدفعُكِ إلى ذلك؟ إذ كيفَ تكونُ شفتَا جارتِكِ قد نُفختَا وأنتِ ما زلتِ «متخلفةً عن ركبِ التحضُّرِ»، إذ لم تزلْ شفتَاكِ كما خلقهُما الله تعالى؟ أو كيفَ تكُونُ تلك السيدةُ التي غالبًا ما تلتقِينَها، عند المُزيّنِ أو في النوادي أو في الحفلاتِ، قد رفعَ لها ذلكَ الجراحُ وجنتَيها ولم تزلْ وجنتاكِ في مكانيهِما؟

ثم من قالَ لكِ بأنَّ وضعَ بِضعةَ أقراطٍ في الأذُنِ الواحدةِ، ولنْ أقولَ في أماكِن أخرى... هو غاية في التزيُّنِ؟ ألم يكنْ بائعُ الحُليّ، الحقيقيةِ أو المُزيفةِ، قد نشرَ في مجلاتِ «المُوضةِ» صورةً لتلكَ «الفنّانةِ المشهورةِ»، مُتزيّنة بشيءٍ من اختراعاتِه، كي تتشبَّهِي بِها عمَلًا بمبدأ: «إنَّ التّشَبُهَ بالكِرامِ فَلاحُ»، فتتغذى حساباتُه في البنوكِ من الأموالِ التي ستدفعينَها، أنتِ وقرِينَاتُك، ثمنًا لتلكَ الأقراط؟

ألا يكفي اندفاعُكُنَّ، سيدتي، في تنفيذِ أوامرَ «السلاطِين»، مُصمِّمي الأزياءِ، القابِعِينَ في باريس وميلانو ونيويورك؟

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا – العدد 417 تاريخ 2018/6/15.

أم هلْ تعتقدِينَ حقًا بأنَّ كلَّ ما يبتَدَعُهُ جَشَعُ التجارِ يُناسِبُ كلَّ واحدةٍ مِنكنَّ؟ أم أنكنَّ لا ترغبُنَّ في نقضِ مَقولةِ: «إذا كنتَ تريدُ الثَّراءَ فتاجِرْ بما يخصُّ النِّساء»؟

لا سيدتي، ثِقِي بأن ما خصَّكِ بهِ من خلقَكِ «في أحسنِ تقويمٍ» هو في نظرِنا، نحن الرجالَ، أفضَلُ وأنسبُ لكِ مما قد يَصْطَنِعُهُ أيُّ مخلوقٍ، فالخالقُ أعلمُ من المخلوقِ وهو خيرُ الصانعين. وتأكّدي بأنَّ لكُلِّ عُمرٍ طعمَهُ ومقاييسَ جمالهِ.

الكِذبَةُ «الصادقةُ»[1]

منذ ان أصبح بمتناولِ أيٍّ من الناسِ أن يستفيدَ من خدمات الشَّبكةِ العنكبوتيَّةِ (الإنترنيت)، أخذَ العالمُ يتجهُ صِغَرًا. فالخبرُ الذي كانَ يحتاجُ إلى يومين أو أكثر ليبلغَ مسامعَ أبناءِ قريةٍ صغيرةٍ مُتناقَلًا من الفمِ إلى الأذنِ، أصبحَ اليومَ لا يحتاجُ سوى إلى بضعِ دقائق لكتابته أو بضعِ ثوانٍ، لبثه قولًا أو شريطًا مصورًا، على وسائل الاتصالِ والتواصُلِ ليتنقّل بين أقاصي المعمورة التي أصبحت اليوم وكأنها قريةٌ واحدةٌ.

وكما أنَّ لكلِّ اكتشافٍ أو اختراعٍ جديدٍ حسناتِه وسيئاتِه، فكذلك هي حالُ وسائلِ الاتصالِ والتواصلِ الاجتماعيِّ. وسأكتفي، في هذه المقالةِ، بالكلامِ عن واحدةٍ من سيئات هذه الوسائل، عنيتُ انتشارَ الأخبارِ الكاذِبةِ التي يبثُّها أصحابُ الغاياتِ السيئة، أو من يصيغونَها على سبيل الفُكاهةِ او التَّسليةِ، بعد أنْ يتفَنَّنُوا في صِياغتها فيُصدِّقُها الكثيرون ممن يتلقونَها على حساباتِهم في تلك «الوسائل».

ومن كثرة ما اطلعتُ عليه من تلك الرسائلِ اختلقتُ هذا المثال، عن كيفيةِ صُنعِ كذبةٍ شبه «صادقة»، أو سهلٌ أن تصدَّقَ، فتقول:

نشرتْ مجلةُ ساينس أند ناتشر ««Science and Nature خلاصةَ بحثٍ قام به فريقٌ من المتخصِّصين في جامعة بلاتسبورغ الأميركية ««Plattsburgh وعلى رأسهم البروفسور آدم جونس «Adam Johns»، توصَّلوا بنتيجتِه إلى أن علاجَ مرضِ الكبدِ الصفراوي (مثلًا)، هو في الرمّان (أو التين أو البصل... أنت حرٌّ في الاختيار). وللزيادة في الإقناع بأنَّهُ خبرٌ صادقٌ، يُمكنُك أن تُعطيَه سندًا بغلافٍ دينيٍّ مزيّفً، كأنْ تُضيفَ التالي: وقد علَّق على هذا الخبر الشيخُ الفاضلُ طَهَ الأندراوي، وهو من الباحثينَ في الإعجازِ العلميِّ في الإسلامِ والمتابعين للاكتشافاتِ العلميَّة، قائلًا: «سبحانَ منْ ميّزَ نبيَّنا ﷺ بسعةِ العلمِ، إذ روى عمّارُ بنُ إبرهيمَ عن حسَّانِ بنِ خُزاعةَ عن أحمدَ بنِ سعيدٍ عن أبي هُريرَةَ – رضي الله عنه- أنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: من أكثَرَ من أكلِ الرُّمَّان أمِنَ الكُبادَ». (والكُبادُ لغةً، مرضُ الكبد). (ولا ضرورة لذكر اسم من أخرج هذا «الحديث»). ثم تختمُ خبَرَكَ هذا بعبارةِ «انشرْها لتعمَّ الفائدةُ، جَزاكَ اللهُ خيرًا».

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة - كندا العدد 428 تاريخ 2018/12/20.

ثم قم بإرساله ب«الواتساب» أو مثيلها إلى عددٍ ممن هم على لائحةِ اتصالاتِك، فسيعيدُ كثيرون إرسالَه، ومن دون أن يتحققوا من صحّتِه، إلى عددٍ من أصدقائهم، ومنهم من سينشرُهُ على «الفيسبوك» أو مثيلاتِها. وقد يحوّلُه بعضُهم إلى شريطٍ سمعيٍّ أو بصريٍّ مُرفِقًا به بعضَ الصُّورِ أو الخُطوطِ المُزخرفة. وقد تكونُ أنت أيضًا ممن سيتلقّونه. (انتهى المثال. مع الإشارة إلى أن جميع الأسماء الواردة فيه وهميّة فيما عدا «أبي هُريرَةَ»).

ولا ننسى ما يُمكن لبرامج «الفوتوشوب» أن تُساعدَ في التّلاعُبِ بالصُّور واختراعِ المستنداتِ وتَعْتِيقِها إذا لزمَ الأمرُ. والخطرُ في أنْ تتحولَ بعضُ هذه الأخبارِ المُختلقَةِ إلى مراجعَ يستندُ إليها بعضُ الكُتَّابِ، إمَّا عن غيرِ معرفةٍ بصحتها أو إذا ما رأوا فيها ما يدعمُ نظريَّتهم؛ فالمُحرّك «غوغل» سيحفظُها ويزودُهم بها بكلِّ سهولة. فيُساهم هؤلاء الكُتَّاب في تشويهِ الحقائق، عن قصدٍ أو عن غير قصد.

هذا ولا يكادُ ينقضي يومٌ تقريبًا من دونِ أن يصلَ إلى عُلبِ حساباتي، في وسائلِ الاتصال والتواصل، ولو رسالة واحدة من هذه الرسائل، كأنَّ عقولَ البشرِ وسيلةُ لهوٍ أو تسليةٍ أو لعبٍ. حتى أنه قد جاءني، من أمثالها، بضعٌ فيها تشكيكٌ في عُروبةِ القرآن الكريمِ وبصيغٍ مختلفةٍ، تزعُمُ بأنه يحتوي على كلماتٍ عديدةٍ من أصلٍ سريانيٍّ. وقد بلغ بأحدهم أن حدَّدَ عددها بألفٍ ومائتين وأربعين كلمةً؛ مُستخفِّين بعقول نحو مليار ونصف مليار مسلمٍ في العالم يُؤمنون بعروبته من قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف 2). {وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} (النحل 103).

لقد نسيَ أو تناسى مصطنِعو هذا الخبر أنَّ اللغة العربية من أغنى، إنْ لم نقُلْ أغنى وأوسعُ لغاتِ العالم، فإذا كانت أغنى اللغات، عدا العربية، تحتوي على نحو أربعة آلاف جذرٍ لغويٍّ ففي العربية نحو ستة عشر ألفًا، ويضاعفُ سعتَها هذه التفعيلُ والاشتقاقُ والتركيبُ. وهذا الزعمُ في أنَّ العربيةَ استعارت كلماتٍ من السّريانية يشبهُ القولَ بأنّ بِل غايت (Bill Gate) استدان بعضَ المالِ من أحدِ صغار أغنياء العالم.

هذا ويقول المستشرق أولسهاوزن (Olshausen) في مقدمةِ كتابِه عن اللغة العبرية: «إنَّ أقرب اللغات السّاميّة إلى اللغة السّاميّة الأمّ، أي القديمة، هي اللغةُ العربيةُ.»

وقد وضعت الدكتورة تحيَّة عبد العزيز إسماعيل كتابًا باللغة الإنجليزية عنوانه يبين مضمونَه: «العربية الفصحى جدّةُ اللغات الهندو أوروبية وأصلُ الكلام».

كما توصّل مُحمدُ عبد الله آل الأشرف، في بحثِه بعنوان (نشأة اللغة العربية، وهل هي أقدم اللغات؟)، إلى أنَّهُ «يمكن أن يصلَ تقديرُ عمرِ اللغة العربية إلى أكثر من 150 قرنا». كما يُضيفُ «بأنَّ جزيرةَ العربِ مهدُ القبائلِ السّاميَّةِ وأنَّ اللغة العربية حافظت على خصائص اللغةِ السّاميّة الأمّ حتى كادت أن تكون إيّاها.»

ومما يؤسف له أنّ نزعة الشّرّ في نفوس بعضِ البشرِ، تجعلُهم يتفننون في ارتكاب الجرائمِ بجميعِ أشكالِها وبوسائل مختلفة بحقّ الإنسانيةِ جمعاء، في سبيلِ تحقيقِ غاياتٍ أقلّ ما يُقالُ فيها بأنَّها دنيئةٌ. حمانا الله من شُرُورِهم، وهدانا إلى التمييزِ بين الصّالحِ والطالِحِ من كلِّ الأمورِ.

هل نحن حقًّا أحرار؟[1]

نتغنى بأنّنا نعيش في القرن الواحد والعشرين، وأنّ الحضارةَ قد بلغت أوجَها، والعلمَ قد بلغ قِمّتَه، وأنّ حقوقَ الإنسان مَصونَة، تحميها شِرعةٌ دُوليّة أقرّتها جمعية الأمم المتحدة التي تضمُّ جميع دول العالم وعلى رأسها الدول العظمى. هذه الشّرعة التي تُقِرُّ بأنّ لكُلِّ إنسان، من ذكر وأنثى، الحقَّ بحُرّيّة الرأي والمعتقد والتّعبير والتّنقل والانتقال... فهل نحنُ حقًّا أحرار؟

لا أحد يُنكرُ أنّ الاكتشافات والاختراعات والتّقنيّات الحديثةَ الّتي تنعمُ بها البشريّة في عصرنا هذا، وبخاصة في حقل الاتّصالات، قد جعلت العالم بجهاته الأربع قرية واحدة، وقد سهَّلت كثيرًا سُبُل عيشنا بجميع نواحيها. ولكنْ بقدرِ ما يسّرت لنا من أمورٍ ووفرت من وقتٍ وقدمت من رفاهيةٍ، فإنّي أشعرُ بأنّ هذه الاختراعات قد حدّت من حُرّيتي وكشفت الكثيرَ من خصوصيّاتي.

فإذا ما سدّدتُ، بواسطة بطاقة الائتمان، ثمن ما قد أشتريه من أيٍّ من المحلات التّجارية فستُصبح معلوماتي الشّخصيّة بمتناول المؤسّسة الماليّة الّتي أصدرت تلك البطاقة ومنها إلى أجهزة السّلطة، كذلك الأصنافُ التي اشتريتها بكميّاتها وأنواعها وأثمانها. فأين أصبحت خصوصيّاتي؟

وكُلُّ كلمةٍ من محادثاتي الهاتفية، سواء عبر الهاتف المحمول أم الأرضيّ أم بواسطة مواقع الإنترنيت، تُسجّل بالحرف والدّقيقة والثّانية في الأجهزة المشغِّلة لهذه الهواتف. فأصبح، بالتالي مكشوفًا ومسجّلاً كلّ ما أُرسلُه أو أتلقاه من رسائل وبأيّ وسيلةٍ كانت، سواء عن طريق الإنترنيت أم مواقع التّواصل الاجتماعيّ أم الهاتف المحمول، بالتاريخ والساعة والدقيقة والثانية. فأين أصبحت حُرّيّة القولِ والتعبير؟

وما دام هاتفي المحمول بحوزتي، حتى ولو كان مُطفأً، فستعلمُ الأجهزة مكانَ وجودي (إلّا إذا نزعت منه البطارية). كذلك إذا تنقلتُ بالسيارة مشغّلًا جهاز دليل الطرق (G.P.S) فكلُّ مكانٍ أعبره أو أتوقف فيه بإمكان الأجهزة تحديده. والسَّفرُ جوًّا تكشفُ تفاصيلَه أيضًا بطاقةُ ركوبِ الطّائرة. فأين حُرّيّة التنقل؟

[1] نشر هذا المقال على صفحات جريدة الرسالة – كندا العدد 430 تاريخ 2019/1/25.

ثم منذ متى أصبح مصمِّمو التّطبيقات على الهواتف الذكية، وبخاصّة تطبيقات الألعاب المجّانيّة، جمعيّاتٍ خيريّةً كي توزّعها علينا بالمجّان؟ فلماذا إذًا يشترطُون السّماحَ لهم بالدّخولِ إلى البيانات الشّخصية والموقع بما فيه الصّور...؟ أليس هذا بالتأكيد لغاية في نفس يعقوب؟ ألمْ يخطُر ببالِ أحدِنا بأن يكون وراء هذه التطبيقات من يصطادُ العناوين ليبيعها بدوره من شركات التّسويق؟ فمن أين تحصلُ الشّركاتُ، التي ليس بيني وبينها أيّ تعاملٍ، على عنواني الإليكتروني كي تُغرقني بإعلاناتها اليوميّة أو الأسبوعيّة؟ ولا ننسى تلك الشركات التي تعرضُ علينا أن نحفظَ لديها، مجّانًا، مدوناتِنا حرصًا «منهم» على ألّا يلحقَ بها اذًى من جرّاء عطلٍ تقنيٍّ او تسهيلا لنا في الوصول إليها من أي جهازٍ آخر، أو عند شرائنا جهازًا جديدًا. «اللهمّ زدنا من فاعلي الخير».

وآلاتُ التّصويرِ المنصُوبةُ على الطرقات هنا وهناك، لا تسجّل تحرّكاتي فقط بل تكشفُ أيضًا من قد يكون برفقتي أو من التقيته أو حادثته. حتى في مسكني لستُ آمنًا من أجهزةِ التّنصّت أو التّصوير ألَّا تُسجّل ما قد أقولُه أو أفعله. فقد تحقّق ما كان يتخوّف منه مواطنو الدّولِ ذات الأنظمة الدِّكتاتوريّة البوليسيّة، إذ أمسى «للجدران آذانٌ»، كما كانوا يقولون. فأين حرّيّتي الشّخصيّة؟

أنا لا أُنكِرُ أنّ على الدّولة السّهرَ على الأمن العام، فأمني وأمنُ كلِّ مواطنٍ، هو من أمن المجتمع، ولكنْ من يضمنُ لي بألاّ يقع ولو بعضُ خصوصيّاتي، أو خصوصيّات فتيات بريئات، في يدِ أحدِ ضُعفاء النّفوس أو المستغلّين من العاملين على الأجهزة المختصّة، ليبتزّ كلًّا بما قد يُؤذيه؟ كما أنّي لمجرد الشّعور بأنّي قد أكون مراقبًا، في كلامي أو تنقلاتي أو في مسكني، فسيتملّكني أسى الحدِّ من حرّيّتي.

ولا أنسى ما حرمتنا منه تلك التّقنياتُ وأجهزتُها من علاقات اجتماعية كانت تربطُ بيننا كأهلٍ وأقارب وجيرانٍ وأصدقاء.

وعلى الرُّغمِ ممّا سهّلت لي هذه الاختراعاتُ الحديثةُ معيشتي، وعلى الرُّغمِ من أنّها باتتْ من الضّروريّات في حياتنا اليومية، فقد بدأت أمقُتُها. وكم تمنيّتُ أن يعودَ بي الزّمنُ سنواتٍ عديدةً إلى ما قبل هذه الرّفاهِيَة، ولو لساعاتٍ قليلاتٍ، مع كلِّ ما كان في تلك الأيام من قساوة العيش، كي أتمتّعَ ببضعِ لحظاتٍ من الشُعورِ بحرّيّتي الشّخصيّة.

أليست حُرّيّة الإنسان أسمى وأثمن ما في الوجود؟

الكلمةُ أخطرُ من الرَّصاص[1]

التقاتلُ بين البشرِ قديمٌ قِدَمَ التّاريخ، والأسبابُ متعددةٌ ومختلفةٌ. مِن تقاتلٍ فرديّ إلى تنازعٍ قَبليّ إلى حروبٍ بين الدُّولِ والأممِ مرورًا بالحروبِ الأهليّة بين أبناءِ الدّولة الواحدة. وإبّان الحروبِ يفقدُ الإنسانُ كثيرًا من إنسانيّتِه، سِيَّان كانت المعاركُ مستعرةً أم محتملةً. فينشغلُ تفكيرُه في كيف يتّغلّبُ على عدوّه، ما يجعلُه يبحثُ باستمرارٍ عن الأسلحةِ المتطوّرةِ والخِطَطِ المُحْكَمةِ، وكُلِّ ما من شأنِه أنْ يُحقّقَ له غايتَه تلك. فراحَ يسعى أن يكونَ سلاحُهُ أقوى وأشدَّ فتكًا من سلاحِ عدوّهِ، وخِططُه أكثرَ فعاليةً.

ومن أهمّ تلك الخِطّطِ إضعافُ قُوّةَ العدوّ بأيّ وسيلةٍ ممكنةٍ. وأفضلُ تلك الوسائل أن تتمكّن من زرعِ التّفرقةِ وتقطيعِ أوصالِ الروابطِ بين مُكوّنات ذلك العدوّ وصولًا إلى إشعالِ الفِتنِ بينها.

وعلى الرُّغمِ من هذه الأسلحة المتطورة والفتّاكةِ التي نراها في أيّامنا هذه، تبقى الكلمةُ أشدَّ فتكًا من كلّ تلك الأسلحة. فكم من كلمةٍ أشعلت تقاتلًا بين الأهل والأقارب والقبائل. ثم ألم تكنْ كلماتُ إبريل غلاسبي سببًا في حربٍ دمرت العراق يوم أوحت إلى صدَّام حسين بأنّه إن احتلّ الكويت فهذا شأن عربي؟؟؟

وكم من أدمغةٍ غسلتها كلماتٌ مسمومةٌ تحوّلَ أصحابُها قنابلَ موقوتةً قابلة للتفجير بأمرٍ من صاحب تلك الكلمات؟

وإذا كان فعلُ الرصاصة قتلَ إنسانٍ واحدٍ، وفعلُ القنبلة قتلَ عددٍ من البشر أو تدميرَ مدينةٍ بكاملها، فالكلمة قادرة على تدمير مجتمعٍ بأكمله. وإذا كان بإمكانِ كلماتٍ نُطِقَتْ في أذُنِ شخصٍ، وغاب صداها، أن تجعلَه ألعوبةً بيد قائلها، فكيف سيكون مفعولُ كلماتٍ دُسَّت في كتاب يبقى مئات السنين، بقالبٍ خبيثٍ من شأنه أن يشوّه تعاليم دينٍ أو مذهبٍ، أو صِيغت على شكلِ أبحاثٍ تاريخيةٍ تنبشُ أحداثًا قديمةً بين أبناء الوطن الواحد، أو أبحاثٍ في الأصول والأعراق واللغات، لزرع التفرقة والكره والحقد في نفوسِهم، وتفتيتِ أواصر الشّعبِ الواحد؟

وإذا ما عدنا إلى «كتب التُراث» لوجدنا بينها الكثيرَ من تلك التي تحوي نصوصًا دُسَّتْ لتشويهِ تعاليم الإسلامِ، ولا ننسى ما يُعرفُ ب«الإسرائيليات».

---

[1] نشرت في جريدة الرسالة - كندا لعدد 437 تاريخ 2019/5/17.

وما زلتُ أذكرُ «حرب» الكتب التي نُشرت إبّان الأحداث اللبنانيَّة في الرُبع الأخير من القرن العشرين، ونُسبَت إلى مؤلفين بأسماء مستعارة، منها ما هو في التاريخ أو على شكل أبحاثٍ في المذاهب الدينية. وقد سُكبت بطريقة مزجت فيها المعلومات والأخبار الصحيحة مع أخرى خبيثة من شأنها زعزعةُ إيمان أتباعها، أو زرعُ التفرقة والكراهية والحقد في نفوسهم تُجاه أتباع مذاهب أخرى من الدين عينه ومن أبناء البلد الواحد. كما نُشرَ العديدُ من المقالات والأبحاث في السياق نفسه. كذلك نُشرت كتبٌ موضوعةٌ سابقًا على أثر أحداث القرن التاسع عشر، في جبل لبنان أيضًا، لم يكنْ يُعرف واضعوها، فنُسبت إلى كتّابٍ وأدباء وُلدوا، إمّا إبّان تلك الأحداث أو بعدها وماتوا قبل أحداث القرن العشرين، ومن دون إيِّ دليلٍ على أنّهم هم الذين وضعوها؛ وذلك لإضفاء صفةَ المصداقية على تلك الكتب والأبحاث التي أرادوا منها تنميةَ بذور الحقدِ والكراهيةِ والتفرقةِ في قلوب أبناء البلد الواحد.

ومما يؤسف له أنّ مثل تلك الكتب والأبحاث تبقى كغيرها متداولةً عشرات أو مئات السنين، كما قلنا سابقًا، وتصبح مع الأيام مراجع قد يَستنَدُ إليها كُتّابٌ وباحثون من دون التحقُّق من صحّتها، سواء بالكامل أم من بعض محتوياتها. وقد حدث أن دخلتُ في نقاشٍ مع شابٍ مولودٍ بعد أحداث القرن العشرين وإذا به يستشهد بأحد تلك الكتب، وعندما قلت له بأن ذاك الكتاب واحدٌ من الكتب المدسوسة لم يقتنعْ بل اتّهمني بالتحيّز وبأنّي أطعن بتلك الكتب وواضعيها لدعم رأيي فقط.

ولا ننسى أيضًا الكتبَ والأبحاثَ، التي تنشر حاليًّا ومنذ مدّةٍ من الزمن وبوسائل شتى، في أصولِ وأعراقِ ولغاتِ أبناء البلاد العربية الذين يعيشون سوية منذ أربعة عشر قرنًا، بغية تفرقتهم شعوبًا وأعراقًا بعد تفرقتهم طائفيًّا ثم مذهبيًّا.

كما أنّ لأجهزة الإعلام، بجميع أشكالها، دورًا عظيمًا في تثقيف وتوعية البشر وتوجيههم نحو الخير أو الشرّ، أو في تسميم أفكارهم وزرع التفرقة والحقد في نفوسهم. أوليس بإمكانهم إبراز أخبارٍ وإخفاء أخرى لغايات في النفوس، أو صياغتها أو التعليق عليها بعباراتٍ تخدم مُرامَهم؟ وهذا الصَّحَفيُّ العريق، جهاد الزين، يصف مهنة الصحافة ب«السّمِّ»، ويعطي كتابَه عنوانًا فيه الكثيرُ من الدلالة على دورها، ألا وهو: «المهنة الآثمة».

واليوم مع ما أمَّنته التقنيَّات الحديثة في اتساع وتعدد وسائل النَّشر والاتصال، ومع ما يُسمى وسائل التواصل الاجتماعي، يُسِّرَ كثيرًا اختراعُ الكذبة المسمِّمةِ، ونشرُها بأسلوبٍ يجعل القارئ العاديَّ يقتنع بصحتها بسهولة.

وواضع الكتاب المسمومِ أو البحثِ المُغرضِ، أراه لا يختلف أبدًا عن النَّمَّام الذي يُوغِر الصّدور ويجعل الأصدقاء أعداء، بل هو إنسانٌ بلا ضميرٍ أو حسٍّ إنسانيٍّ أو وطنيٍّ، وأعظمُ خطرًا من العدوّ الذي يُشهرُ السّلاح للقتال. والقارئ العاديُّ قليلًا ما يُعمِلُ العقلَ والمنطقَ في ما يقرأ. وعلى الرّغم من أنَّ ما من دينٍ أو مذهبٍ يدعو إلى الشرّ، فكثيرًا ما نرى أُناسًا يقتنعون بما وردَ، من تشويهٍ لتعاليمِ أيٍّ منها، دُسَّ في كتابٍ سواء وُضِع قَديمًا أم حديثًا بقلمِ كاتبٍ مُغرضٍ.

ويبقى أن نذكِّرَ بأنَّ الكلمةَ، كالرّصاصة، إنْ نُطِقَتْ فمن المستحيل استرجاعُها.

الإيمان الدّينيُّ ضرورةٌ إنسانيّة[1]

لستُ هنا في معرضِ التبشير أو الدّعوة إلى دينٍ بعينه، فكلُّ الأديان تدعو إلى المحبّة والصِّدق والخير والعمل الصّالح. والدّين كما أفهمه هو مجموعةٌ:

من المعتقدات، على مُعتنقِه الإيمانُ بها مجتمعةً غير مُجزّأة، إيمانًا صادقًا، نابعًا من أعماق نفسهِ، راسخًا لا تهُزُّهُ نعمةٌ طرأتْ أو مصيبةٌ حلَّتْ، مهما صغرت أو عظُمت.

ومن التعاليمِ والواجباتِ لتنظيمِ علاقتِهِ كعابدٍ بمعبودهِ.

ومن قواعد أخلاقية تحكُمُ سلوكَه في معيشته وتنظّم علاقته بنظرائه في المجتمع وفي الإنسانيّة جمعاء، سواء كانوا على دينه أم لا، ومع الطبيعة وما فيها. وصولًا إلى قيامِ المجتمعات الصّالحة. فغايةُ الدّين إصلاحُ المجتمع.

والدّين والإيمان مرتبطان لا انفصام بينهما، فلا يكون الإنسانُ مؤمنًا من غير دينٍ، ولا يكون ذا دينٍ إذا لم يكن مؤمنًا.

وكي يكونَ مؤمنًا صالحًا عليه التقيّدُ بما جاء في مُحْكمِ كتبِ دينه من تلك المعتقدات والتعاليم والقواعد، متمسكًا بجوهرها لا بقشورها وظواهرها، ومن دونِ تزمّتٍ أو مغالاةٍ أو إفراطٍ أو تفريطٍ أو تنقيصٍ أو تجزئة؛ لا كما حوّرَها أصحابُ المذاهب أو الغايات. وإن شاء التّشبُّهَ بمن سبقه من الأئمّةِ والفقهاء فليتّبعْ صالحَ أقوالِهم وأفعالِهم لا مظاهرَهم، فالثوبُ الذي يقي من حرّ صيفِ الصّحراء لا يحمي من بردِ الشّتاء في الجبالِ ولا من قَرْسِ صقيعِ قُطبَي الكرة الأرضِية، فلكلِّ زمانٍ ومكانٍ أحكامُه ولوازمُه واحتياجاتُه.

لقد ميّز الخالقُ الإنسانَ عن سائر المخلوقاتِ الحيّةِ، بميزة العقل. وبقدر ما يوجّههُ هذا العقلُ يرتفعُ عن الصّفات الحيوانيّة. وبقدر ما يستعمله في الخير يسمو بإنسانيته. أمّا إن ذهب بهِ إلى الشّرّ فسيغدو أشرّ وأخطر من أشرس الحيوانات المفترسة. وهنا يأتي دور القيمِ والمُثلِ والمبادئ التي تدعو إلى صالح الإعمال، وتنهى عن سيّئها، وهذه سنجدها حتمًا في القواعد والتّعاليم الدّينيّة. فما يفرضه الدّين منها يقبله المؤمنُ بنفسٍ راضيةٍ، بينما ما تفرضه القوانين الوضعية ينفّذه

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا العدد 438 تاريخ 2019/5/31.

خوفًا من العقاب. وهذا مما يجعلني أرى أنّ الإنسان بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الإيمان الدّينيّ سواء في حياته الخاصّة أم كفردٍ في المجتمع.

لقد خُلِقَ الإنسان من مادةٍ هي الجسد، ورُوحٍ هو النفس. وبما أن الجسد مرتبطٌ بعالم المادة فهو يحتاج إلى الطعام والشراب غذاء يبقيه على اتصال بذلك العالم. كذلك، فإن النفس، أيضًا، بحاجة إلى غذاء روحاني يبقيها على اتصال بعالم الروح، الذي انبثقت عنه. والدين غذاء للنفس. وبقدر ما يكون قد تغذّى غذاءً صالحًا يكون قد تهيأ لحياة صالحة. «ومن شبَّ على شيءٍ شاخَ عليه».

فعلى المستوى الفردي، الإيمان بوجود خالقٍ، يحكم ويدير شؤون هذا الكون، يعطيه قوّةً روحيّة توفِّر له راحةً نفسيَّةً، لا يشعر بها غيرُ المؤمن. فالإنسان ضعيفٌ بطبيعته وبحاجةٍ إلى من يلجأ إليه عند المُلمَّات، تمامًا كما يلجأ الطّفلُ إلى والده كلما رأى ما يُخيفه. فعندما يواجهُ الإنسانَ موقفٌ يصعبُ عليه تخطّيهِ، فإن كانَ مؤمنًا فسيتركُ الأمر إلى مدبّر الكون ليُخلِّصَه منه، فيغدو كمن يضعُ عن كاهليه حملًا كاد يرزحُ من ثقله. أمّا غيرُ المؤمنِ فنراه قلقًا وخائفًا مما قد ينتج عن ذلك الموقف. فلنتخيلْ موقفَ أبٍ اشتدَّ المرضُ على طفله وأبلغه الأطبَّاء بأن حالته صعبةٌ جدًا، فإن كان مؤمنًا فسنراه يُسلِّمُ أمره لمعبوده، أما غير المؤمن فسيعاني من عذاب الخوف والقلق. وقد قال أحد الحكماء: «لولا الإيمان لهلك الإنسان».

وبما أنَّ «الإنسانَ مدنيٌّ بالطبع»، فلن يكون مجتمعه صالحًا إلّا إذا صلح أفراده. فمن يخالفُ القانون الوِضْعِيَّ يخاف فقط من العقوبة التي يحددها هذا القانون، أما المؤمن فرادعه في نفسه (ضميره). وإذا كان القانون يعاقب المجرم أو الجاني فالإيمان الدّينيُّ يردع عن ارتكاب الجرائم والفواحش والسُّحت. وإذا لم يقع السارق بيد عدالة الدولة فلن يسلم من عقاب الضمير الذي يوجده الإيمان.

والقانون، من دون أدنى شكٍّ، ضروريٌّ لتنظيم شؤون المجتمعات، ولكنَّه لا يكفي وحدَه لضبط سلوك البشر لأنّ سلطانه يكون على ظاهر أعمالهم لا على بواطنهم، ومهمّته معاقبة المسيء من دون مكافأة المحسن.

ومن الممكن أن يتحايل الناس على القوانين، ويطوّعوا نصوصها لأهوائهم، ويهربوا من العقوبة، فالقانون يكفُّ العدوان الظاهر ويرفع الظُّلم البيّن. أما الاختلاس والتزوير المموّه، والباطل المغلف بغلاف خادع، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشّهوات، فلا يستطيع القانون دفعه لأنّه غير قادر على معرفة خفايا الحيل والدسائس التي تنطوي عليها بعض النفوس. أضف إلى ذلك أنَّ المكلف بتطبيق

القانون قد يكون ممن تملكتهم الشهوات في تفسير نصوصه على هواهم. فمن ذا الذي يستطيع أن يمنعه من طاعة شهواته المتسلطة على عقله؟ إنّ الإيمان والشعور برقابة الخالق هو الكفيل بتصحيح النفوس وتطبيق النِّظام، لا خوفًا من العقاب ولكن رغبة في مرضاة مدبّر الكون.

وهكذا يصبح الإيمان الدينيُّ بالتالي حاجة للإنسانية جمعاء، فإن صلحت المجتمعات صلحت البشرية جمعاء.

ولمن يعتقد أن الدّين سببُ التخلّف، يجيبه الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون (Francis Bacon): «إنّ قليلا من الفلسفة يقرّب الإنسان من الإلحاد. أمّا التعمُّق في الفلسفة فيردُّه إلى الدّين.»

وفي الختام أستعيد بعضًا من أقوال الحكماء:
«لولا الدّين، لدُكّت معالم التمدُّن.»
و«الحياة، لولا الإيمان، لغزٌ لا يُفهم معناه.»
و«من لا عقل له لا دينَ لهُ، ومن لا دين له لا أخلاق له.»
و«لو لم يكن الله موجودًا لخلقه بنو الإنسان».

«اختلاف الرأي لا يفسد للودِّ قضية[1]»

قال لي صديق يومًا: يا صديقي، إنّني معجبٌ بكتاباتك على وسائل التواصل الاجتماعيّ. ولكنّي أرجوك ألّا تكتب في شؤون السياسة اللبنانيّة.

قلت: ولماذا؟

قال: لأنني لا أريد أن أخسر صداقتك.

قلت: وما شأن ما أكتبه في صداقتنا؟

قال: لأنّ آراءك في تلك السياسة تخالف آرائي.

قلت: أتذكُر يا صديقي كم هو عمر صداقتنا؟

قال: أجل، نصف قرنٍ أو أكثر.

قلت: وهل كانت آراؤنا هذه على مدى تلك السنين متوافقة دومًا؟

قال: لم ألمس يومًا اختلافها.

قلت: بينما لمسته أنا مرّاتٍ عدّة، ولكنّي لم أُبدِ لك مرةً امتعاضي من ذلك.

قال: ولماذا لم تُشعرني به؟

قلت: لأنّني كنت على يقينٍ من أنّه لم يكن ليغيّر في رأيك أو في رأيي. ثم هل من الممكن أن نجد في الكون اثنين تتطابق آراؤهما كلّيًا؟ وأليس من المستحيل أن يدوم هذا التوافق إن وجد مدى العمر كما تدوم الصداقات؟ بل هل يجوز أن تكون الصداقة مشروطةً بتوافق الآراء؟ وإن كان الأمر كذلك، فهذا يعني في رأيي أن تنعدم الصداقات بين البشر.

قال: ولكنّني لا أحتمل أن أراك مع الفريق الآخر.

قلت: ألسنا أبناء وطنٍ واحد؟

قال: بلا.

قلت: وهل لديك أيُ شكٍّ في وطنيتي؟

قال: بالتأكيد لا، وألف لا.

قلت: وأنا أيضًا ليس لديّ شكٌّ في حبّك للوطن، وفي أنّك تريد الخير له ولأبنائه أجمعين. وهذا ما أريده أنا بدوري. فهدفنا واحدٌ إذًا، ولكنّ كلًّا منا يسعى إلى تحقيق هذا الهدف بالسير على الطريق التي هو مقتنع بأنّها هي الصائبة. وهذا هو أهمُّ أسس الديمقراطية.

---

[1] نشرت على موقع «المنبّه» الإلكتروني في 2020/10/9.

قال: ولكنّ النهج الذي نسير عليه نحن، هو الكفيل بتحقيق أهدافنا.

قلت: وهكذا يظنّ كلُّ إنسان. ولكن، لماذا لم تنفصم عرى صداقتنا على مدى تلك السنين، على الرُّغم من أنّنا على دينين مختلفين، وكلٌّ منا مؤمنٌ بأن دينه هو الصحيح، وإلّا لكان تخلّى عنه؟

قال: لأنّ كلّا منا يحترم دين الآخر.

قلت: ولماذا تحترم معتقدي الدينيّ ولا تحترم رأيي السياسيّ؟

قال: لأنّ كلًّا منّا متمسّكٌ بإيمانه ولا مجال لأن يتخلّى عنه، كما أسلفتَ أنتَ.

قلت: ولا تنسَ يا صديقي أنّ رجال السياسة، لا في لبنان وحده بل في معظم أنحاء العالم، قد تراهم اليوم مختلفين وإذا بهم بعد مدة يتحولون إلى أعزّ الأصدقاء، والعكس جائزٌ في كلّ ساعة. وهذا لأنّ مصالحهم الشخصيّة أو الانتخابيّة... هي التي تحكم مساراتهم. فهل على مؤيّدي كلٍّ منهم أن يختلفوا اليوم فيما بينهم ليتصالحوا غدًا، تبعًا لمزاجية ومصالح أولئك السياسيّين؟

إنّي أؤمن يا صديقي، بأنّني لستُ دومًا على حقٍّ، فقد يكون غيري مُحِقًّا وأنا مُخطئًا، فلا يجوزُ لي بالتالي أن أرفضَ رأيَ غيري فقط لأنّه يُخالفُ رأيي. كما أنّ عليَّ أن أقبل الناس كما هم، فأنا لا أستطيع إعادةَ تكوينهم كما أرغب في أن يكونوا. أمّا أن أفرض عليهم أن يكونوا على رأيي، أفلا تراه نوعًا من القمع الفكريّ؟ وبماذا يختلف تفكيري عندئذٍ، عمّن يريد فرض معتقده الدينيّ أو المذهبيّ على غيره؟ وإن لم يجد من يردعه فقد يعمد إلى تحقيق مراده بالقوة، لتعود أيّام التنظيمات والجبهات الإرهابية بدءًا بالقاعدة ثم النصرة فداعش.

لا يا صديقي، فالصداقة أسمى من أن تُحكم بمثل ذاك الشرط. وأبناء الوطن الواحد إخوة مهما تنوّعت أفكارهم ومعتقداتهم. ومن يختلف معي في الرأي، ليس عدويّ. ويقول الإمام عليّ (كرم الله وجهه): «الناس صنفان، إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق». واحترام آراء الآخرين دليلُ رُقيّ الفكر وسموِّ الأخلاق والتحضُّر.

ولنتذكرْ دومًا قول أحد الحكماء: «اختلافُ الرّأي لا يفسد للودِّ قضيّة».

خواطر في الإسلام

رسالة إلى ابنتي[1]

بنيّتي الحبيبة،

أنت اليوم تعيشين في بلد يقطنه أناسٌ من مختلف المِلل والنِّحل والعروق والألوان والقوميات، تنطق ألسنتهم بلغات مختلفة متعددة، وتختلف معتقداتهم باختلاف مذاهبهم. ومن باب العلم بالشيء، قد يسألك أحدهم أن تعطيه لمحة عن دين الإسلام. فهل لديك القدرة على ذلك من دون الإطالة التي قد تكون سببًا في نفوره؟

لقد كان الأعرابي، إبَّان الدعوة إلى الدين، يلتقي النبي ﷺ، أو أحد الصحابة، ويستمع إليه مدة زمنية وجيزة قد لا تزيد، أحيانًا، عن الساعة الواحدة، وإذا بهذا الأعرابي ينطلق بعد ذلك في الصحراء، ليس فقط مسلمًا مؤمنًا، بل أيضًا، داعيًا لدين الإسلام.

ولتبسيط الأمر وتقريبه من عقل من يسألك، يمكنك تشبيه الدين بالجمعية أو الحزب السياسي. فكما أنّ لكل حزب مبادئ تكون أساسًا لعقيدة يجب أن يقتنع بها من أراد أن يكون فيما بعد أحد أعضاء هذا الحزب، كذلك لكل دين معتقدات يجب على معتنقه الإيمانُ القاطع بها. وتسمى هذه المعتقدات في الدين: أركان الإيمان، وهي في الإسلام خمسة، ولكنها تشكل كلًّا لا يتجزأ، وهي: الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر.

وزيادة في الإيضاح نقول له: إنّ الإيمان بالله، يعني الإيمان بأن الله واحد، خلق كل شيء ووضع سنن الكون، قديم لا أول له، باقٍ لا آخر له، هو وحده يحيي ويميت، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى عن علمه شيء، عادل لا تقاس عدالته بالبشر، يفعل ما يريد ولا حدود للإرادته، هو رب العالمين ومالك كل شيء.

كذلك على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى خلق مخلوقات غير ظاهرة لنا منها ما هو للخير المحض وهم الملائكة، ومنها ما هو للشر المحض وهم الشياطين، ومنها ما هو مختلط للخير وللشرّ وهم الجنّ.

[1] رسالة كتبتها إلى بناتي في العام 1992 بعد نحو السنة من وصولنا إلى مونتريال - كندا.

أما الرسل والأنبياء فهم أناس من البشر اختارهم الله تعالى ليبلغوا بني الإنسان الشرع الإلهي. وهؤلاء الرسل أولهم آدم (عليه الصلاة والسلام) وآخرهم محمد ﷺ مرورًا بإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم الصلاة والسلام).

أما الكتب فهي التي تضمنت تلك الشرائع التي أنزلها الله على رسله ومنها التوراة والإنجيل وآخرها القرآن الذي هو دستور المسلمين ومرجع قوانين حياتهم.

كما أنّ على المسلم أن يؤمن بأنّ حياتنا على هذه الأرض، هي الحياة الأولى وأنّ بعدها حياة خالدة يحدّد بدايتها الله بيوم القيامة، حين تحاسب كل نفس بما عملت في حياتها الأولى فيكافأ من عمل الصالحات ويدخل الجنة حيث يعيش إلى الأبد حياة هنيئة، ويعاقب من عمل السيئات ويخلد في جهنم.

فإن اقتنع ذلك الشخص بهذه الأسس وآمن بها إيمانًا لا يتجزأ وأراد اعتناق الإسلام، فلا يتوجب عليه، كما الحال في الأحزاب أن يقسم يمين الولاء، إنما عليه فقط أن ينطق بالشهادتين فيقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسولُ الله.» والله وحده أعلم بإيمانه.

ولكن كما يتوجب على كل عضوٍ في أي حزب، القيام بواجبات يحددها دستور ذلك الحزب، فإنّه يتوجب على المسلم أيضًا واجبات أربع: أن يصلي خمس مرات في اليوم، وأن يصوم شهر رمضان من كل سنة، وأن يدفع الزكاة إلى بيت مال المسلمين، وهي نسبة معينة من الفائض من أمواله، وأن يحج إلى بيت الله في مكة مرة واحدة في حياته إذا كان باستطاعته ذلك.

كذلك على المسلم أن يتجنب السيئات طوال حياته الدنيوية بالامتناع عن القيام بكلّ ما هو من المحرمات أو النواهي. بالإضافة إلى تحلّيه بالصفات الحميدة وباعتماده قواعد سلوك صالحة في تعامله مع الناس، وفي أعماله في هذه الدنيا.

والجدير بالإشارة إليه، هو أن الإسلام وضع أسبابًا تخفيفية في بعض الحالات، حتى ولو كانت من المحرمات.

أما المحرمات والنواهي فهي في أن يمتنع المسلم عن:

أولًا: في المأكل والمشرب:

أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم، وما ذبح على النصب وما

لم يذكر اسم الله عليه، وشرب المُسكرات التي تفقده رزانة العقل ووضوح التفكير.

ثانيًا: في المعتقدات الدينية:

الشرك والكفر والشك بالله وبآياته، وعبادة الأوثان والأنصاب والأزلام، والاستهزاء بآيات الله، والإيمان ببعض آياته والكفر بالبعض الآخر، والافتراء والكذب على الله، وأمن مكر الله، وعبادة الشيطان، وتأويل وتحريف كلام الله، والتكذيب في الدين، والغرور بالله، والمخادعة والنفاق والارتداد عن الإيمان، والصد عن سبيل الله، والجحود والسعي والجدال بآيات الله، وكتم الحق ولبسه بالباطل، واليأس والقنوط من رحمة الله، واتباع الهوى، ومعصية الله ورسوله.

ثالثًا: في أمور الدنيا:

الاختيال والتكبر والاغترار بالحياة الدنيا، وأكل مال اليتيم والآخرين، والإثم والعدوان، واتخاذ الأولياء من الكفار والمشركين، وإكراه البنات على البِغاء، والإسراف والتبذير في كل شيء، واستراق النظر، وإخراج الناس من ديارهم، والإكثار في حلف اليمين، والبخل والتقتير، والحسد والزنى، واللواط، وقول وشهادة الزور، والبهتان والربا والغيبة والنميمة والفتنة والفساد والفسق، والعمل على إشاعة الفحشاء، والمنكر، وتخسير الميزان، والتنابز بالألقاب، وقول السوء، والسرقة والسحر والسحت، والسعي في خراب المساجد، والقهر والنهر، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وقذف المحصنات والآخرين، وقطع الطريق، والقتل، وأن تقول ما ليس لك به علم، والخيانة والميسر، ومنع الخير، والمن والأذى في الصدقات، وشهوة أزواج وأموال الآخرين، والكذب، وكتم ما خلق الله في الأرحام، والذل والاستذلال، والنهي عن الصلاة، ونقض العهود واليمين، والظلم والبغي والطغيان والظن، وأذية الله ورسوله والمؤمنين، والاستماع إلى الكفر، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والتجسس، ومجالسة وطاعة الكفار والمشركين، وأن تقول ما لا تفعل، والقول في المستقبل، واللغو والمراآة، والمكر السيئ، والوسوسة والغلول والغلو، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ودخول البيوت من ظهورها.

أما الصفات التي على المسلم أن يتحلّى بها في أموره الدنيوية فهي: قرن القول بالفعل، وطاعة أولي الأمر، واحترام الوالدين والآخرين، والحلم وكظم الغيظ، والصدق والصبر والعفو والصفح والمغفرة والتواضع وحفظ وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد والوعد والكيل والميزان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرهبة والخوف من الله، والتقوى والحمد والشكر لله.

أما أعمال المسلم الدنيوية فهي: وصل ما أمر الله به أن يوصل، والشفاعة الحسنة، وأن يجير حتى المشركين، والإحسان والعمل الحسن الصالح، وعمل الخير، والإصلاح بين الناس، ودرء السيئة بالحسنة.

وإلى جانب ذلك وضع الإسلام قواعد سلوك لآداب التحية والمظهر والزينة والحديث والقول والأكل والشرب والزيارة والمجالسة والصُّحبة، تنطلق كلها من مبدأ احترام الآخرين وحقوقهم وحرياتهم وحرماتهم ومراعاة شعورهم وعدم إزعاجهم أو أذيتهم بأي شكل من الأشكال.

وقبل أن أختم رسالتي هذه لا بد لي من أن أضيف بأن القرآن الكريم، إلى جانب ما ذكرتُه آنفًا، فقد وضع أسسًا لقوانين مدنية يمكن اعتمادها في جميع الأزمنة والأمكنة، أخص منها قانون الأحوال الشخصية، أي الزواج والطلاق والإرث والوصية، وقانون العقوبات وغيره...

ومن النصوص المهمّة التي احتواها هذا الكتاب العظيم، تلك التي جعلت للمرأة المسلمة كيانًا واحترامًا وحقوقًا لم تحصل عليها غيرها من النساء سوى منذ حقبة وجيزة من الزمن إذا ما قيست بما يزيد عن أربعة عشر قرنًا، عمر دين الإسلام حتى اليوم.

ولا ننسى أيضًا أن القرآن الكريم وضع الأسس التي قضت تدريجيًا على الرق من دون أن يحدث ذلك أية أزمة اقتصادية أو اجتماعية.

هذه يا بنيتي، لمحة مختصرة عن ديننا الحنيف أضعها بين يديك لعلها تساعدك في الإجابة على أسئلة رفاقك، راجيًا الله تعالى أن يمكننا من أن نكون مسلمين حقيقيين.

ودمت لوالدك المحب.

هل كان مصطفى العقاد حقا سبب احتلال الأميركيين للعراق؟[1]

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ ...} (الإسراء 33). وهذا الحق لا يعطى عشوائيًا أو لأيٍ كان، بل يجب أن يثبت بالبيّنة المحقّقة وبالبرهان القاطع أنّ صاحب هذه النفس قد ارتكب جريمة يعاقب عليها بالقتل، وأن يكون من يُصدر هذا الحكم ممن أقامهم أولو الأمر لهذه الغاية.

فيا أبا مُصعب الزرقاوي، ومن ورائه ما يسمى «تنظيم القاعدة» وزعيمه أسامة بن لادن، بالله عليك قلْ لي من أعطاك الحق بالقتل العشوائي في العراق وغيره؟ هل أرسل لك الله سبحانه وتعالى ملاكه، جبريل (عليه السلام)، ليبلغك التكليف بهذا التقتيل؟ وإنّي وجميع المسلمين، على يقين تامّ بأن الله تعالى لم يرسل جبريل، أو أيٍّ ملائكته (عليهم السلام)، إلى أيٍ من أبناء البشر من بعد نبيّه محمد ﷺ. أليس هذا بصحيح؟

أنت تبعث بمن تسمّيهم زورًا وظلمًا «استشهاديون»، وبالسيارات المفخخة توضع على قارعة الطريق أو أمام المساجد أو أمام مراكز الشرطة في العراق... وعند انفجارها تكون ضحاياها من أشخاص عزّل، كانت جريمة بعضهم أنه كان ذاهبًا لشراء الطعام لأطفاله أو بعض الحاجيات لعياله، وبعضٌ كان واقفًا بين يدي ربّه يصلي، - كان يصلي يا أبا مصعب، نعم كان يصلي يا من يدّعي بأنّه يحمل راية الإسلام - وبعضهم الآخر كان بصدد البحث عن عمل يمكّنه من القيام بمتطلبات معيشة عياله، بالانتساب إلى سلك الشرطة، ولا بد من أنك تعلم جيدًا أنّ أول مهام الشرطة هي حفظ الأمن وحماية أرواح وأموال المواطنين من المجرمين واللصوص. أرجوك أجبني هل تحقّقت بالبيّنة والبرهان القاطعين من أنّ أيًا من هؤلاء كان يحمل السلاح لقتلك ظلمًا وعدوانًا أو لطردك من منزلك، أنت أو أيٍّ ممن معك؟ أم أنّه كان السبب المباشر في احتلال الأميركيّين للعراق؟

---

[1] كتبت هذا المقال في 2005/12/24، تعليقًا على عملية انتحارية أمر بها أبو مُصعب الزرقاوي، ونفذها زوجان بين محتفلين بعرسٍ، في أحد فنادق عمَّان - الأردن، حيث راح ضحيتها عددٌ من المدعوين، والمخرج السينمائي الشهير مصطفى العقاد وابنته، رحمة الله عليهم أجمعين.

ثم هل تعرف، يا أبا مصعب، بأن هؤلاء الذين تقتلهم، عامدًا متعمدًا، كانوا، ليس فقط مواطنين عراقيين بل أيضًا مسلمين مؤمنين، من أمثالك كما تدّعي؟ أوَ لم تقرأ الآية الكريمة التي تقول: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء 93)؟ فإن كنت لم تقرأها «فتلك مصيبة»، وإن كنت قرأتها «فالمصيبة أعظم».

ثم بالله عليك قُلْ لي: هل ثبت لديك، أيضًا، بالبيّنة المحقّقة وبالبرهان القاطع أنّ اولئك الذين كانوا في عمان، - في عمان يا أبا مصعب - يحتفلون بزفاف ولديهم، كانوا وراء احتلال الأميركيين للعراق أم لأفغانستان أم حتى وراء اغتصاب اليهود لفلسطين؟ أم أنّ المخرج السينمائي مصطفى العقّاد وابنته كانا وراء أيٍّ من هذا؟

يا أبا مصعب ويا ابن لادن، عندما أخرج مصطفى العقاد فيلميه السينمائيين (الرسالة وعمر المختار) جعل الملايين من الأجانب يطلعون على مبادئ الإسلام وسماحته وعلى أنّه يوصي بالسلام وعدم الاعتداء... أليس السلام تحية الإسلام؟ أمَّا أنتما وأمثالكما، ومن سار على دربكما ليس في العراق فقط، بل أيضًا في أفغانستان والسعودية واليمن ومصر والجزائر وحتى في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، فكلّما أعلن أحدٌ منكم مسؤوليته عن تفجيرٍ ما، دفع الكثيرين من الناس دفعًا إلى الاقتناع بأن الإسلام والإرهاب متلازمان. وقد يكون أحيانًا، مسلمون من بين هؤلاء الناس. فهل هذا حقًا ما ترومانه؟

تلك الانفجارات التي قُتل فيها أناسٌ أبرياء ممّن كانوا في منازلهم، كما في السعودية وفي الجزائر، أو كانوا يتمتّعون بدفء الشمس وأشعتها في شرم الشيخ، أو كانوا يعملون في مكاتبهم في الولايات المتحدة الأميركية، أو كانوا متوجهين إلى أعمالهم في محطات القطارات في بريطانيا... هل كان أحدٌ من هؤلاء يحمل سلاحًا لقتل أي منكما أو من أتباعكما أو لإخراجكما من دياركما؟

وأولئك الذين تدفعون بهم للقيام بالعمليات الانتحارية، والتي تصفونها، زورًا، في لغتكم: «استشهادية»، كي يفجروا أجسادهم وسط الناس الأبرياء، وتغررون بهم بإقناعهم أنهم ذاهبون فورًا إلى الجنّة، ليتمتعوا بالحور العين؛ ألم تشعروا ولو للحظة واحدة بأنكم، أيضًا تقتلونهم بغير نفس أو بغير حقّ، وهم إخوانكم في الدين؟ أو لم تقرأوا في القرآن الكريم بأن: {... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ...} (المائدة 32)، و{... وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (البقرة 195)؟

أمّا إن كنتم حقًا تبغون الجهاد في سبيل الله فأرجوكم، وقبل البدء بذلك، أن تعودوا إلى القواعد التي سمح بها القرآن الكريم بالجهاد، قتالًا. بل ويكفيكم أن تقرأوا فقط هذه الآية: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة 190). وغيرها كثيرةٌ مما تقول بأن الله لا يحب المعتدين. كما أرجو أن تقرأوا أيضًا: {لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة 8). فإذا لم يفهم بعضكم ماذا تعني هاتان الآيتان، فأنصح له بأن يعود إلى مقاعد الدراسة وفي الصفوف الابتدائية بالتحديد.

ثم ألم تقرأوا وصية عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى قائد جنده، سعد بن أبي وقاص؟ التي قال له فيها:

«أما بعد، فإني آمُرُك، ومن معك من الأجناد، بتقوى الله على كل حال فإنّ تقوى الله أفضل العدّة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب. وآمُرُك، ومن معك، أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي، منكم من عدوكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوّة، لأنّ عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصَرُ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. فاعلموا أنّ عليكم في سيركم حفظةً من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إنّ عدوّنا شرٌّ منّا فلن يُسلَّط علينا، فرُبّ قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم كما سلِّط على بني إسرائيل، لمّا عملوا بمساخط الله، كفارُ المجوس؛ فجاسوا خلال الديار، وكان وعدًا مفعولًا.. اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم».

ثم إن الله تعالى يقول: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب 21). فهل عاد أيّ منكم إلى سيرة الرسول ﷺ ليرى إن كان يومًا، في قتال المشركين، قد سمح بقتل أسيرٍ أو طفلٍ أو امرأةٍ أو أعزل أو حتى بعيرٍ أو بقطع شجرة؟ أو أنّه يومًا نعت مسلمًا، ينطق بالشهادتين، بصفة الكفر؟ كما يقول بعضكم عن إخوان لهم مسلمين ولكنّهم على غير مذهبه؟

أمّا إن كنتم تعتقدون بأن التشبُّه بالنبيّ الكريم ﷺ هو فقط في أن «تطلقوا اللحى وتعفوا عن الشوارب» فلله دركم من مسلمين!!؟؟ فلا عجب إذًا في قول الشاعر:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم *** يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

رسالة إلى إخواني المسلمين في بلاد الاغتراب[1]

إخواني المسلمين، الذين يعيشون في بلاد الغرب عامة، وفي كندا خاصة.

بعد أن هجرتم أوطانكم وانتقلتم إلى البلاد الغربية، أصبحتم على احتكاك مباشر مع أناس ينتمون إلى عرقيّات وقوميّات مختلفة ومتعدّدة، بينهم من يعتنق المسيحية أو اليهودية على مذاهبهما المختلفة، ومنهم من ابتعد عنهما ليصل إلى درجة الإلحاد. ومنهم أيضًا من يتبع البوذية أو غيرها من الأديان غير السماوية. وهذا ما يلقي على عاتق كلٍّ منكم مسؤوليّاتٍ جسامًا، لا تُجاه أنفسكم وأولادكم وأحفادكم فقط، بل أيضًا، تجاه إخوانكم المسلمين في جميع أصقاع الأرض. هذه المسؤوليّات قد تكون أكبر بكثير من أيّ مسؤوليّة يحملها أيٌّ من فقهاء المسلمين في البلاد الإسلامية.

أنتم اليوم سفراء المسلمين جميعًا، بُعثتم إلى بلادٍ تجهل الغالبيّة العظمى من أهلها، ما هو دين الإسلام وما هي تعاليمه. وللأسف فقد يكون كل ما يعرفونه هو ما تنقله لهم وسائل الإعلام عن تصرفاتٍ وأعمالٍ، قد تصل إلى حد الإجرام، يقوم بها بعضهم وينسبونها إلى الإسلام زورًا وبهتانًا، وهو براء منها، حتى أصبح الكثيرون منهم يعتقدون أن الإسلام مرادف للإرهاب والتطرّف والتحجّر والقتل والعدوان. ولا ننسى أن الإنسان عدوٌّ لما يجهل، أو أنّه يحكم على الكل من تصرف الجزء.

إخواني، إنّ المطلوب منكم، اليوم وفي كل يوم، أن تجعلوهم يرَوا جوهرَ دين الإسلام وسماحتَه ويسره لا قشوره. ابتعدوا عن التزمّت والمغالاة وعن كل ما ينفّر الناس منكم. وتمثّلوا بوصية الرسول الكريم لعامليه إلى اليمن، معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، بقوله لهما: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، بشِّرا ولا تنفِّرا.»

لا أقول لكم، أو لأيّ منكم، أن تعقدوا ندوات تبشيريّة تدعونهم فيها إلى اعتناق الإسلام. ولكنّ المطلوب من كل فرد منكم، كبيرًا كان أم صغيرًا، أنثى أم ذكرًا،

[1] نشر هذا المقال في جريدة المستقبل في مونتريال – كندا العدد 728 تاريخ 2007/10/4.

أن يجعل من نفسه داعية في أخلاقه وسلوكه وصدق تعامله مع الآخرين واحترامه عاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم وقوانينهم، لا في استغلالها.

أفهموهم أن دين الإسلام ليس في تغطية شعر المرأة المسلمة. أفهموهم أنّ هذه عادة يتوارثها المسلمون منذ قديم الزمن، تعود إلى ما قبل بعثة النبيّ محمد ﷺ. فجميعنا يعلم أنّ أشكال وألوان وأنواع الثياب التي ارتداها الإنسان منذ القدم كانت دومًا ترتبط بطبيعة وجوّ الناحية من الأرض التي يعيش عليها. ولذا فإنّ العيش في الصحراء وتحت أشعّة الشمس الحارقة كان يفرض على سكان شبه الجزيرة العربية، منذ ما قبل ظهور الإسلام، أن يرتدوا ثيابًا تحميهم من حرارة وأضرار أشعة الشمس. فكان الرجال والنساء، على حد سواء، يرتدون الثوب الطويل الفضفاض، وغالبًا الأبيض أو ذا اللون الفاتح، والذي يغطي الجسد بكامله، وهو ما يسميه بعضهم اليوم، «الدشداشة»، بالإضافة إلى غطاء الرأس، بشكل لا يظهر من جسم الإنسان سوى الوجه واليدين، إلى المعصمين، والقدمين، إلى الكعبين، وكثيرًا ما كانوا يغطون الفم والأنف في اتقاء رمال العواصف في الصيف، أو البرد القارس في الشتاء. ولم يزل سكان المملكة العربية السعودية ودول الخليج يرتدون مثل هذا النوع من الثياب على أنها زيّهم التقليدي.

كما أن تغطية الرأس والجسد لم تكن تقتصر فقط على سكان تلك الصحراء بل كانت منتشرةً في جميع بلدان الشرق الأوسط، إن لم نقل في جميع أنحاء العالم. فلو زرنا مثلًا أيًا من المتاحف لرأينا أنّ الثياب التقليدية لمعظم شعوب العالم كانت تغطي كامل الجسد، ولكن، بالتأكيد، من دون الوجه واليدين. كما أننا إذا زرنا أيّ كنيسة لإخواننا المسيحيين فلن نجد فيها أيقونة واحدة تظهر فيها صورة السيدة مريم العذراء (ع) من دون غطاء الرأس، بل أكثر من ذلك فإننا نراها دومًا لا يظهر من جسمها سوى الوجه واليدين إلى المعصمين.

أما لماذا يتمسّك بعضهم بوجوب ارتداء المرأة المسلمة لما يُسمّى خطأً «حجابًا» والصواب أن نقول «خمارًا» أو «غطاء الشعر»؟ فأراه يعود لما فهموه من تفسيرهم للآية 59 من سورة الأحزاب التي تقول: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}، والآية 30 من سورة النور {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ}.

فلو عدنا إلى ما قاله المفسرون لوجدنا في تفسير ابن كثير للآية الأولى، مثلًا، قوله: «كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل

خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها، وقال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.»

والجلباب ثوب أكبر من الخمار ومنهم من قال هو الرداء. وفي لسان العرب: «الـجِلْباب: القَمِيصُ. والـجِلْباب: ثوب أَوسَعُ من الـخِمار، دون الرِّداءِ، تُغَطِّي به الـمرأَةُ رأْسَها وصَدْرَها؛ وقيل: هو ثوب واسع، دون الـمِلْـحَفةِ، تَلْبَسه الـمرأَةُ... والـمِلْـحفة عند العرب هي الـمُلاءة السِّمْط.» ومن نص هذه الآية نتحقّق أنّ الجلباب كان معروفًا قبل نزول هذه الآية، وبالتالي قبل الإسلام، لأنّه لو لم يكن معروفًا لما كان له اسم في اللغة العربية.

أمّا إذا عدنا إلى أسباب نزول هذه الآية، فيقول الواحدي: «أَخرج ابن سعد في الطبقات عن أَبي مالك قال: كان نساء النَّبي صلى الله عليه وسلم يخرجنَ باللَّيل لحاجتهنَّ، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهنَّ فيؤْذَيْنَ، فشكوا ذلك، فقيل ذلك للمنافقين فقالوا: إنَّما نفعله بالإماء، فنزلت هذه الآية: {يَا أَيُّها النَّبيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ المُؤْمِنينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ}. ثمَّ أخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي.»

أما الآية الثانية، أي (30 من سورة النور)، فيقول فيها محمد علي الصابوني، في كتابه «صفوة التفاسير»: «أي وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلّا يبدو شيء من النحر والصدر»، وهي بالتالي مشابهة في المعنى للآية الأولى.

ولكنّني أسال: لماذا أغفلوا ذلك الجزء من الآية الأولى الذي يقول: {ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ ...} والذي نفهم منه أنّ هذه الآية إنما نزلت لرفع الأذى عن المسلمات. وعليه فإذا كان في هذا، الذي يسمى اليوم «الحجاب الإسلامي»، أذىً أو حتى حرجٌ ولو لمسلمة واحدة فقط، فإنّي أرى أنّ خلعه ليس فقط مستحبًا بل واجبًا، فكيف إذا كان فيه أذىً للمسلمين كافةً؟ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أحلّ لنا، عند الضرورة، أكل المحرّمات أفلا يسمح لنا أن نتخلى عن عادة موروثة قد تتسبّب لنا بأي ضرر؟ فلو عدنا إلى الآيات التي عددت لنا ما يحرّم علينا أكله لوجدنا أنها جميعها تبيح أكل هذه المحرمات عند الضرورة. وهذه واحدة منها: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (البقرة 173). ومن هنا كانت القاعدة الشرعية: «بأن الضرورات تبيح المحظورات». ثم كم آية من آيات القرآن

الكريم تذكّرنا بأنّه تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر. ومنها: {... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...} (البقرة 185)، فلماذا نعسر نحن على أنفسنا؟

لا أقول لكم اكفروا بالله وبرسوله كي ترضُوا أهل الغرب. ولا أقول لكم أن تتخلوا عن واجباتكم الدينية. ولا أقول لأيّ من النساء، حتى غير المسلمات منهن، أن يرتدين الثياب غير المحتشمة. وأهل الغرب أيضًا لا يطلبون منكم أيًا من ذلك، بخاصة بما لديهم من الاحترام لحريّة المعتقد والقول والرأي والفكر واللبس... ولكن أرجوكم، يا إخوتي، ألا تُسيئوا إلى هذا الدين السمح بتصرفات وأفكار لا أساس لها في القرآن.

أرجوكم أن تتشبّهوا بأفعال نبيكم الكريم، لا بما كان يرتدي من لباس. أن تتشبهوا بأخلاقه لا بإطلاق اللحى. وفي القرآن الكريم آيات تدلكم على أخلاقه، أذكر منها: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ...} (آل عمران 159) و{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}. (القلم 4).

بيّنوا لأهل الغرب أنّ الإسلام بعيدٌ كل البعد عن القتل، عملًا بالآية الكريمة: {...وَلا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. (الأنعام 151)

بيّنوا لهم أنّ في القرآن آيات كثيرة تنهى عن العدوان، منها: {... وَلا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ}. (البقرة 190).

وأرجوكم يا أخوتي، لا تتسبّبوا بأذيّة المسلمين بتصرفات لا لزوم لها، وتذكّروا الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} (الأحزاب 58).

ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة: {... وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ}. (البقرة 195).

ولا تجعلوا إمامكم أيًا من أولئك الذين يأتون بتلك الأعمال المنسوبة زورًا إلى الإسلام، وليكن القرآن، وحده، إمامكم ودستوركم في الدين والدنيا. عودوا إليه فقط، فلا بد من أن تجدوا فيه ما يدلّكم على الطريق القويم. وتذكروا دومًا قوله تعالى: {وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (المؤمنون 62).

وتذكّروا أيضًا أنّ من تسبّب بأذيّة دين الله تعالى فقد تسبب بأذيته هو وبأذية رسوله ﷺ. ومن يفعل ذلك يكنْ نصيبه مما قاله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا} (الأحزاب 57).

اللهم إني قد بلغت، اللهم فاشهد وأنت خير شهيد.

كيف يعالج القرآن الكريم مشكلة الفقر[1]

يشكّل الفقر، منذ القدم، مشكلة اجتماعية مهمّة، بل ومن أهم مشاكل المجتمعات. فالفقر يتسبب في الكثير من الآفات التي تؤثر سلبًا في حياة المجتمع، قد تصل إلى تفكّكه أو انهياره، ومنها: الأمراض، سواء الجسدية أم النفسية، والأمية والجهل، وانتشار الجرائم بجميع أشكالها، والانحلال الخُلقي، والحقد والكراهية بين الطبقات؛ وصولًا إلى الاضطرابات والثورات.

وقبل أن نبحث في الطريقة التي يعالج بها القرآن الكريم مشكلة الفقر لا بد لنا من أن نبيّن أنّه جعل الفقراء ثلاثة وهم: الفقراء والمساكين والمتعففون؛ وهؤلاء ممن تجوز عليهم الصدقات.

وفي المعنى يقول ابن منظور[2]: «الفَقِير الذي له بُلْغَةٌ من العيش؛ والمسكين الذي لا شيء له... فالمسكين أَسوأُ حالًا من الفَقِير». فالفقير إذًا هو من يُعرِّفُه علم الاقتصاد الحديث بأنه الذي يعيش عند خط الفقر، والمسكين مَنْ عيشته تحت هذا الخط.

أما المتعفّفون فهم فقراء، ولكنهم يُخفون فقرهم من شدة التعفّف. وهم من ذكرتهم الآية: {لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا في ٱلأرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ إِلْحَافًا... *} (البقرة 273). وفي تفسير الجلالين لهذه الآية نقرأ: «{يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ} بحالهم {أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ} أي لتعففهم عن السؤال وتركه}».

ويضيف القرآن إليهم، نوعين آخرين من الذين تجوز عليهم الصدقة، وقد تكون حاجتهما طارئة، إذا صح التعبير، وهما: السائل، وهو الذي يطلب الصدقة، ومن المفترض أن يكون سؤاله لحاجة مؤقتة. وابن السبيل، وهو المنقطع في سفره، سواء كان فقيرًا أم غنيًا.

---

[1] كتبت هذا المقال في 2009/11/23، وهو مستخلصٌ من كتابي «الاقتصاد في القرآن».

[2]

أما كيف يعالج القرآن الكريم، مشكلة الفقر هذه؟ فهذا ما سنحاول بيانه، بإيجاز، فيما يلي:

أولًا: بالحض على العمل

يحض القرآنُ الإنسانَ، مهما كانت حالته المادية، على العملِ بطريقتين، مباشرة وغير مباشرة:

1 – **الطريقة المباشرة**: وهي في الدعوة إلى السعيِ للحصول على الرزق. والسعيُ لا يكون إلا في العمل، كما في قوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرة وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...*} (القصص 77) {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...*} (الكهف 46) {... فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ...*} (الجمعة 10) {... فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ... *} (العنكبوت 17).

2 – **الطريقة غير المباشرة**: ونراها في الأمور التالية:

- عدم تحديد سقف للملكية الفردية: الإنسان مجبولٌ بطبعه على حب المال والحصول عليه والرغبة في التملك كما في قوله: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا *} (الفجر 20). إن القرآن لا يضع لهذه الملكية حدودًا سوى مشيئة الله تعالى في توزيع الرزق، {... وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} (البقرة 212). وكما جعل الله الناس درجات {... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ...} (الزخرف 32)، كذلك فقد فضل بعضهم على بعض في الرزق {... وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ...} (النحل 71).

قد يقول بعضهم بما أنّ الله يوزع الرزق بمشيئته هو، بمعنى أن كل إنسان له قدر معين من الرزق حدّده له الباري سلفًا، منهم من يبسط له الرزق بغير حساب ومنهم من يضيّق عليه، فلماذا إذًا علينا بذل الجهد والجد والسعي للحصول على المزيد من هذا الرزق؟ والجواب على هذا القول نجده في قوله تعالى: {كُلًّا نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا *} (الإسراء 20).

وكما أنّه تعالى لم يحجب الهداية عمن طلبها صادقًا مؤمنًا، كذلك لم يقفل عليه باب الرزق، بل على العكس فهو يحضُّ على ابتغاء الرزق حيث يقول: {...وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} (القصص 73). و{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا...} (إبراهيم 34). و{ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ

مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} (الأنفال 53). {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ...} (الأنعام 132).

ثمّ مَن بسيمهم بني الإنسان له اطلاع على مشيئته تعالى، كي يعرف ماذا أو كم قسم له من الرزق أو حتى متى سيصل إليه ما قسم له؟ هذا ما يجعلني أرى أنّ قوله تعالى: {...اللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ *} هو حافزٌ على العمل لا على الكسل.

- **منع الربا والميسرَ (المقامرة) وأكلَ السحتِ[1] والمالِ الحرام:** هذا المنع يجعل الإنسان يسعى إلى تحصيل الرزق عن طريق العمل المنتج وبما أحله الله من زراعة وتجارة وصناعة...إلخ.

- **المكاتبة:** وهي في تعهد المملوك لسيده بدفع مالٍ متفقٍ عليه مسبقًا وفي مدة محددة، يصبح بعدها هذا المملوك حرًا، {... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...} (النور 33). وهل في الدنيا أهم من الحرية يسعى الإنسان إلى التمتع بها؟ وفي هذا أيضًا تشجيع للعبد على العمل ليكسب المال الذي يمكِّنه من استرداد حريته. وبعد أن ينال غايته هذه يصبح متوجبًا عليه العمل لكسب معيشته ومن ثم معيشة أفراد أسرته.

ثانيًا: إيجاد فرص العمل: إن القرآن في منعه الربا وكنز الأموال، يدفع بأصحاب هذه الأموال لاستثمارها في أعمال منتجة، مما يؤدي إلى إيجاد فرصٍ جديدة للعمل. هذا بالإضافة إلى انتقال صاحب هذا المال، ليس فقط، من شخصٍ عاطلٍ عن العمل، بل أيضًا من عَلَقةٍ تمتصُّ دم غيرها لتعيش، إلى إنسان عاملٍ منتجٍ بشخصه.

ثالثًا: في توزيع الثروة: الإنسان بصفته خليفة في الأرض، {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} (يونس 14)، فهو بالتالي مستثمر لخيرات هذه الأرض. وعلى هذا المستثمر واجبات، نراها شبيهة ببدلات الاستثمار وهي: الزكاة، والصدقات والإنفاق في سبيل الله على ذوي القربى

---

[1] في لسان العرب: (*السحت: الحرام الذي لا يحل كسبه لأنه يسحت البركة أي يذهبها*). وبالتالي هو كل ما قد يحصل عليه الشخص من غير وجه حق، كالرشوة والخوة والمتاجرة بما هو حرام وما شابه ذلك.

واليتامى والفقراء والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب والوالدين، في كبرهما، والجار... وبالتالي على كل محتاج. ويضاف إلى ما سبق: الخمس[1]، وأموال الكفارة[2]،... وكلها أمور من شأنها توزيع أجزاء من الثروة الفردية على المحتاجين من أفراد المجتمع. ولا ننسى أن الله تعالى عندما قسم أموال الفيء[3]، في الآية (7) من سورة الحشر أتبعه بقوله: {... كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...}، أي كي لا تنحصر الأموال بين أيدي الأغنياء. وفي هذا أنّ القرآن يوصي بعدم استئثار القلّة في المجتمع بمعظم أموال الثروة الوطنية.

وهناك عامل آخر يساهم في توزيع الثروة ألا وهو نظام الوِرث[4]، الذي يوزع ثروة المورّث بين ورثته فتنتقل أموالها من يد واحدة إلى أيدٍ متعددة.

رابعًا: التكافل الاجتماعي: ويكون في أمرين: أولهما على صعيد الأفراد، بما أمر به القرآن بالتكافل بين الأقرباء وبالإنفاق في سبيل الله {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ...} (البقرة 215)، {... وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ...} (الأنفال 75). وثانيهما في دور أولي الأمر، أي الدولة، في توزيع أموال الزكاة والخمس والفيء.

خامسًا: القرآن يقضي على الرقّ: وهذا ما نراه نتيجة للمكاتبة وللكفارة:

- **المكاتبة**: لو أعدنا قراءة قوله تعالى: {... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ... *} (النور 33)، ثم دققنا في صيغته اللغوية في قوله: {والذين يبتغون الكتاب... فكاتبوهم} ألا ترى معي، أيها القارئ الكريم، أن في هذه الصيغة أمرًا من الله تعالى إلى المالك بمكاتبة مملوكه الذي يرغب فيها؟ وفيها أمر آخر بقوله: {وآتوهم من مال

---

[1] الخُمس: هو تأدية خمس المغانم إلى أولي الأمر من بعد النبي ﷺ. وقد اختلف فقهاء المذاهب في المقصود بالغنيمة. فبينما يقول فقهاء السنة: إنها كل شيء غُنم في الحروب مع المشركين، يقول فقهاء الشيعة بل هو كل ربح حصل عليه المسلم من سعي. وقد فرضته الآية التالية: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأنفال 41). ويقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ} الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعيٍ.

[2] والكفارة هي ما يشبه الغرامة المالية في أيامنا هذه، وتفرض على كل من أخطأ أو قصّر في واجب ديني، أو قام بعمل محرم...

[3] والفَيْء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب.

[4] إن الشائع هو في قولك: نظام الإرث. ولكن الفيروز بادي يقول: الوِرْث والميراث في المال، والإرْث في الحسَب.

الله الذي آتاكم}، فهو يأمر أيضًا بمساعدتهم ماليًا. وإذا قلنا بأنّ هذه المكاتبة مشروطة بمعرفة الخير في هذا المملوك، فهذا طبيعيٌ لأن حرية العبد غير القادر على كسب عيشه، أو غير الصالح قد يكون فيها أذيّة للمجتمع، بخاصة إن كان في قلب هذا العبد حقد على سادته، فقد يتحول عندها إلى الإجرام انتقامًا من هؤلاء السادة. وقد جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية ما يتطابق مع رأينا، عندما يقول: «هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه».

- **الكفارة**: كثيرًا ما يفرض القرآن، في الكفارة، تحرير رقبة، سواء للتكفير عن تقصير في تأدية فريضة، كما في أحكام الصيام مثلًا، أم عن عمل قمنا به من الأعمال المحرمة، كالقتل، أو في كفارة اليمين...إلخ. وهذا ما أرى فيه أيضًا وسيلة للقضاء على الرق ولو على مراحل. وكما نعلم، فكل تغيير مهمّ في النظم الاجتماعية والاقتصادية تكون نتيجته أفضل إذا كان مرحليًا من أن يحصل على دفعة واحدة.

وقبل الختام إليكم هذه الرواية عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: «حدّث يحيى بن سعد، قال: «بعثني عمر على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرًا، ولم نجد من يأخذها قد أغنى عمر الناس»[1]. ونشير إلى أن مدة خلافة عمر بن عبد العزيز كانت سنتين وخمسة أشهر فقط (99 – 101 هـ). وعلى الرغم من قصر ولايته استطاع أن يقضي على الفقر. حبذا لو رأينا، في العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة، مسؤولًا واحدًا، يتشبه بهذا الخليفة، الذي يُعدُّ بحق خامس الخلفاء الراشدين. وليذكروا قول الشاعر: «إن التشبه بالكرام فلاح».

وفي النهاية نقول إن ما ينطبق على الإنسان الفرد في توزيع الثروة وفي التكافل الاجتماعي، ينطبق أيضًا على الأمم والدول. فلو أنفقت الدول الغنية من فائض أموالها على الدول الفقيرة لأمكن أن تتوصل الإنسانية إلى القضاء على ظاهرة الفقر وما ينتج عنها من سلبيات.

ونختم بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *} (الحجرات 13).

---

[1] (راجع ص 53 من كتاب عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء – للدكتور محمد علي ضناوي الطبعة الثالثة 1425 هـ = 2004 م طرابلس- لبنان.)

بدعةُ الطعامِ «الحلال[1]»

منذ قدومنا إلى كندا، قبل ما يزيد عن العقدين من الزمن، لفتت نظري عبارة «لحمٌ حلالٌ»، على واجهات المحلات التجارية التي تبيع المواد الغذائية من الجاليات العربية والإسلامية، وكذلك على عبوات منتجات اللحوم. هذه العبارة لم أرَهَا من قبلُ في لبنان أو في غيره من البلدان العربية التي سبق لي أن زرتها. في البدء لم أُعِر الأمر كثيرًا من الاهتمام فكندا دولة تضمن الحرية لمواطنيها سواء في طرق معيشتهم أم في معتقداتهم وآرائهم.

ثم تطور مفهوم هذا «الحلال» ليشمل الألبان ومشتقاتها، فكم من مرة سمعنا من إذاعة «الشرق الأوسط»، (هذه الإذاعة التي أعادت وصلنا مع الوطن الأم)، إعلانًا تجاريًا يفيد أن أحد المحلات التجارية الكبرى يبيع «اللبن الحلال». ثم إن أحد الأصدقاء سألني مرة قائلا: هل هناك حقًا تمرٌ حلالٌ وتمرٌ حرام؟ كل هذا جعلني أبدِّل نظرتي في الأمر من أنه من قبيل الحرية، إلى أنه ينطلق من استغلالٍ لتعاليم الدين الإسلامي، ولعواطف المسلمين في سبيل مصالح مادية صِرف.

فيا إخواني: إن سكان كندا في غالبيتهم العظمى يتبعون الدين المسيحي. والمسيحيون واليهود، من أهل الكتاب الذين قالت فيهم الآية الكريمة: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ} (المائدة 5). فإذا كان الله تعالى أحلّ للمسلمين أن يأكلوا من طعام المسيحيين واليهود، فلماذا نحرّمه نحن؟ وهذا ما قد نهى عنه، سبحانه، إذ قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ} (المائدة 87).

كما أنه، تعالى، وصفه بالافتراء عليه إذ قال: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلًا قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ} (يونس 59). كما قال فيه أيضًا: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (النحل 116).

ثم يا إخواني، وبخاصة الذين يدّعون بعدم شرعية طريقة الذبح، هل فكر أحدكم في التعرف عليها في المسالخ الكندية قبل أن يتهمها بأنها لا تتوافق مع الشرع الإسلامي؟ لقد أخبرني صديقٌ، أعرف جيدًا أنه مسلمٌ مؤمنٌ وذو اطلاع واسعٍ على تعاليم الدين الحنيف، وقد مضى على قدومه إلى كندا نحوُ عقدٍ من

[1] كتبت هذا المقال في 2012/7/28، ونشرته على الفيسبوك.

الزمن، قال: «عند قدومي إلى كندا كان راسخًا في ذهني أنهم، في المسالخ الكندية، يقتلون الحيوان بالضرب على رأسه ثم يذبحونه، وهذا مخالف للشرع. ولكن بعدما قمت بالتقصّي، تبين لي خطأ هذا الاعتقاد. فهم يعطون الحيوان حقنة مخدرة كي لا يشعر بالألم ثم يذبحونه فتسيل دماؤه، كما تتطلبه الشريعة الإسلامية، كما أنّ هذه الجرعة من المخدر فيها من الرحمة سموٌ إنسانيٌ فائق الأهمية، ما جعلني أتخلّى عن التمسّك في أن أشتري فقط ذاك اللحم الذي يصفونه «بالحلال»، فكل ما عليّ هو أن أذكر اسم الله عليه فيطمئن بذلك قلبي».

فلماذا نعقّد شؤون معيشتنا في البحث عن أمورٍ لم يحملنا خالقُنا ﷻ مسؤوليتها؟ ولماذا قال لنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} (المائدة 101)؟

ثم أسأل الذين يشترون اللحم المعلّب: هل فكر أحدكم زيارة المعمل الذي أنتجها، للتأكد مما إن كان «حلالا» أم لا؟ أم هل سألتم عن معتقدات إصحابه، إن كانوا «مؤمنين أم كُفارًا»، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ} (النساء 25)؟

فما دمنا نذكر اسم الله قبل البدء بأي عمل نقوم به، بما فيه تناول الطعام، فلا جُناح علينا بإذنه تعالى.

ولنقرأ معًا هاتين الآيتين: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة 93).

{وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (الأنعام 119).

فيا إخواني أرجوكم أن {لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا} (المائدة 77).

ولنكفّ جميعًا عن تحميل، سواء هذا الدين الحنيف أم غيرنا من المسلمين، وزر أولئك المستغلين أو الجاهلين لتعاليمه السمحة، واذكروا دومًا قوله تعالى: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (البقرة 185). و {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} (الحج 78).

ولنجعل الآخرين يقرأون تعاليم ديننا في أخلاقنا وسلوكنا وتعاملنا.

في تحريم معايدة الأقباط في عيد الفصح[1]

بالأمس سمعت من إحدى محطات التلفزة اللبنانية أن أحد «مشايخ» الإخوان المسلمين في مصر أصدر فتوًى يحرّم فيها على المسلمين تهنئة الأقباط في عيد الفصح. وهذه للأسف ليست المرة الأولى فقد سبقه بعضهم إلى ذلك.

وسأكتفي بأن أسأل هذا «الشيخ» ومن سبقه ممن يرى رأيه من «المشايخ» عمّا يلي:

ألم تقرأوا أن الله تعالى يمنع التحريم والتحليل جزافًا؟؟

{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (النحل 116).

أولم تقرأوا أيضًا أنه تعالى يمنع جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن؟؟؟

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت 46).

وهل تكون «التي هي أحسن» في مثل ما تدعون إليه من مقاطعة إخوانكم في الوطن الذين تعيشون وإياهم منذ قرون عديدة**!!!؟؟؟**

وماذا تفهمون من قوله تعالى: {لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة 8). وفي لسان العرب: «الله يَبَرُّ عبادَه: يَرحَمُهم، وهو البَرُّ. وبَرَرْتُه بِرًّا: وَصَلْتُه.»؟؟

ثم إذا كان تعالى قد أمر النبي ﷺ بألا يكره الناس على الإيمان فكيف يجوز لأي كائن من مخلوقاته أن يفعل ذلك: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس 99)؟؟؟

[1] كتبت هذا المقال في 2013/4/30.

فباسمي ونيابة عن الملايين من المسلمين، أرجوكم يا سادة يا كرام أن تكونوا دعاة خير ومحبة وأن تكونوا قدوة في أخلاقكم وسلوككم وتعاملكم. ولا تنسوا أن «الدين المعاملة».

حدُّ الرجم في الإسلام[1]

لقد طلعت علينا الأخبار في الآونة الأخيرة، بأنّ تنظيم «دولة الإسلام في العراق والشام»، المعروف ب«داعش»، وأمثالَه يطبقون «حدّ القتل بالرجم» بحق نساءٍ اتهموهنّ بالزنى. وعلى رغم قناعتي وتأكدي من خلو القرآن الكريم من أيّةِ آيةٍ تفرض ذاك الحدّ، فقد أعدت البحث في آياته ليطمئنَّ قلبي.

ولكنَّ البحث في الكتب الأخرى، أوصلني إلى أن هذا الحدَّ قد قال به كثيرٌ من فقهاء السنة مستندين إلى آيةٍ زعموا أنها نزلت على النبي ﷺ وأن الله تعالى نسخها تلاوةً وأبقى حُكمها. ومنهم من حدد أنها كانت ضمن سورة الأحزاب. وقد نسبوا ذلك إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). ويضيفون أنّه تعالى نسخها تخفيفًا. أما نصّها فقد ورد في كتب الأحاديث التي اطلعت عليها بالصيغ التالية:

«الشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيزٌ حكيم».

«إذا زنى «الشيخُ والشيخةُ فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيزٌ حكيم».

«الشيخُ والشيخةُ فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة».

«إنَّ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة».

وفي لسان العرب لابن منظور: «الشيْخُ: الذي استبانتْ فيه السنُّ وظهر عليه الشيبُ؛ وقيل: هو شَيْخٌ من خمسين إلى آخره؛ وقيل: هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره؛ وقيل: هو من الخمسين إلى الثمانين... والأُنثى شَيْخَة.»

«والبَتَّةُ: اشتقاقُها من القَطْع، غير أَنه يُستعمل في كل أَمْرٍ يَمضي لا رَجْعَةَ فيه، ولا الْتِواءَ.»

هنا أسأل أصحاب السماحة المُفتين والعلماء والمرجعيات الدينية، في الأقطار الإسلامية جمعاء، عمّا يلي:

إذا كانت الصيغ الأربع لهذه «الآية» قد خصَّت فقط، «الشيخ والشيخة»، ألا يعني هذا أن حدّ الرجم لا يطبّقُ على من هم دون الخمسين؟ فلماذا عمّمه أصحاب هذا الرأي؟ فهل هم أعدل من الله عزَّ وجلَّ!؟

---

[1] كتبت هذا المقال في 2014/11/2 تعليقًا على عمليات رجم نساء، بتهمة الزنى، قام بها تنظيم «داعش». وقد تناولت هذا الموضوع جزئيا في أحد حواراتي على أثير راديو كندا الدولي.

ما داموا يقولون بأنّ تلك «الآية» نسخها الله تخفيفًا في العقاب، فلماذا يخالفون هم إرادته؟ فلو أراد إبقاء حُكمها، كما يقولون، فلماذا ينسخها تلاوة؟ وهل يُنكرُ مؤمنٌ أن الله حُرٌّ في أن يفعل ما يشاء في عباده؟ وهو القائل أيضًا: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ*} (الرعد 39)؟

هل هناك عقوبةٌ أشدُّ تعذيبًا ووحشيّة من القتل رجمًا؟ وهل يعقل، بالتالي، أن يرضى تعالى بمثل هذا التعذيب، وهو الرحمن الرحيم؟ الذي {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} (الأنعام 12)، {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} (الكهف 58)؟ ثم إذا كان الرسول ﷺ، قد أمر بعدم تعذيب الحيوان، الذي أحله الله، عند ذبحه، فهل يُعقلُ أن يرضى بتعذيب إنسانٍ وهو الذي بعثه ربه رحمة للناس؟

ثم، أيُّ الخطيئتين أكبر عند الله، الزنى أم القتل؟ وهو القائل: {مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة 32)؟ فالزنى ممكن إصلاحه، فهل من الممكن إحياء المقتول، إذا ثبت فيما بعد أنه بريء؟

هل يقبل أيُّ مؤمنٍ، سواء كان عالمًا أم لا، أن يقال بأنّ الله تعالى يناقضُ نفسه بنفسهِ؟ إذ لو سلّمنا جدلًا أنّه أبقى على حكم تلك «الآية» بالرجم، فما معنى إذًا وجود الآية (2) من سورة النور التي تقول: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ*}؟ ولا ننسى أن هذه الآية جاءت ثانيةً بعد أول آيات سورة النور القائلة: {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ*}. ألا يؤكد هذا أن الجلد، لا الرجم، هو عقوبة الزنى؟ ونذكّر هنا بأن إثبات واقعة الزنى، حسب القرآن الكريم، أصعب وأعقد من إثبات أيّ واقعة أخرى، وغالبًا ما يكون مستحيلًا.

وما معنى أن يقول تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا*} (البقرة 106)؟ فأيهما خيرٌ من الآخر، الرجم أم الجلد؟

وإذا كان تعالى قد قال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ*} (الحجر 9)، و{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* إِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ*} (القيامة 17-19)، فكيف يسمح، من يعتبر نفسه مؤمنًا وفقيهًا وعالمًا أو كائنًا ما كان موقعه، أن يضيف على كلامه تعالى، لا أيةً واحدة، بل كلمةً واحدة؟ وهو القائل: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللهِ} (البقرة 79)؟

ثم ما معنى أن تُروى آية واحدة بعدّة صيغ، كما حصل لكثير من الأحاديث؟ فهل كانوا ينوون نسبتها إلى الرسول ﷺ، ثم بدلوا رأيهم لأنّ حكم الآية لا يُشكُّ به كما يحصل للأحاديث، وبخاصة إذا تعارض الحديث مع نصّ قرآنيّ؟

وإذ آمل أن أقرأ جوابًا، على أسئلتي هذه، معلّلًا ومقنعًا ومستندًا إلى نصوص القرآن الكريم وحده من دون غيره، أتمنى أن نعود جميعًا إلى إسلام القرآن وحده، لا إسلام الفقهاء أو المذاهب.

رسالة إلى أبي بكر البغدادي[1]

بأي تحية أحيّيك يا أبا بكر؟ أبتحيّة الإسلام؟ وتحية الإسلام «السلام»؟ فأين السلام والإسلام مما ترتكبون أنت وأتباعك وأمثالكم؟

هل يكون السلام في قتل وذبح وتشريد الأبرياء؟ وقد قال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ} (الإسراء 33)، كما قال: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ} (البقرة 84)، و{ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} (البقرة 85)؟

أم هو في تهديم المنازل والمساجد والكنائس؟ وقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} (البقرة 114)، و{وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} (الحج 40)؟

أم أنّ الإسلام في تكفير المسلمين وغير المسلمين؟ ألم يأمرنا تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (النساء 94)؟ وها هو يخاطب رسوله الكريم: {وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (لقمان 23)، و{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (الأنعام 117)، كما يقول: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} (يونس 40).

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما، لأنه إما أن يَصْدُقَ عليه أو يَكْذِبَ، فإن صدق فهو كافر، وإن كذب عاد الكفر إليه بتكفيره أخاه المسلم.»

ثمّ أين أنتم من قوله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس 99). و{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد 13 كانون الثاني2015. كما كان موضوع حوار مع الإعلامي الأستاذ فادي هاروني على أثير راديو كندا الدولي في 2015/1/27.

http://alhayat.com/Opinion/Letters/6810322/%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%A3%D8%A8%D9%8A-%D8%A8%D9%83%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%BA%D8%AF%D8%A7%D8%AF%D9%8A

هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج 17)؟

وهو الذي أمر نبيه الكريم قائلًا: {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} (النساء 63)، و{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} (الرعد 40)؟

وهل يكون الإسلام في إكراه النساء على البِغاء تحت اسم «جهاد النكاح»؟ وكم امرأة قتلتم من اللواتي رفضن بدعتكم هذه التي غلّفتم بها إشباع غريزتكم الحيوانية وألبستم بها الزنى لباسًا دينيًا؟ وقد قال تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (النور 33)؟

أم الإسلام في رجم امرأة حتى الموت اتهمتموها بالزنى من دون إثبات كما أمر تعالى: {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ} (النساء 15). و{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور 4)؟ وهل هناك قتلٌ أشد وحشية وتعذيبًا من القتل رجمًا؟ والأفظع أيضًا أن تنفذّوه باسم الله الرحمن الرحيم، الذي {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} (الأنعام 12)، {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} (الكهف 58). فأين الرحمة في هذا القتل؟

ثم أين هو الزاني؟ فهل يُعقل أن تتم واقعة الزنى من دون زانٍ؟

وأنّى لكم تطبيق عقوبة الرجم التي ابتدعها بعضهم خلافًا لما قاله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ} (النور 2)؟

أم أنّ الإسلام في سبي النساء وبيعهن رقيقًا؟ ألم تفقهوا بأن الإسلام قضى على الرّقِّ؟ فكم من الذنوب كفارته تحريرُ رقبة؟ فهل مهمتكم الآن إعادتنا إلى عهود الظلم والظلام؟ ثمَّ ألم تقرأوا ما قاله عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»

لقد أطلقت على نفسك اسم «أبو بكر» تشبهًا بأول الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم)، فبالله عليك بماذا تشبهت به؟ أبإعفاء اللحية وارتداء الجلباب؟ فأين أنت من أبي بكر الذي أوصى أسامة بن زيد، أمير أول جيش للفتح بعد وفاة الرسول ﷺ قائلًا: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة

ولا تقعروا[1] نخلا ولا تحرقوه ولا تذبحوا شاةً ولا بعيرًا إلاّ لمأكلة. وإنكم ستمرّون على أقوام فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له. قاتلوا من يقاتلكم وسالموا يسالمكم.»؟

وتدَّعون بأنّكم تقيمون دولة الإسلام فأيّ إسلام هذا؟ الإسلام يا أبا بكر دين الرحمة. {وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} (النمل 77)، فأين الرحمة في ذبح الأبرياء ذبح النعاج؟ وأين الرحمة في القتل رجمًا؟

فيا أبا بكر إن كنتَ حقًّا مسلمًا وغير مدفوعٍ ممن يضمرون الشرّ للإسلام والمسلمين، فعُدْ أنت ومن معك إلى تعاليم دينكم الحنيف كما جاءت في القرآن الكريم وحده. {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت 51).

[1] قَعَر النخلَةَ: قَطَعَها من أَصلها.

هل تستحق صورٌ كاريكاتورية كلّ ما يحصل؟[1]

في السابع من هذا الشهر (كانون الثاني - يناير 2015)، قام شابّان بإطلاق النار على صَحفيّي مجلة «شارلي إيبدو» في باريس، فقتلا اثني عشر إنسانًا، وهذا مؤسفٌ جدًّا. قيل إنّهما جزائريان مسلمان متطرفان غايتهما الانتقام من تلك المجلة التي أساءت إلى النبيّ ﷺ برسومها الكاريكاتورية. هذه المجلّة التي تدّعي بأنّ حريّة التعبير في فرنسا تعطيها الحقَّ بنشر ما تريد.

الحريّة بكل معانيها مقدسة، ولكن هل في الكون حريّة مطلقة؟ بالتأكيد: لا، فلكلٍّ منها حدودٌ إذا تخطّاها صاحبها أصبح معتديًا. وهذا هو قداسة البابا فرنسيس يقول: «حرية التعبير لا تعني إهانة معتقدات الآخرين».

لست هنا في معرض الدفاع عن ذينك الشابين، فإذا كانت المجلّة قد تخطّت حدود حرية التعبير، فالقلم لا يجوز أن يُحارب بالسيف والقتل، ويبقى القتلُ جريمةً مهما كانت دوافعه، وقد قال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} (الأنعام 151)، و{مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة 32). وإذا كان هذان الشابّان مسلمين حقًّا فقد ارتكبا بفعلتهما هذه، ليس فقط جريمة قتل 12 نفسًا، بل ارتكبا ايضًا ذنبًا من كبائر الذنوب، إذْ تسببا بأذية الله تعالى ورسوله ﷺ ومليار وخمسمائة ألف مسلمٍ، وهذا ممّا ينهى عنه القرآن الكريم، وإذا كانا يعتقدان أنهما بما فعلا يبتغيان رضوان الله، فقد قال تعالى في ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا* وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} (الأحزاب 57-58).

فيا إخواني المسلمين إنَّ ما فعله هذان، ويفعله أمثالهما، من المتشدقين بأنّهم حماةُ الإسلام والرسول ﷺ، فالإسلام ونبيّه ليسا بحاجة لهم لأنَّ لهما ربًّا يحميهما. ولا تنتجُ أعمالُهم سوى تشويه صورة الإسلام من دين السماحة الى دين الإرهاب،

[1] كتبت هذا المقال في 2015/1/18 تعليقا على ردات الفعل التي تحصل كلما نشر أحدهم صورًا كاريكاتورية عن النبي ﷺ، وكان آخرها حادثة مجلة شارلي إيبدو في 2015/1/7.

وصورة النبيّ محمد ﷺ من نبيِّ الرحمة الى آمر بالتقتيل، وصورة المسلمين جميعًا من مؤمنين الى مجرمين، فهل منكم من يرضى بهذا؟

أمّا ما يقوم به بعض الموتورين من أصحاب الغايات والأهواء، فليس علينا حسابُهم. والعاقل لا يهتمُّ لما يقوله أو يفعله السفهاء. فعودوا دومًا إلى قوله تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} (النساء 140).

ولا تكونوا أنتم عونًا لأعداء الإسلام بمساعدتهم في نشر تفاهاتهم وتجنّيهم عليكم وعلى دينكم وعلى نبيّكم ﷺ. وهذه وصية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في مثل هذا إذ قال: «أميتوا الباطلَ بالسكوتِ عنه ولا تثرثروا فيه فينتبه الشامتون».

ثم يا إخواني هل وصل اليكم شيءٌ من تلك القصائد التي كان كفَّار قريش يذمُّون أو يهاجون بها النبيَّ ﷺ وأصحابه؟ لقد أهملها المسلمون ولم يعيروها أي اهتمام حتّى اندثرت، فتشبهوا أنتم بهم.

أين كفر المسيحيّون؟[1]

نشر يومًا، أحد أصدقائي على صفحته في الفيس بوك شريطًا مصورًا لجُزء من حديثٍ أجراه الإعلامي طوني خليفة مع شخصٍ، لم يرد اسمه في الحوار، كما أن صديقي لم يرفق النشر بأي تعليق. وبعدما استمعت إلى هذا الحوار أدركت أن سمو أخلاق صديقي، المسيحيّ الديانة، منعه من التعليق، على الرغم مما ورد على لسان هذا المحاور، «العالم»، تجاه إخواني المسيحيين.

وعلى الرغم من أن الإعلامي مسيحيُّ الديانة، فلم يتوانَ محاوره عن تكرار نعته المسيحيين واليهود بالكفار، وأنّهم جميعًا لن يدخلوا الجنة، مستندًا إلى قوله تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ}. ولثقته بنفسه ادّعى أنّه يتكلم باسم المسلمين جميعًا من دون استثناء، بمن فيهم علماء الأزهر. كذلك اتّهم المسيحيين، بمن فيهم بطريرك الإسكندرية، بأنهم يقولون: إن المسلمين جميعًا لن يدخلوا الجنة. وما زاده تعنتًا في كلامه هو قلّة اطلاع الإعلامي المحاور على القرآن الكريم. ولذا رأيت من واجبي أن أردَّ على هذا «العالم» ومن قال قوله، بما يلي:

أولًا: أنا واحد من مئات ملايين المسلمين الذين لم يفوضوا إليك الكلام باسمهم.

ثانيًا: كنتَ تحاور إعلاميًّا مسيحيًا وتعلم أن حديثك سيسمعه كثيرٌ من المسيحيين ونسيت أو تناسيت قوله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *} (النحل 125)، وبالتالي هل كان كلامك، مع أخيك في الإنسانية، مطابقًا لما أمرنا به تعالى في هذه الآية؟ كما أنك خالفت أمره تعالى في قوله: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...} (العنكبوت 46).

ثالثًا: لقد كررتَ عدّة مرات قوله تعالى: {لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ}، ولم تفقه أنه تعالى قصد فئة معينة لا جميع المسيحيين لأنه لو أراد ذلك

[1] نشر هذا المقال على الفيس بوك في 2015/3/8. وفي جريدة الرسالة الكندية العدد 406 تاريخ 2017/12/15.

لقال: لقد كفر النصارى أجمعون. أم أنك تعتقد أنه يخاف عباده الذين خلقهم؟ ولعلمك أيها «العالم»، سأكتفي بأن أورد لك ما قاله الألوسي، عن التثليث، في تفسيره للآية (171) من سورة النساء:

«أن النصارى اتفقوا على أن الله تعالى جوهر بمعنى قائم بنفسه غير متحيز ولا مختص بجهة ولا مقدر بقدر ولا يقبل الحوادث بذاته ولا يتصور عليه الحدوث والعدم، وأنه واحد بالجوهرية، ثلاثة بالأقنومية، والأقانيم صفات للجوهر القديم، وهي الوجود والعلم والحياة، وعبروا عن الوجود بالأب والحياة بروح القدس والعلم بالكلمة. ثم اختلفوا فذهب الملكانية[1] أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها إلى أن الأقانيم غير الجوهر القديم، وأن كل واحد منها إله، وصرحوا بإثبات التثليث، وقالوا: أن الله ثالث ثلاثة سبحانه وتعالى عما يشركون، وأن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته وامتزجت به امتزاج الماء بالخمر وانقلبت الكثرة وحدة وأن المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي، وأن مريم ولدت إلهًا أزليًا مع اختلافهم في مريم أنها إنسان كلي أو جزئي، واتفقوا على أن اتحاد اللاهوت بالمسيح دون مريم، وأن القتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معًا، وأطلقوا لفظ الأب على الله تعالى، والابن على عيسى عليه السلام.

ومن النسطورية من قال: أن كل واحد من الأقانيم الثلاثة حي ناطق موجود، وصرحوا بالتثليث كالملكانية، ومنهم من منع ذلك، ومنهم من أثبت صفات أخر كالقدرة والإرادة ونحوها لكن لم يجعلوها أقانيم، وزعموا أن الابن لم يزل متولدًا من الأب وإنما تجسده وتوحده بجسد المسيح حين ولد، والحدوث راجع إلى الناسوت، فالمسيح إله تام وإنسان تام، وهما قديم وحادث، والاتحاد غير مبطل لقدم القديم ولا لحدوث الحادث، وقالوا: إن الصلب ورد على الناسوت دون اللاهوت.

وذهب بعض اليعقوبية إلى أن الكلمة انقلبت لحمًا ودمًا فصار الإله هو المسيح، وقالوا: إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم، ورووا عن يوحنا الإنجيلي أنه قال في صدر «إنجيله»: إن الكلمة صارت جسدًا وحلت فينا، وقال: في البدء كانت الكلمة والكلمة عند الله والله تعالى هو الكلمة...»

وبالتالي يكون الملكانيّة (أصحاب ملكا، وهم ليسوا طائفة الملكيين)، والنسطوريون وبعض اليعاقبة، هم المقصودون بالآية التي ردّدتَها أنتَ مرارًا لا النصارى كافة. وهذه الفرق على ما أعتقد، لم يبقَ لها وجود.

[1] وهم ليسوا الروم الملكيّين.

ويقول أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام (ص 125): «فتح المسلمون البلاد وهي مملوءة بالنصارى في مصر وبلاد المغرب والأندلس والشام، وكانت النصرانية عند الفتح منقسمة إلى جملة طوائف، أشهرها في الشرق ثلاثة: اليعاقبة. وكانت منتشرة في مصر والنوبة والحبشة. والنساطرة: وكانت منتشرة في الموصل والعراق وفارس. والملكانية. وكانت منتشرة في بلاد المغرب وصقلية والأندلس والشام».

ويبدو أنك لم تقرأ قوله تعالى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ...} (المائدة 47) فهل ينزل الله في كتابٍ للكُفَّار؟

رابعًا: يقول تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون*}. (البقرة 62). فهل لك أنت الأمرُ بدخول أيّ إنسانٍ إلى الجنة أم هو لله تعالى؟

خامسًا: هل قرأتَ يومًا هذه الآية: {وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} (الأنعام 107)؟ فإن كنت لم تقرأها أو كنت قرأتها ولم تفهمها، فاعلم أيها «العالم» أنها موجهة إلى النبي محمد ﷺ الذي بلّغنا تعاليم الإسلام. ثم ألم يقل تعالى لرسوله الكريم: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس 99)؟

سادسًا: وها هو تعالى يؤكد لك ولأمثالك بأنّه هو الوحيد صاحب الحق في محاسبة الناس أجمعين إذ يقول: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ*} (الحج 17)

سابعًا: أرجو أن تقرأ هذه الآيات (وشبيهاتُها كثيرات):

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (الأنعام 117)

{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة 256)

{وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} (يونس 40)

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص 56)

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القلم 68)
{وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (لقمان 23).

ثامنًا: يوم فتح المسلمون بلادنا هذه كان سكانها على الديانة المسيحية، ولم يقم أيٌّ من القادة المسلمين على إكراه أيٍّ منهم على التحول إلى الإسلام. ومنذ أربعة عشر قرنًا ونحن نعيش وإياهم بسلامٍ ووئام. ولعلمك أيضًا أيها «العالم» لقد بقيت الغالبية العظمى من سكان مصر على المسيحية ثمانمائة سنة بعد دخول المسلمين إليها.

وختامًا، أقول لك: الإسلام الصحيح هو ما جاء به القرآن الكريم لا ما قاله ابن تيمية وابن حزم وغيرهما. وكفاكم استهتارًا بهذا الدين.
أمّا إن كان يزعجك وجود المسيحيين بيننا فما لك سوى الرحيل إلى أيّ بلد يخلو منهم، فهم أصحاب هذه البلاد الأصليين وأنت وأمثالك طارئون عليها.

هلال رمضان[1]

منذ فُرضَ الصيام على المسلمين، وأولو الأمر يعتمدون الرؤية بالعين المجردة للتحقّقِ من ولادة الهلال لتحديد بداية ونهاية شهر الصيام. ولم تزل هذه القاعدة معتمدة حتى يومنا هذا. وقد تستعين بعض الدول بالمراصد التي تساعد عين المراقب في تحسين الرؤية بالعين. وعلى الرغم مما نشهده يوميًا من التقدم العلمي، وخاصة في علم الفلك، الذي أصبح يُنبئنا بالأحداث الفلكية ومسيرات الكواكب والنجوم لمئات السنين المستقبلية باليوم والساعة والدقيقة والثانية، كالخسوف والكسوف واقتراب النجوم والكواكب من الأرض، وغيرها الكثير، نرى أن الكثير من علماء الدين يُصرّون على أن تبقى الرؤية بالعين هي الأساس في التحقّق من ولادة الهلال. وإذا سألنا يومًا أحدَ هؤلاء العلماء عن مقولة التناقض بين الدين والعلم، نراه ينبري يتلو علينا الآيات من القرآن الكريم التي تنفي عنه هذه التهمة.

تقول الآية الكريمة: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...} (البقرة 185)، وفي تفسيرها يقول الطبري: «اختلف أهل التأويل في معنى شهود الشهر. فقال بعضهم: هو مقام المقيم في داره، قالوا فمن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم في داره فعليه صوم الشهر كله.» وفي تفسير الجلالين: «شهد بمعنى حضر.» ويقول ابن كثير: «من شهد استهلال الشهر أي كان مقيمًا في البلد حين دخل شهر رمضان.»

وفي لسان العرب لابن منظور: «وقوله عز وجل: فمن شَهِدَ منكم الشهر فليصمه؛ المعنى: فمن شَهِدَ منكم في الشهر أَي كان حاضرًا غير غائب في سفره.»

فمما تقدم نستنتج أن المقصود في قوله تعالى هنا: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} إذًا، ليس مشاهدة ولادة الهلال بالعين بل تحديد الحال الموجبة للصيام.

---

[1] نشر هذا المقال على الفيس بوك 2015/6/2. وفي جريدة الرسالة – كندا العدد 414 تاريخ 2018/4/27.

وإلى التفسيرات السابقة لمعنى «المشاهدة»، أضيف: لو حلَّ رمضان شتاءً وكنتُ أعيشُ في بلدٍ تغطي الغيومُ سماءه عدَّة أيامٍ متتاليات قد تبلغ أحيانًا شهرًا أو أكثر، فأنَّى لي إذًا أن أرى بالعِيان ولادة الهلال وبالتالي ينتفي عني واجب الصيام لأنني لم أرَ الولادة ولا حتى الهلال؟ بخاصة أنّ الآية حددت واجب الصيام على «مَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ». وهذا، حسب ظنّي، ما جعل العلماء يعتمدون على قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلاثِينَ.»

وفي معنى «الرؤية» يقول ابن منظور، في «لسان العرب»: (واحدًا منها من رُؤْية العَيْنِ كقولك كما تُبْصِر، والآخر من رُؤْية القَلْبِ في معنى العلم فيصير كقولك كما تَعْلم، والثالث من رأَيْت التي بمعنى الرَّأْي الاعتقاد... فتكون ما ترى مرة رؤية العين، ومرة مَرْئِيًّا، ومرة عِلْمًا ومرة مَعلومًا، ومرة مُعْتَقَدًا. وقوله تعالى: {ما كَذَبَ الْفُؤَادُ ما رَأَى} [النجم 11]؛ يقول: ما كَذَبَ فؤَادُ محمدٍ ما رَأَى؛ يقول: قد صَدَقَه فُؤَادُه الذي رأَى.)

وفي القاموس المحيط للفيروز بادي: (الرُؤْيَةُ: النَّظَرُ بالعَيْنِ وبالقَلْبِ.)

ويخاطب تعالى نبيّه الكريم: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} (الفيل 1). وأصحاب الفيل هم أبرهة، ملك اليمن، وجيشه الذين توجهوا إلى مكة بهدف هدم الكعبة، وقد سمّي ذلك العام «عام الفيل». وقد أجمع المؤرخون على أنّ مولد النبيّ ﷺ كان في ذلك العام، وبالتالي، فهل يمكن له وهو طفل حديث الولادة أن يرى عِيانًا ما فعل تعالى بهم؟ وعليه يكون المعنى المقصود بالرؤية هو العلم يقينا بذلك الحدث.

فالرؤية بالعلم، أو ما يمكن أن نسميها: «رؤية اليقين»، أراها أدقَّ من الرؤية بالعين لأن العين قد تُخدع أحيانًا، والسراب أحد تلك الخدع. ثم هل يمكنني أن أنكر، مثلًا، وجود البرازيل، أو أي دولة أصغر منها، على الكرة الأرضية على الرغم من أنني لم أزرها يومًا؟

وانطلاقًا من قوله تعالى في الآية (185 البقرة) المذكورة آنفًا: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، أسأل العلماء الكرام:

1 - ماذا يمنعنا من تحديد أوقات ولادات الأهلَّة مسبقًا، بإصدار التقويم (الروزنامة) الإسلامي الموحّد، استنادًا إلى حسابات الفلكيين وعلومهم وأجهزتهم ذات التقنية العالية التي بإمكانها تحديد أوقات أدقِّ الأحداث الفلكية بالساعات والدقائق والثواني، قبل حدوثها بعشرات ومئات السنين؟ ولماذا أيضًا لا يتم تأسيس

مركزٍ إسلاميٍّ واحدٍ خاصٍّ بذلك؟ وإن شئتم، فليكن العاملون فيه من المسلمين المتخصصين في علم الفلك، وهم بالتأكيد كثيرون.

2 - لماذا نعتمد أوقات الصلوات اليومية كما يحددها أولئك العلماء مسبقًا وبسنوات، وننكر ذلك في تحديد أوقات الأهلّة؟

3 – ألا ترون معي أنّ في عدم تحديد تلك الأوقات مسبقًا، كما أشرت، تعسيرًا على المسلمين جميعًا، بل وتفريقًا لهم أيضًا؟ فالتعسير أراه في أمرين، أولهما: في أن يبقى واحدهم في حيرة حتى بضع ساعات قبل بداية أو نهاية شهر الصيام. وقد يُنتِج هذا بعضَ الإزعاج أو النفور في نفسه. ولا ننسى وصية النبي ﷺ لعامليه إلى اليمن بقوله: «بشِّرا ولا تنفّرا، يسِّرا ولا تعسِّرا». وثانيهما: في البلدان التي تعتمد التقويم الهجري سيضطرون أحيانًا إلى تغيير تواريخ الأيام في الأشهر اللاحقة من السنة. أما التفريق فنراه سنويًا عندما يحدد كل بلدٍ، أو حتى مذهبٍ، أوقات الأهلة منفردًا، وكثيرًا ما نرى بلدين متجاورين يصوم أو يفطر مسلموهما بتأخير أو تقديم يومٍ أو يومين. ثم ألم نرَ الاختلاف الذي حصل في العام 2013 في تحديد يوم عيد الأضحى على الرغم من أن هلال شهره يولد قبل تسعة أيام من حلوله؟ وقد ينعكس هذا أيضًا على شعائر الحج.

4 – ولو سلّمنا جدلًا وقوعنا يومًا في خطأٍ في تحديد أيٍّ من تلك الأوقات، فهل تعتقدون أن الله تعالى سيعاقبنا؟ وأنتم القائلون: «إنما الأعمال بالنيات». وهو المسامح الكريم؟

فأين نحن اليوم من آيات القرآن الكريم التي تأمر وتوصي بالعلم، وأولاها: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*} (العلق 1 – 5)؟

فلنثبت القول بالفعل بأنّ الإسلام لا يتناقض مع العلم، ولنعتمد الوسائل العلمية. ويكفيه تشويهًا لصورته ما يقوم به أولئك المجرمون المأجورون أو الجهلة المتحجرون.

أين نحنُ اليومَ منَ الإسلامِ؟[1]

أقنعوا المرأة بأنَّها «ناقِصةُ عقلٍ وناقصةُ دينٍ»، وأنَّها خُلِقتْ لمتعةِ الرّجلِ ووِلادةِ الأطفالِ، وأنَّ كلَّ ما فيها عورةٌ، وبالتالي عليها أن تستَتِرَ من أعلى راسِها حتى أخمصِ قدمَيها، فألبسُوها ثيابًا أطلقوا عليها صفةَ اللّباسِ الشرعي. وأنَّها لن تكونَ مؤمِنةً ما دامَتْ من دونِ غطاءِ شعرِها بما سمَّوهُ «حجابًا».

وأقنعُوا الرجلَ بأنَّ إسلامَه هو في إطلاقِ لِحيتِه وحلقِ شاربَيهِ، إلى جانب الصِّيام والصَّلاة. وإن تعمَّمَ وارتدَى ثوبًا كثوبِ النَّبيِّ ﷺ أو أصحابِهِ، فسَيَحِقُّ له عندئذٍ إصدارُ الفَتاوى بالتّحليلِ والتّحريمِ وبالتّكفيرِ والذّبحِ والرجْمِ وغيرها.

لا يا سيدتي، الإسلامُ ليسَ جِلبابًا أو خِمارًا أو نِقابًا أو ما يُسمى «حجابًا»، «تستُرينَ» بهِ وجهَكِ أو رأسَكِ أو شعرَكِ. فأنتِ لستِ «عورةً»، ولا جهازًا «للتفقيس»، بلْ أنتِ أمٌّ و«الجنّةُ تحت أقدامِ الأمهاتِ». وأنتِ والرّجلُ زوجان يسكنُ إليكِ وتسكُنينَ إليهِ، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الروم 21) وهناك بونٌ شاسعٌ بينَ السَّكنِ والمتعةِ. وأنتِ أختٌ وابنةٌ. وأنتِ مَعينٌ للحنانِ والمحبةِ والعطاءِ.

وأنتَ يا سيدي، الإسلامُ ليسَ ثوبًا ترتديهِ أو عمامةً تتعمَّمُها أو لحيةً تُطلِقُها أو شاربًا تحفوهُ. فـ«اللحيةُ لا تصنعُ العلماءَ» مهما طالَتْ أو عرضَتْ. والتّحريمُ والتّحليل للهِ وحدَه، {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (النحل 116).

والإسلام ليس تكفيرًا أو ذبحًا لمن خالفَكَ الرّأيَ، {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الأنعام 151)، {مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة 32).

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا العدد 425 تاريخ 2018/10/26.

والإسلام ليس رجمًا لمُتَّهمةٍ بالزِّنَى، فلا رجْمَ في القرآنِ الكريمِ، وتهمةُ الزنى يحتاجُ إثباتُها إلى أربعةِ شهود، {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا* وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} (النساء 15-16)، و{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور 4).

الإسلامُ توحيدٌ وإيمانٌ، {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (البقرة 285).

الإسلامُ رحمةٌ وطهارةٌ في القلبِ واللسانِ، {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الأنعام 54)، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء 107) {وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} (النمل 77).

الإسلامُ في حُسنِ الأخلاقِ والسلوكِ والمعاملةِ، {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل 125)، {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} (المؤمنون 96).

الإسلامُ تقوى اللهِ ولسانُ صدقٍ ووفاءُ عهدٍ، {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} (الشعراء 84)، {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (النحل 16).

الإسلام في العملِ الصّالحِ والإحسانِ، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النحل 97).

الإسلام قولٌ بالمعروفِ، {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} (البقرة 263).

ويا أخي المسلم، ليسَ عليكَ هدايةُ الناسِ، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص 56).

واذكرْ أنّه تعالى قد نهى، حتى نبيَّه الكريمَ، عن إكْراهِ الناسِ في الدّينِ والإيمانِ، فلا يجوزُ، بالتالي، لأيِّ مسلمٍ أن يُكرِهَ أحدًا على الإيمانِ، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس 99).

كذلك ليسَ على المسلمِ محاسبةُ غيرِهِ أيًّا كانَ إيمانُهُ، بل هي للهِ وحدَه، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج 17).

وإنْ شئتَ أن تدعُوَ الناسَ إلى الإسلامِ، فدعْهُم يرونَهُ في سُلوكِكَ وأخلاقِكَ وتعامُلِكَ. وهذا أفضلُ بكثيرٍ من أن تُلقي عليهم آلافَ المحاضراتِ، أو أن تعْقِدَ مِثلَها من الندواتِ، كي تشرحَ لهم فضائِلَ الإسلامِ، أو ما أمرَنا اللهُ تعالى بهِ في القرآنِ الكريمِ، {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} (البقرة 44)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ*} (الصف 2-3).

وأخيرًا وليسَ آخرًا لا تنسَ، يا أخي المسلمَ، قولَهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات 13).

والسّلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

داعش ... والأزهر[1]

يوم الجمعة الواقع فيه 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 2018 قامت مجموعة مما يُسمَّى تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام – داعش»، بقتل سبعة مواطنين مصريين أقباط وجرحِ تسعة عشر آخرين، كانوا عائدين من زيارة دير القديس صموئيل في المِنْيَا جنوب القاهرة. وهذه، للأسف، ليست المرَّةَ الأولى التي يعتدي فيها هذا «التنظيم» على مصريين أقباط عُزَّلٍ، ونرجو الله أنْ تكونَ الأخيرةَ.

وفي التفاصيل أنَّ «الداعشيّين» أمطروا ضحاياهم بالرصاصِ بعدما كمنوا لهم؛ وكأنهم يترصّدون أخطرَ الأعداء. ومكانُ العمليةِ جنوبُ القاهرة، لا على حدود مصر مع فلسطين المحتلّة!!! فهل لكَ يا أخي القارئ أن تُعينَ ذاكرتِي بذكرِ عمليةٍ واحدةٍ قام بها «داعشيٌّ» بوجه جنديٍّ أو فردٍ من بني صهيون؟ إذ لو حدثَ ذلك لاتُّهِم تنظيمُهم «بمحبَّة العرب ومُعاداة السامية».

فيا أيها «الداعشيُّ»، من أحلَّ لكَ قتلَ أُناسٍ عُزَّلٍ ذنبُهم أنهم كانوا عائدين من دارِ عبادة؟ فهل اعتدى عليك أحدُهُم؟ أو همَّ بالاعتداء على أحدٍ من أفرادِ عائلتِك؟ بل هلْ رأيتَ أحدَهُم شاهرًا مسدسًا أو حتى سكينًا بوجهكَ؟

فلو كنتَ مُسلمًا حقًّا لقرأتَ في القرآن الكريمِ أنَّ الله حرّمَ القتلَ، وأنَّ {مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة 32).

وإن كنتَ قد نَصَّبتَ نفسَكَ مُدافعًا عن الإسلامِ والمسلمين فمنْ قالَ لك بأنَّ المسيحيَّ عدوُّهُم؟ ألم تقرأْ قولَه تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة 82)؟ فإن كنت لم تقرأْهُ فتلك مُصيبةٌ وإنْ كنتَ قرأتَه فالمصيبةُ أعظمُ.

ويا أصحاب السماحة في الأزهر الشريف، إنَّ الحالَ التي وصلنا إليها لا تَكفِي إصلاحَها بياناتُ الاستنكار، بل يحتاجُ إلى حملاتِ توعيةٍ مكثَّفةٍ وواسعةٍ على مستوى العالمِ الإسلاميّ بأكملِه. فجهلُ العامَّةِ بما جاءَ في القرآنِ الكريمِ، يجعلُهُم أرضًا خَصبةً لنموّ الفكرِ المتطرّفِ، ومنبعًا لا ينضَبُ لتوريدِ عُميانِ البصِيرةِ المُستعدِّينَ لارتكابِ أبشعِ الجَرائِمِ وباسمِ الإسلامِ، إذْ يكونُ من السَّهلِ على المُغرضِينَ غسلُ أدمغتِهم ببضِعِ كلماتٍ معسولةٍ مغلّفةٍ بغلافٍ إسلاميٍّ

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا العدد 427 تاريخ 2018/11/30.

مُزيفٍ، ليُقنِعوهم بأنَّهم سيُصبِحُون مُجاهِدِين في سبيلِ اللهِ، فيُمْسُوا، بينَ أيديهِم، قنابلَ موقوتةً يُفجِّرونَها ساعةَ يشاؤون.

فلو فَهِمَ أولئك القتلةُ وأمثالُهم أنَّ أعمالَهُم هذه لا علاقةَ لها بالجِهادِ في سبيلِ اللهِ، بل هي إجرامٌ موصوفٌ واعتداءٌ و{إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة 190)، {وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (المائدة 87)، و{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ* مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ} (ق 24-25)، لما اعتدَوا ولا قَتَلُوا، بل لما انتمَوا إلى تلك الجماعاتِ المُجرِمة. ولارتَدَعوا وامتنعُوا، أيضًا، عن الإصغاءِ إلى أولئكَ المُغرِضين المُغَرِّرين، لو فَهِمُوا قولَه تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ} (الإسراء 33)، وأنّ هذا «الحقَّ» عائدٌ حَصْرًا لسلطةِ القضاءِ وحدَهُ، ولا يجوزُ لأيّ إنسانٍ آخر أنْ يقضِيَ به، سواءٌ كان مسؤولًا حكوميًّا، ولو كان رئيسَ البلادِ، أمْ عالِمًا دِينيًّا، ولو كانَ مُفتيَ الديارِ أو شيخَ الأزهر.

ولو فهموا معنى تلكَ الكلماتِ التي تجري على ألسنتِهِم كالببغاوات قائلين: «السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه»، لعَرَفوا أنَّ السَّلامَ نقيضُ الحربِ والقتلِ والاعتداءِ.

وهل كان تَورَّطَ هذا العددُ الكبيرُ منهُم في الانتماءِ إلى «داعش» وأمثالِهِ، لو عرفوا حُدودَ الله؟ {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة 229).

فنرجوكم يا أصحابَ السَّماحةِ، أن تُبَيّنوا لهم أنَّ اللهَ تعالى، الرحمنُ الرَّحيمُ، الذي {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} (الأنعام 12)، لا يُمكِنُ أن يأمُرَ بالقتلِ والذَّبحِ وسبْيِ النساءِ وهدمِ دورِ العبادةِ، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} (الحج 40).

وإنْ قالوا بأنَّهم يبغُونَ هِدايةَ النَّاسِ، فنرجُوكم أن تُبيّنُوا لهم معنى قولِهِ تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص 56)، وأنْ {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (البقرة 256). واشْرحُوا لهم قولَه تعالى لرسولِه الكريم: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس 99).

وإنْ كانوا حقًّا يُريدون دَعوةَ الناسِ إلى الإسلامِ، فأوضِحُوا لهم أنَّه تعالى قد بَيَّنَ وسيلتها في قولِه للرسولِ ﷺ: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل 125).

أمَّا إنْ كانَتْ غايتُهم محاسبةَ الآخرينَ فبيّنوا لهُم أنَّها شأنُ اللهِ وحدَه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج 17).

واشرحُوا لهُم أنَّ من يُوهِمُونَهُم بغيرِ ذلك ليسُوا سِوى مُضلِّلِينَ يَبغون استغلالَهم في سبيلِ مصالحِ أعدائِنا أجمعين، وبأنهم يُلبِسُون الحقَّ بالباطلِ الذي نهانا عنه تعالى بقوله: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة 42).

لقد أنزل اللهُ الأديانَ للإصلاحِ والتأليفِ بين البشرِ، لا للتقاتُلِ والتذابحِ، {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (النساء 26). وكمْ يَنفَعُ بَنِي البشرِ أنْ يَفْقَهَ كلٌّ منهم قولَه تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات 13).

وخِتامًا أقول: «لا يُعبدُ اللهُ إلَّا بالعِلمِ»، و{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (فاطر 28).

هل الدّينُ أفيونُ الشعوبِ!!!؟؟؟[1]

«الدّين أفيونُ الشعوبِ»، مقولةٌ أطلقها كارل ماركس في العام 1843 في مقدمةِ نقدِهِ «فلسفة الحقّ عند هيغل». وعلى الرغم من قوله: «إنَّ الغاء الدّين، من حيثُ هو سعادةٌ وهميةٌ، هو ما يتطلَّبُه صنعُ سعادتِه الفعليّة»، فلا يجوزُ لي أنْ أعزوَ قولهُ ذاك إلى كونِهِ انطلاقًا من نيّةٍ أو غايةٍ في نفسهِ، لأن الله وحدَه هو الذي يعلمُ ما في الصّدور. ولذا أقولُ بأنّني أظنُّ بأنّه كوّنَ رأيَه بأن للدّينِ قوةَ تعطيلِ العقولِ، كما للأفيون، استنادًا إلى ما كانَ يراه من تصرُّفاتِ وأعمالِ رجالِ الدّين المسيحيّ في عصره وإلى انقيادِ العامّةِ لهم انقيادَ الأعمى. وهذا ما لا يُقبلُ من مُفكّرٍ استطاع أن يُؤسِّسَ لثورة غيّرت وجهَ التاريخ، بل قد يُعابُ عليه. فإذا أخطأ رجلٌ أو عدةُ رجالِ دينٍ، سواء عن قصدٍ أم غيره، في فهم أو إفهام تعاليم الدّين فلا يجوز أن يُوسَمَ هذا الدّين بذاك الخطأ. فواجبُ المفكّرِ يقضي أن يُعطيَ رأيَهُ في ذلك الدّين بعد العودةِ إلى تعاليمِه كما نصت عليها كتُبُه الأساسيّة، لا استنادًا إلى تصرُّفات بعضِ رجاله مهما سمَتْ مكانتُهم أو درجاتُ علمِهم، فالإنسانُ معرضٌ دومًا للخطأ مهما حرِص. ولو فعل ماركس ذلك لغيّر مقولته عن الدّين إلى رجالِ الدّين.

ويُمكنني أن أتخيّل بعضًا من تلك الحالات التي كان يراها ماركس في أيّامِه، مما نراه نحنُ في أيامنا هذه من أعمالٍ وأقوالٍ وتصرُّفاتِ أناسٍ يدَّعون بأنّهم «رجالُ دينٍ أو علماء أو أئمة... مسلمون»، إمّا لغاياتٍ شخصيّةٍ أو مأجورين لخِدمةِ أعداءِ الإسلام والمسلمين، وكذلك من مسيرةِ مَن يتبعُهم من عامَّةِ المسلمين.

لقد فهِمَ العامّةُ الدّين بعواطفهم لا بعقولهم فاعتقدَ الكثيرُون منهم أنّ الدّين مظاهرُ عباداتٍ وطقوسٍ، في الصّلاة والصّيام، عليهم تأديتُها في أشكالٍ وأوقاتٍ محدَّدة، لا يجوز تعديلُ أيٍّ منها، حتى لو تسبّبُوا في تعطيلِ عجلةَ الإنتاج في المصانع والمعاملِ وغيرها. إذ لم يفهموا قولَه تعالى: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (البقرة 185). فكان أن تمسَّكوا بالشَّكليّات وتخلَّوا عن الجوهر. وأخذوا في الإكثار من القيام بالصّلاة والصّيام، فزادوا في تعطيل عجلة الإنتاج.

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا العدد 429 تاريخ 2019/1/11.

ولو عادَ أحدُنا إلى كتبِ التُّراث لوجدَ المئاتِ من الكُتبِ التي تبحث في شكلياتِ الوضوءِ والصّلاةِ والصِّيامِ وما يتفرّعُ عنها.

كما أن بعضَهم اعتقدَ بأنّ الدّين هو في عاداتٍ وتقاليدَ في الملبسِ والمظهرِ ورثَها النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ عمّن عاشوا قبلهم، مما فرضتْه عواملُ الجوّ والجُغرافيا. فهل أحصى أحدٌ كُلفةَ الصِّراع الذي يخوضُه المتزمّتون، منذ عقودٍ، لأجلِ ما أسموه واجبَ ارتداء المرأة المسلمة غطاء الشّعر الذي سمَّوهُ خطأً، لغويًا، «حجابًا»، زاعمين أنَّها إنْ لم ترتدِه فقد كفرتْ، أو ارتدَّتْ أو فسَقتْ؟

كذلك الإيمانُ المُفرِط لكثير من المسلمين بالقضاءِ والقدَرِ وبالتّوكلِ على الله، عزَّ وجلَّ، سواء في البحث عن الرّزق أم في غيره، وبالاعتقادِ الكلّيّ بأن كلّ شيءٍ مقسومٌ ولا يحصلُ الإنسانُ على غيره مهما سعى، ضاربين بعرض الحائط قولَ النبيّ ﷺ: «أعقلْها وتوكّلْ.» وقولَه تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} (القصص 77).

وكم رأينا، منذ بضعةِ عقودٍ، ولا نزالُ، من الشّباب «المؤمنين» يتبعون «رجلَ، أو رجالَ، دينٍ» تبعيةً كاملةً عمياء، حتّى باتوا مسيّرين لا رأي لهم، يسير واحدُهم كما يأمرُه «شيخُه» في أمور الدّين والدنيا، على حدٍّ سواء. وممّا يُؤسف له أنَّ كثيرًا من «رجال الدّين» أولئك، هم من المغرضين الذين يستغلُّون صفاءَ نفوس «المؤمنين» وطيبتَها في سبيلِ تحقيقِ غاياتِهم، وكم أقنعوا من أولئك «المؤمنين»، بأنّ تفجيرَهم أنفسِهم جهادٌ في سبيل الله، وبأنه، عزّ وجلّ، سيكافِئُهم بالحُورِ العِين فورَ وصولِهم إلى «الجنة».

وكما حاربَ رجالُ الإكليروس، في العصورِ الوسطى، العلمَ والعلماءَ واكتشافاتِهم ولم يكتفوا بتكفيرهم، بل عذّبوهم وقتلوهم وأحرقوهم وأتلفوا كتبهم، ها هم «المتأسلمون» اليوم، يُكفّرون ويذبحون من ليس على دينهم أو رأيهم أو مذهبهم.

وكم تسبّب هذا كلُّه في أذية الإسلام والمسلمين، إنْ في نظرة الكثيرين لهم، في المجتمعات الأخرى، أم في تعامُلهم معهم، حتى وصفوهم بالمتخلفين والجهلة؟ ومما زاد في أذيتهم أفعالُ مُدّعِي «الجهادِ في سبيل الله» بالقتل والذبح والرجم، وكلُّه «باسم الله والدفاعِ عنه وعن دينه»، فأصبح المسلمُ في نظرِ الكثيرين، إرهابيًّا مُجرمًا متخلِّفًا لا يصلح أن يشاركَهم مُدنهم.

وهذا ما يجعلُني أظنُّ أن كارل ماركس قد هالهُ التعطيلُ لدورِ العقلِ الذي كان يراهُ في الكثير من المؤمنين المسيحيّين، تمامًا كما يعطِّلُ الأفيونُ عقولَ مُدمنيه، فاتّهم الدّين بذلك عوضًا عن اتهام الإكليروس.

وعليه أقولُ بأن السّبب في ما تُتّهم به الأديانُ حاليًّا، السماويةُ أو غيرُها، يعودُ إلى إخطاء الكثيرِين من رجالِ الدّين المُعاصرين، من أعلى درجاتِهم حتى أدناها، وممّا وصلَ إلينا من بعضِ الأئمةِ والفُقهاءِ والمحَدّثين. بالإضافة إلى بعضِ المؤرّخين الذين نقلوا أقوال أولئك، من دون تمحيصٍ أو تحقُّقٍ من صحتها. فقد جاءت الأديانُ كُلُّها لتنظيم علاقةَ العابدِ بالمعبودِ وعلاقةَ البشرِ فيما بينهم. ولا أظنُّ أن أيًّا منها أو من مذاهبِها، يأمُرُ بالشّرِّ أو ينهى عن الخير، أو لا يميّزُ بين الصّالحِ والطّالحِ من الأعمالِ.

فالسؤال الذي علينا أن نبحثَ له عن جوابٍ هو:

من يقف وراء محاربةِ الأديانِ، ولماذا هذه الحروب التي شُنَّتْ على الدّينِ المسيحيّ سابقًا، وتُشنُّ على الإسلام والمسلمين حاليًّا ومنذ قرنٍ من الزمن أو يزيد؟

المحافظةُ على البيئة من واجباتِ المسلم[1]

لا يختلفُ مسلمانِ في أنَّ الله تعالى هو وحدَه المالكُ لما في السمواتِ والأرضِ وما بينهما وما تحت الثرى: {لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} (طه 6)، و{لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ...} (المائدة 120)، و{أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ...} (يونس 66). كما أنه تعالى هو {الَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضَ...} (إبراهيم 32). وأنّ الإنسان هو أحدُ مخلوقاتِه، {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} (ص 71).

ولكنَّه تعالى ميَّزَ الإنسانَ عن باقي مخلوقاتِه بأن جعلهُ خليفةً في الأرض، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...} (البقرة 30).

هذه الخلافة لا تقتصرُ، فقط، على آدم، عليه الصلاة والسلام، إنّما جعلها الله لبنيهِ إلى ما شاء تعالى، هذا ما نفهمه من قوله عزّ وجلّ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ...} (الأنعام 165)، وكما يفسّرُه ابنُ كُثير إذ يقول: «أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن وخلفًا بعد سلف». {...وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ...} (النمل 62).

وما نفهمُه من قوله: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}، ومن قولهِ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ...}، أنَّه تعالى أوكلَ إلينا، نحن بني الإنسانِ، استثمارَ خيراتِ هذه الأرضِ التي نعيشُ عليها، بما فيها من باقي المخلوقاتِ، وسخَّرَ لنا ما في السموات وما في الأرضِ وما عليها. والآياتُ التي تؤكّدُ ذلك كثيرةٌ أكتفي بذكرِ التالياتِ منها: {...هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...} (هود 61)، «{وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} أي جعلكم عمّارًا تعمرونها وتستغلونها»، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ...} (الحج 65)، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الجاثية 13)، {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} (إبراهيم 33).

وبما أنَّه تعالى أوكلَ إلى بني آدمَ استثمارَ خيراتِ هذه الأرضِ التي نعيشُ عليها، بما فيها من سائرِ المخلوقات ومن الموارِدِ والخيرات، فإنَّ على هذا الوكيلِ أو المستثمرِ واجباتٍ تُجاه ربِّه، مُوكّلِه. وإلى جانبِ تقيُّدِ هذا الوكيلِ بجميعِ الأحكامِ

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا العدد 433 تاريخ 2019/3/15.

والمفاهيمِ والشُّروطِ التي فرضَها عليه خالِقُه، فقد فرضَ عليه أيضًا، مقابلَ هذا الاستثمارِ، واجباتٍ عديدةً أُخرى، نذكرُ منها ما يخصُّ موضوعنا هذا:

إعمارُ الأرض:

وإعمار الأرض بالإضافة إلى أنه حاجةٌ مهمّة لعيشِ الإنسانِ عليها، فهو أيضًا واجبٌ عليه مُذْ جعلَهُ الله خليفة فيها ليعمرها: {...هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...} (هود 61). وفي معنى استعمركم يقول الفراهيدي: «استعمر الله النّاسَ ليَعْمُروها»1. وقول ابن كثير، الذي أوردناه سابقًا: «أي جعلكم عمارًا تعمرونها وتستغلونها». ومن يُعمِّرُ لا يخرِّب.

المحافظةُ على الأرضِ ومواردها وعدمُ إفسادِها:

كم قرأنا في عقود استثمارٍ كثيرة، عبارة مثل: «إن على المستثمر رعايةَ المال المستثمَر رعايةَ الأبِ الصالح»، أو «إنّ هذا المالَ هو في عهدةِ المستثمر على سبيل الأمانة»، فكذلك أمرَنا الله تعالى بالمحافظةِ على هذه الأرض، التي استخلفنا فيها ولنعيش عليها، وبالمحافظة على مواردها بعدم الإفساد. وهذا يكون بأن يحافظ كلٌّ منّا على البيئة التي يعيشُ فيها وأن يبقِيَها صالحةً لمن سيتسلَّمُها من بعده، وكثيرًا ما يكونُ من أبنائه أو أحفاده، وأن يحافظَ أيضًا على مواردها التي يستخدمُها في عيشته، سواء بعدم الإفراط في استغلالها أم بعدم التسبب بإفسادها أو بإفساد جُزءٍ منها، من جراء ما يقوم به بُغية استثمار هذه الموارد.

وكلُّ ما نسميه اليومَ عُرفًا: «ملكُ الإنسان» هو في الحقيقة أمانةٌ لديه، وواجبُ المؤتمَنِ المحافظةُ على الأمانة وألّا يتصرف فيها على هواه، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} (الأنفال 27)، {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} (المؤمنون 8). وفي النّهاية عليه أن يردَّها إلى مالكِها الحقيقي الواحدِ الأحد: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...} (النساء 58)، {...وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ...} (آل عمران 180).

والآياتُ التي تنهَى عن الفسادِ بجميعِ أشكالِه، عديدة. وقد أحصينا منها في كتابنا (دليل الموضوعات في آيات القرآن الكريم)، نيّفًا وخمسين آية. نكتفي منها بما يلي:

{... كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (البقرة 60)، و{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ

1 كما في المعجم المعروف باسم: (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي.

الفَسَادَ} (البقرة 205)، {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ...} (الأعراف 56)، {... وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص 77).

قد يقولُ بعضُهم: إنَّ المقصود بالفساد هو فسادُ الأخلاقِ، والسلوكُ غيرُ السّويِّ ولا علاقة لهذا الفساد بالبيئة. وللجواب على هذا نكتفي بما قاله ابن كُثير في تفسيره للآية 205 من سورة البقرة، المدرجة آنفًا: «... وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو (أي النسل) نتاج الحيوانات، اللذين لا قوام للناس إلا بهما.»

وفي الحديث «أن النبيﷺ مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار».

فالعمل الصّالح يا أخي المسلم وطاعةُ الله تعالى، خيرٌ تقدمه لنفسك، {...وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة 110) (صدق الله العظيم).

التحرُّر من «قيود» الإسلام[1]!

لفتني يومًا خبرٌ، في إحدى الصُّحف اللبنانيّة، يقول: «أُعلن في برلين أمسِ الأوّل فوزُ فيلمٍ ألمانيٍّ بخمسٍ من جوائزِ «لولا» السّينمائيّة التي تعادل جائزة الأوسكار الأميركيّة. إلى هنا ليس في الأمر ما يدعو إلى العجب، بل هو خبرٌ عاديٌّ جدًّا، ولكن، عندما نقرأ أنّ ذلك الفيلم «يحكي قصّة شابٍ وفتاةٍ ألمانيّين ينحدران من أصلٍ تركيٍّ تحلّلا من خلفيتهما المسلمة»، فهل يبقى الخبرُ هكذا عاديًا؟[2]

وأوّلُ ما تبادر إلى ذهني يومها السُّؤال التّالي: أإلى هذا الحدّ أصبحت الناس في الغرب مقتنعة بأن الدّين الاسلاميّ هو مجرّد قيودٍ من شأنها، ليس فقط، أن تكبّل يدي المسلم، بل أن تجعله أيضًا غير قادرٍ على مواكبة سائر الناس في مسارهم على دروب الحياة العصرية؟ وهل أصبح بالتالي على كلِّ من أراد النّجاح في حياته أن «يتحلّل» من تلك القيود؟

فقبل أن نتوجّه باللوم إلى أولئك الغربيّين في هذا الخطأ الذي نراهم قد وقعوا فيه، يجب علينا نحن، أوّلًا، أن نسألَ أنفسنا عن السّبب الذي جعلهم ينحون إلى تلك القناعة. فهل يعود ذلك إلى أنّهم هم المتخلفون عن ركب العلم لأنّهم لم يقرأوا ما كتبه ويكتبه عُلماء وفقهاء المسلمين؟

كما أسأل أيضًا: كم منّا من لديه المعرفة الكافية بجميع الأديان، السماويّة منها وغير السماويّة، الموجودة على أرضنا؟ بل كم منّا من يعرف عن الديانة البوذية التي يعتنقها حاليًا الملايين من البشر؟ مهما بلغ من حبِّ الاطلاع ومهما أطال الله عمره، مع ما تتطلبه منّا حياتنا العصرية من جهدٍ وساعاتِ عمل لكسب لقمة العيش؟ وكم من مسلمٍ يعرف الديانة اليهودية؟ بل كم من المسلمين من يعرفون تعاليم دينهم حقَّ المعرفة؟

ولكن هل السّبب في ذلك الاقتناع، عند الغربيين، عائد إلى الإسلام في معتقداته وتعاليمه؟ ثم هل بإمكاننا أن نوجّه اللوم إلى أولئك الناس الذين لا يعرفون شيئا عما جاء به القرآن الكريم من تعاليم سواء في الدّين أم الدّنيا؟

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة - كندا العدد 436 تاريخ 2019/5/3.

[2] كان ذلك في شهر حزيران – يونيو - من العام 2004.

جوابًا أقول لو كان أيٌّ منّا مكان أولئك الغربيين لكانت نظرته إلى هذا الدين السمْحِ، مشابهة بل ومطابقة لنظرتهم، لأنّ كلّ ما يسمعونه أو يقرأونه من أخباره، إمّا في أنَّ على كل أنثى، حتى ولو كانت لم تزل في عمر الطفولة، أن تُغطّيَ شعرها بما يسمّونه خطأً «حجابًا»، والذي من دونه لن تكون مسلمة؛ ولا ننسى تلك الحرب التي أشعلها بعضهم في أوروبا وباسم الإسلام، في ثمانينيّات القرن الماضي ولم تزل مستعرة حتى اليوم، دفاعًا عما يعتبرونه فريضة، مظهرين للناس أجمعين أن تعاليم الدّين الإسلاميّ تنحصر فقط في هذا «الحجاب».

أو ما يسمعونه أو يقرأونه أيضًا، في أنّ الجهاد في سبيل الله لا يكون إلا في خطف الأبرياء، من غير المسلمين، ثم قتلِهم بأشنعِ الأساليب، بعد أن ينعتوهم بالكفر. والأمثلة، للأسف، كثيرة في ما قامت ولم تزل تقوم به تلك المنظمات أو الجماعات أو التنظيمات أو الجبهات... من قتلٍ وذبحٍ ورجمٍ وحرقٍ، في أقطارٍ عديدة، في معظم أنحاء العالم. والمؤسف أيضًا أن أولئك القتلة، لا يكتفون بفعلتهم الشنعاء بل يتباهون بها، ليس فقط بإعلان مسؤوليتهم عنها بل يصورونها على شرائط (فيديو) ويوزعونها على محطات التلفزة الفضائية. فمن لم يسمع أو يرَ فليكحّلْ عينيه وليشنفْ أذنيه بأخبار تلك «البطولة» في قتل العُزَّل والضعفاء من الرجال والنساء والأطفال. مدّعين بأنَّ ما يفعلونه هو لنصرة الله ودين الإسلام. ولا ينسَون مرةً عند ارتكاب جرائمهم هذه من أن يبدأوها بالتكبير.

كما لا يجوز لنا أن ننسى تلك النّعوت بالكفر والتكفير التي أطلقها أسامة بن لادن ولم يزل يطلقها خلفاؤه وأمثالهم، سواء في تنظيم القاعدة أم داعش أم بوكو حرام وغيرهم، على جميع الناس من غير المسلمين، بمن فيهم المسيحيون الذين قال فيهم تعالى {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} (آل عمران 82)، داعين المسلمين لمحاربتهم، باسم الجهاد في سبيل الله. وضاربين بعرض الحائط كلّ ما قاله القرآن الكريم عن واجبات المسلمين في معاملة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ومنها قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة 8).

فيا إخواني المسلمين، يقول المثل: «الإنسانُ عدوٌّ لما يجهل» ولذا فلا لومَ ولا عتبَ على أولئك الأوروبيين أو الأميركيين، من غير سياسيّيهم بالتأكيد، في تلك النظرة إلى الإسلام والمسلمين، فالنّاس العاديّون يستنتجون معتقدات الآخرين من ظواهر تصرفاتهم ثم يصدرون أحكامهم عليهم وعليها. فإذا لم نَعُدْ جميعًا إلى تعاليم الإسلام الصّحيحة كما جاءت في القرآن الكريم، لا كما شوّهها ويشوّهها

بعض «المتفيقهين» ممن يدّعون بأنهم حماةُ الله ودينه، فستبقى، بل ستزداد حدّةً، نظرتهم تلك إلى الإسلام بأنّه يحضُّ على القتل والذّبح، وبأنّ المسلمين متخلفون وقتلةٌ وغيرُ جديرين بالعيش في المجتمعات المتمدنة .

فكلُّ مسلمٍ، يا إخواني، مسؤولٌ بسُلوكه وأخلاقه وتعامُله، عن إعادة الوجه السّمح إلى دين الإسلام، كما أراده الله تعالى له.

تعدد الزوجات

إنّ الشائع لدى الغالبية العظمى من الرجال أنّ دين الإسلام يبيح لهم تعدد الزوجات، ومن دون قيد أو شرط سوى العدل بينهن في الأمور المادية، مستندين إلى ما جاء في الآية (3) من سورة النساء، والتي تقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾.

إن نصوص آيات القرآن الكريم ليست نصوصًا شعرية أو أدبية، وكل كلمةٍ أو حرفٍ فيها له مدلوله الخاص، ولم يدرج عبثًا. فعلينا بداية معرفة معاني الكلمات المحورية في هذه الآية.

ففي معجم (لسان العرب لابن منظور):

- «**يتامى**، جمع يتيم، واليَتِيمُ الذي مات أَبوه فهو يَتِيمٌ حتى يبلغَ، فإذا بلغ زال عنه اسمُ اليُتْم، والأُنثى يتيمة، والجمع أَيتامٌ ويَتامى ويَتَمةٌ. والعَجِيُّ الذي تموت أُمه، واللَّطيم الذي يموتُ أَبَواه».
- «**الإِقْساطُ**: العَدل في القسْمة والحُكم؛ يقال: «أَقْسَطْتُ بينهم وأَقسطّتُ إِليهم.».
- «**العَدْل**: ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم، وهو ضِدُّ الجَوْر. عَدَل الحاكِمُ في الحكم يَعْدِلُ عَدْلاً وهو عادِلٌ من قوم عُدُولٍ وعَدْلٍ؛ وعَدَل عليه في القضيَّة، فهو عادِلٌ، وبَسَطَ الوالي عَدْلَه ومَعْدِلَته.»
- «**الطيّب** خلاف الخبيث. وما طاب لكم، أي ما يحلُّ لكم.»
- «**العَوْل**: المَيْل في الحُكْم إِلى الجَوْر. عالَ يَعُولُ عَوْلاً: جار ومالَ عن الحق. وفي التنزيل العزيز: ذلك أَدْنَى أَن لا تَعُولوا.» أي أقرب ألّا تجوروا.

وفي القرآن الكريم، (من قاعدة أنّ القرآن يفسّرُ بعضُه بعضًا)**:**

- ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾. (النساء 6).

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى. (الأنعام 152)
- ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. (هود 85)
- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. (الإسراء 35). والقسطاس: أعدل الموازين وأقومُها[1].
- ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. (النساء 58).
- ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (الحجرات 9)
- ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. (الأعراف 157).
- {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. (النور 26).

وفي الأحاديث المنسوبة إلى الرسول الكريم، ﷺ:

- «إذا استرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا وإذا قسموا أقسطوا» (مسند الإمام أحمد - 19173).
- «مَا دَامُوا إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا، وَإِذَا مَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا مَا قَسَمُوا أَقْسَطُوا». (مصنف ابن أبي شيبة – 33508).

وبالعودة إلى الآية المذكورة (النساء 3)، فلم يكن عبثًا أن تبدأ بجملة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ ثم يأتي بعدها قوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ ثم تقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً.... ﴾؛ فحرف «الفاء» في ﴿فَانْكِحُوا﴾ وفي ﴿فَوَاحِدَةً﴾، هو ما يسمى «الفاء الرابطة للشرط» أي يأتي بعدها جواب الشرط الذي هو هنا، في الجملة الأولى: وجوب الإقساط في اليتامى، وفي الثانية، وجوب العدل بين الزوجات.

أما إن عدنا إلى سورة النساء، وبالتحديد إلى الآية التي تسبق مباشرة، الآية المذكورة أعلاه، فسنجد أنها تتكلم أيضًا عن أموال اليتامى: إذ تقول: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء 2)؛ لتكمل بعدها الآية المذكورة، بكلام معطوف على ما قبله، فتقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ (3).

[1] لسان العرب.

فمما تقدم أرى أن الحق في تعدد الزوجات أعطي للرجل الذي يتولى رعاية يتامى وأموالهم، بأن يتزوج أمهم، مع التقيد بشرط العدل بينهن. أما في قوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، فلا يجوز فهم معنى (طاب لكم) أنه عائد لمزاج الرجل ورغبته؛ بل المقصود، ما يحلُّ له زواجُها، كما سبق وبينت.
وهذا أراه بابًا يجوز، لأولي الأمر فتحه عندما ينقص عدد الرجال، وبخاصةٍ بسبب الحروب.

وهناك، من المفسرين وغيرهم، من يقول بأنّ اليتامى المعنيين في الآية (النساء 3)، موضوع كلامنا، هنّ من النساء اليتامى، مستندين إلى ما جاء عن عروة بن الزُّبير أنه «سألَ عائشةَ عن قولِ الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ فقالتْ: يا ابن أُختي، هذه اليتيمة تكون في حَجر وليِّها تشركهُ في مالِهِ ويُعجبه مالها وجَمالها، فيريدُ وليُّها أن يتزوجَها بغير أن يُقسطَ في صَداقِها فيُعطِيَها مثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهوا عن أن يَنكِحوهنَّ إلاّ أن يُقسِطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى سُنَّتهنَّ في الصَّداق، فأُمِروا أن يَنكِحوا ما طاب لهم من النساء سِواهنّ.» (4456 صحيح البخاري، وغيره من الأحاديث).
فلو كان الأمر كذلك لأوضحته الآية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾. (النساء 127).

ثم إذا ما نحينا جانبًا أنّ هذا السماح هو لزواج أمهات اليتامى، فإني أقول: في الظاهر الآية (النساء 3) المذكورة آنفًا، تسمح بتعدد الزوجات، ولكنها تشترط لذلك أن يعدل الزوج بين زوجاته، عندما تقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾. ولا ضير في أن نكرر أنّ حرف «الفاء» في كلمة (فواحدة) هو ما يسمى «الفاء الرابطة للشرط» أي يأتي بعدها جواب الشرط، الذي هو هنا وجوب العدل بين الزوجات. ويقول محمد علي الصابوني، في كتابه «صفوة التفاسير»، في تفسيره لقوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ يقول: «أي إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة». وبالتالي يصبح الاكتفاء بواحدة واجبًا في حال عدم التمكن من العدل المشترط. ويؤكد هذا الشرط ما انتهت إليه الآية عينها إذ تقول: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ بمعنى: «أن الاقتصار على واحدة أقرب ألا تميلوا وتجوروا.»[1]

[1] راجع صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني – الطبعة الأولى 1997 دار الصابوني.

ثم تأتي الآية (129) من سورة النساء عينها، لتعطينا الجواب الفصل في أنّ العدل بين النساء غير ممكن، لأنّه يقتضي أن يكون ليس فقط في الأمور المادية، بل أيضًا في المحبة والمودة، إذ تقول:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ...﴾. وفي اللغة: «المَيْل: العُدول إلى الشيء والإقبالُ عليه،»[1]. أما المفسرون، فيقول منهم ابن كثير: «﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي فتبقى الأخرى معلقة.» ويقول البيضاوي: «﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة. وعن النبي ﷺ «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل». ولا يمكن أن يكون هذا الميل إلا نتيجة التفريق في المحبة. والمثل العامي يعبّر عن ذلك أصدق تعبير عندما يقول: «الرِجل بِتْدِب مطرح ما القلب بِحِب»[2].

ثم تقول الآية (4) من سورة الأحزاب: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾. وفي تفسيره لهذه الآية يقول البيضاوي: «أي ما جمع قلبين في جوف لأن القلب معدن الروح الحيواني المتعلق بالنفس الإنساني أولًا ومنبع القوى بأسرها.»

وفي تاج العروس[3]: «(القَلْبُ: الفُؤادُ)؛ أَو مُضْغَةٌ من الفُؤادِ مُعَلَّقَةٌ بالنِّيَاطِ... (أَوْ) أَنَّ القَلْبَ (أَخصُّ منه)، أَي: من الفُؤَادِ في الاستعمالِ، لأَنّه معنًى من المعاني يَتعلّق به. ويَشهَدُ له حديثُ: «أَتَاكُم أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ قُلُوبًا، وأَلْيَنُ أَفْئِدَةً»، ووصَفَ القُلُوبَ بالرِّقَّةِ، والأَفئدَةَ باللِّينِ، لأَنَّهُ أَخصُّ من الفُؤادِ، ولذلك قالوا: أَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ، وسُوَيْدَاءَ قَلْبِه.»

وفي قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾، ليس المقصود عضويًا كما في «كليتين» أو «رئتين»...، إنما قاله مجازًا وكنايةً عما يكنّه القلب من المحبة، كما في قولنا: «رعاية البيت» والمقصود «رعاية من في البيت» لا المبنى. وقد كانت العرب تعتقد أن القلب مركز الحبّ. كما في قول امرئ القيس في معلقته:

أغَرّكِ منّي أنّ حُبّكِ قاتِلي *** وَأنّكِ مهما تأْمُري القلبَ يَفْعلِ؟

---

[1] لسان العرب.

[2] أي: إن الإنسان يرغب في الذهاب إلى المكان الذي يحب من فيه.

[3] للزبيدي.

ولا ننسى أن القرآن الكريم أنزل بلغة العرب، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾ (يوسف 2)، وحسب مفهومهم لكلماتها، وما كانت ترمز إليه في حينه، لا كما تحور أو تبدل في عصرنا الحالي.

وهنا يطرح السؤال نفسه: هل يستطيع إنسانٌ ما أن يحبّ شخصين معًا بالقدر نفسه، حتى ولو كانا ولديه؟ كما نذكِّر بما جاء في الآية (119) من سورة آل عمران وكررته آيات عديدة غيرها: ﴿...إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفي اقتناعي أنّ قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ هو لعلمه بما يكنّه الإنسان، سواء من عواطف أم حتى مما في عقله الباطن، ﴿أَوَلاَ يعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (البقرة 77).

وأضيف، بما أنّ الأسرة وحدة المجتمع وأساسه، فيكون، بالتالي، أول واجبات الأبوين هو تهيئة البيئة الجيدة لتنشئة أطفال صالحين، وعدم تعدد الزوجات يساهم مساهمة فعَّالة في تربيتهم تربية صالحة. فإن تمكن أبٌ أن يعدل في تأمين منزلٍ خاصٍّ لكلٍّ من زوجاته، فأنّى يكون له أن يرعى أولاده في أربعة منازل منفصلة عن بعضها بعضًا، وقد لا يرى واحدَهم إلا مرة كل أربعة أيام، ولفترة وجيزة، قد لا تبلغ ساعة واحدة؟

ثم أين تصبح تلكما المودة والرحمة التي قالت عنهما الآية (21) من سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وكيف يكون السكن إلى أربعة؟! ولماذا قال: ﴿...لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟ فبماذا نتفكّر؟ ولا ننسى، أنّ كلمة (آية)، إذا نسبت إلى نبيّ فتعني (معجزة) أما إذا نسبت إلى الله تعالى، فتعني (علامة على قدرته، عزّ وجلّ).

فالسكن من السكينة، وهذه لا تعني فقط عدم الحركة، بل من معانيها أيضًا: الرحمة والوداعة والطمأنينة والأمن والوقار، ولا يكون هذا كله إلا من الاستقرار، وأين يكون الاستقرار لمن يعيش بين أربعة منازل؟ كلّ يومٍ في منزل؟

ولا بدّ لي، في الختام، من الإشارة إلى أنني أفهم من قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، أن الخطاب موجهٌ إلى الرجال والنساء على حدٍّ سواء، فكلمة «زوج» في العربية تطلق على الذكر والأنثى. ولو كان المقصود ب«الأزواج» النساء فقط لقال: «لتسكنوا إليهنَّ»، لا «إليها»، كما جاء في الآية، فبالتالي يكون السكن متبادلًا، أي أن يسكن الرجل إلى المرأة وتسكن المرأة إلى الرجل. أما تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، بأن المرأة خلقت من ضلع الرجل، فلا أراه

منطقيًّا، إن لم أقل: لا يقبله العقل. إذ ما أفهمه، أن المقصود، هو أنه تعالى قد خلق «الأزواج» من «النوع نفسه» إي أن الرجل والمرأة هما من نوع واحد، وكلاهما «إنسان». ولو عدنا إلى الآية التي تسبق الآية (الروم 20)، لقرأنا فيها أنّ الله خلق البشر جميعًا من التراب: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾. ثم نسأل: ألا يُخْلق الرجل من رحم المرأة؟ وأليست هي التي تحمل وتلِد؟

كما يعزز رأيي في أنّ المقصود، هو أنَّ المرأة والرجل خُلقا من النوع نفسه، ما جاء في الآيات التاليات:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان 28)،

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (فاطر 11)،

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ (الزخرف 12)،

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (النجم 45).

أضف إلى ذلك أيضًا، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، (التوبة 128).

وقد يحتج بعضهم بالسيرة النبوية بقولهم إنّ النبي ﷺ، قد توفاه الله عن تسع نساء. فعلى هذا أقول:

أولا: لقد كان ذلك استثناء له من الله تعالى، من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. (الأحزاب 50).

ثانيًا: من المعلوم أنه لم يتزوج بكرا سوى عائشة (رضي الله عنها)، ما يدل على أنّ زيجاته لم تكن لإرضاء رغباتٍ جنسية. ولكن كان لكل زيجة سبب، إما سياسي، أو إنساني، كالتي استُشهِد أو مات عنها زوجها، أو لرفع الحرج عن المؤمنين في الزواج من المحصنات من أهل الكتاب، أو من مطلقات الأدعياء.

«الحجاب الإسلامي»[1]

سألتني سيدة قالت: هل الحجاب فرضٌ على كلِّ مسلمة؟

قلت: هل تعنين: غطاء شعرها؟

قالت: أجل.

قلت: إنّ هذا الأمر قد اضطرّ المسلمين، وبخاصة في بلاد الغرب، إلى خوض صراعاتٍ عديدةً مختلفة الأوجه، ما كلّفهم الكثير من المتاعب، وصلت أحيانًا إلى درجة الأذية.

أولًا: إن تسمية هذا الغطاء بالحجاب خطأٌ لغويّ. ففي لسان العرب والصحاح في اللغة، والقاموس المحيط: «الـحِجابُ: السِّتْرُ. وحَجَبَ الشيءَ يَحْجُبُه حَجْبًا وحِجابًا وحَجَّبَه: سَتَرَه.» وقد وردت كلمة «حجاب» في القرآن الكريم بضع مرّات، بهذا المعنى، منها: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ...} (الأعراف 46)، و{فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا} (مريم 17)، و{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ} (الأحزاب 53)، [هنَّ نساء النبي ﷺ]، و{حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} (ص 38)، و{وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} (فصلت 5)، و{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ} (الشورى 51).

فالحجاب إذًا هو كل ما يستر أو يحجب الرؤية. وهذا يعني أنَّ مادته متغيرة حسب الحال، فقد يكون من القماش، كالستائر المنزلية مثلا، أو غيومًا، كما في قولنا: الغيوم تحجب الشمس، أو أكمة أو جدارًا أو غيره.

أما الصواب، فهو كما جاء في لسان العرب، الخِمَارُ أو النصيف: «والخِمَارُ للمرأَة، وهو النَّصِيفُ، وجمعه أَخْمِرَةٌ وخُمْرٌ وخُمُرٌ. والنصِيف: الخِمار، وقد نَصَّفَتِ المرأَةُ رأْسها بالخمار. وانتَصَفَت الجارية وتَنَصَّفت أَي اختمرت.» أو يمكن القول: «غطاء الشعر».

ثانيًا: إنّ تغطية شعر المرأة عادة متوارثة منذ ما قبل بعثة النبي محمد (ﷺ). فلا ينكر أحدٌ أن أشكال وألوان وأنواع الثياب التي ارتداها الإنسان منذ القدم، كانت دومًا ترتبط بطبيعة وجوّ الناحية من الأرض التي يعيش عليها. ولذا فإن العيش في الصحراء كان يفرض على سكان شبه الجزيرة العربية، منذ ما قبل ظهور

[1] كتبتها في 2020/1/27.

الإسلام، أن يرتدوا ثيابًا تحميهم من حرارة وأضرار أشعة الشمس الحارقة. فكان الرجال والنساء، على حد سواء، يرتدون الثوب الطويل الفضفاض، الذي يغطّي الجسد بكامله، كـ «الدشداشة» التي لم يزل سكان المملكة العربية السعودية ودول الخليج، يرتدونها على أنها زيّهم التقليدي، بالإضافة إلى غطاء الرأس؛ بشكل لا يظهر من جسم الإنسان سوى الوجه، واليدين إلى المعصمين، والقدمين إلى الكعبين. وكثيرًا ما كانوا يغطّون الفم والأنف لاتقاء رمال العواصف في الصيف، أو البرد القارس في الشتاء..

كما أن تغطية الرأس والجسد لم تكن تقتصر فقط على سكان تلك الصحراء بل كانت منتشرةً في جميع بلدان الشرق الأوسط، إن لم نقل في جميع أنحاء العالم. فلو زرنا مثلًا أيًا من المتاحف لرأينا أن الثياب التقليدية لمعظم شعوب العالم كانت تغطي كامل الجسد، من دون الوجه واليدين. كما أننا إن زرنا أيّ كنيسة لإخواننا المسيحيّين فلن نجد فيها أيقونة واحدة تظهر فيها صورة السيدة مريم العذراء (ع) من دون غطاء الرأس، بل أكثر من ذلك فإننا نراها دومًا لا يظهر من جسمها سوى الوجه واليدين. ولكنّ اليوم، ومع رفاهية وسائل النقل والتكييف فقد اختلف الأمر في نوع وشكل اللباس في جميع أنحاء العالم.

أما تمسّك بعضهم باعتبار الخمار، أو تغطية شعر أو رأس المرأة المسلمة فرضًا، أو رمزًا دينيًا أيضًا، فأراه يعود لما فهموه من تفسيرهم للآيتين: (59 من سورة الأحزاب) التي تقول: {يَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}، و(31 من سورة النور) التي تقول: {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَآئِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

ففي تفسيره للآية الأولى، يقول ابن كثير: «كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها، وقال

مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.» ولهذا في رأينا أضافت الآية: {ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ}.

وفي لسان العرب: «الـجِلْباب: القَمِيصُ. والـجِلْباب: ثوب أَوسَعُ من الـخِمار، دون الرِّداءِ، تُغَطِّي به الـمرأَةُ رأْسَها وصَدْرَها؛ وقيل: هو ثوب واسع...» ومن نص هذه الآية نتحقق أن الجلباب كان معروفًا قبل نزولها، أي قبل الإسلام، وأنَّ ما تأمر به، بقولها: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ} فهو ستر صدر المرأة كي لا تتعرض للأذى.

ويعزز رأينا هذا ما قاله الواحدي[1]: في أسباب نزول هذه الآية: «أَخرج ابن سعد في الطبقات عن أَبي مالك قال: كان نساء النَّبي صلى الله عليه وسلم يخرجنَ باللَّيل لحاجتهنَّ، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهنَّ فيؤْذَيْنَ، فشكوا ذلك، فقيل ذلك للمنافقين فقالوا: إنَّما نفعله بالإماء، فنزلت هذه الآية: {يَا أَيُّها النَّبيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ...}. ثمَّ أخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي.»

أما الآية الثانية، أي (31) من سورة النور، فيقول محمد علي الصابوني، في كتابه «صفوة التفاسير» في قوله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}: «أي وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلّا يبدو شيء من النحر والصدر». وفي هذا أولا، دليلٌ على أن الخمار كان موجودًا عند العرب قبل الإسلام، وثانيًا، أنَّه أمرٌ بتغطية الجيوب. وفي لسان العرب: «الجَيْبُ: جَيْبُ القَمِيصِ والدِّرْعِ، والجمع جُيُوبٌ. وفي التنزيل العزيز: ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ على جُيُوبِهِنَّ.» والجيب هنا هو هذا الشق الذي يفصل بين النهدين، وهي بالتالي مشابهة في المعنى لما جاء في الآية الأولى لناحية ستر الصدر والنحر. وبالتالي فالمطلوب من المرأة المسلمة ارتداء الثياب المحتشمة. وهذا في رأيي، ما تحدده عادات المجتمع الذي تعيش فيه.

وهنا أسال: لماذا يغفلون ذلك الجزء من الآية الأولى الذي يقول: {ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ...} والذي نفهم منه أنّ هذه الآية إنّما نزلت لرفع الأذى عن المسلمات. وهذا ما يجعلني أقول: إذا كان غطاء الشعر هذا قد يتسبب بالأذى للمسلمات والمسلمين المقيمين في بلاد الغرب، فإنّي أرى وجوب التخلي عنه، لرفع هذا الأذى.

[1] أسباب النزول – لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري – دار المعرفة بيروت – عام 2000.

فقالت السيدة: شكرًا على هذا التوضيح، ولكن هذا يؤدي إلى السؤال التالي: فما المقصود بالزينة في قوله تعالى: {وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَآئِهِنَّ...} (النور31)؟

قلت: لقد أوضحَت ذلك الآيةُ عينُها بقولها: {وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، أي أنّ هذه الزينة، في رأيي، هي كل ما تخفيه الثياب التي ترتديها في كل مرّة.

وفي الخلاصة، سيدتي الكريمة، فحسب مفهومي لمضمون آيات القرآن الكريم، أقول: إن ما يطلبه الله، خالقُنا ﷻ، من المرأة في هذا الأمر، هو الحشمة في اللباس تجنُّبًا للفتنة، لأنّه يعلم أنّ نفْسَ الرجل أضعفُ من نفسِ المرأة في السيطرة على الغريزة الجنسية.

فقالت: باركك الله، لقد أرحتني. وكررت الشكر، وانصرفت.

خواطر في هموم الوطن

حلمٌ ليته يتحقق[1]

الأحلام جزء من حياة كل إنسان، ترافقه على مدى سني عمره مهما تعددت. وعلى الرغم من العقود السبعة التي انقضت من عمري فما زلت أحلم.

يقول حلمي الأخير:

إنّ الرؤساء والزعماء والمسؤولين كافةً قد قرروا إلغاء النظام الطائفي في لبنان، فأزالوا كل نصٍ يمتُّ إلى هذا النظام بصلة، ولم يبقَ، سواء في الدستور أم في سائر القوانين والأعراف والتقاليد والعادات، ما يشير إلى التركيبة الطائفية التي كانت تهيمن على جميع الأنظمة؛ وأحلّوا محلها نصوصًا جديدة أساسها الولاء إلى هذا الوطن، والكفاءة، والمقدرة، والنزاهة.

فأصبحنا نعيش في ظل نظام ديمقراطيّ فعلًا لا قولًا. والأحزاب السياسية حلت محلَ التجمعات المذهبية والطائفية والعرقية. أما الأحزاب «الشخصانية» أو تلك التي قد لا يتعدى عدد أفرادها عدد مؤسسيها، فقد انحلت تلقائيًا وأصبح عدد الأحزاب منطقيًا وكافيًا. والولاء الأعمى للزعماء قد ولّى عهده إلى غير رجعة.

الناس بأجمعهم يتمتعون، إلى جانب حريّة الرأي والمعتقد والقول، بالأمن والأمان، فالسلم الأهلي تمسكه الأجهزة الأمنية بيد قوية عادلة حكيمة. والأسلحة اختفت كلّيًّا من البلاد ولم يبقَ على أرض الوطن سوى سلاح المؤسسات الشرعية وحده. ولم نعد نسمع أصوات الرصاص أو القذائف تدوّي في مناسبة أو في غير مناسبة، أو كلّما ألقى الزعيم الفلانيّ خطبة، أو ظهر في مقابلة على إحدى شاشات التلفزة...

وانتخب الشعبُ مجلسَ نواب جديدًا استنادًا إلى قانونٍ جديدٍ وُضع على أساس الدائرة الفردية بحيث يدلي الناخب بصوته لمرشح واحد فقط، وفي المكان الذي يقيم فيه، لا في مكان قيد نفوسه، هذا المكان الذي قد يكون هجره منذ سنوات عديدة، ولم يعد يعرف عن احتياجاته إلا القليل.

[1] نشر هذا المقال في جريدة النهار الأربعاء 29 تموز 2009 - السنة 76 - العدد 23769.

واكتمل عقد المؤسسات الدستورية والعامّة، من قمّة الهرم إلى قاعدته، بأشخاصٍ مشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والإخلاص للوطن، يملأ صدورَهم وعقولهم إيمانٌ بأنهم ليسوا هم السادة وسائرُ المواطنين عبيدًا أو خدامًا لديهم. فأزالوا ذلك الشعور بالعداء الذي كان يشعر به كلٌ منا، نحن المواطنين العاديين، تُجاه الدولة وقوانينها ومؤسساتها. كما لم يعد المواطنون يُصنَّفون درجاتٍ تبعًا لانتمائهم المذهبي، بل أصبح هذا التصنيف يتم تبعًا لكفاءة كل منهم.

ثم قام المشرّعون والنواب بتعديل وتحديث جميع القوانين والأنظمة بما يناسب العصر الذي نعيش فيه، ولم يُبقوا على أي فجوة في النصوص يمكن لأي موظفٍ ضعيف النفس أن ينفذ منها ليحقّق لنفسه مكسبًا ماديًا أو معنويًا. كما صحّحوا الأخطاء التي قد تتسبّب بالتناقض فيما بين نصّ وآخر، يكون المكلّف البريء ضحيّة ما قد ينتج عنه. وأصبحت جميع النصوص والأنظمة والإجراءات القانونيّة واضحة جليّة لا لُبس فيها. فانعدم الفساد والرشوة وتحقّقت العدالة وأصبح المواطن يقوم بواجباته من دون أي تذمّر أو تأفّف أو شعور بالغبن أو الاستغلال، كما أصبحت حقوقه تصل إليه كاملةً من دون أي انتقاص أو مِنّيّة. وجميع المواطنين، يرعى أوضاعَهم الصحيّةَ نظامٌ حديثٌ متطور يتناسب مع متطلبات العصر. أما نظام التعليم فقد أصبح من أفضل الأنظمة في العالم؛ فالتعليم إجباريٌ حتى نهاية المرحلة الثانوية، ما جعل كلمة «أميّة» تُلغى من بين المفردات اللغويّة في بلادي. ومناهج التعليم أصبحت واحدة موحدة في جميع المدارس والجامعات.

البرامج والخطط لحاجات البلاد المستقبلية التي تمتد على مدى خمسين أو مائة عام، ووسائل تطبيقها وتنفيذها، لا تقتصر فقط على قطاع التعليم، بل أصبحت تشمل جميع القطاعات، وخاصة المشاريع الإنشائية واستغلال الموارد الطبيعية والمحافظة على البيئة. وعاد لبنان حلوًا أخضرَ وربيعًا أنورَ.

القوانين والأنظمة تطبّق بحذافيرها. والغشُّ والاستغلال والجشع والاحتكار انقطع دابرهن جميعًا وإلى الأبد. وانعدم الهدر من صناديق مؤسّسات القطاع العام ولم تعد الخزينة تعاني من العجز الدائم. والكهرباء والماء وسائر خدمات المعيشة، توزع على المواطنين كافةً وعلى جميع المناطق بالتساوي ومن دون أي انقطاع أو تقنين. وانخفضت الضرائب فلم تعد ترهق كاهل المكلّف. كما انخفضت كلفة المعيشة فأصبح دخلُ الفرد كافيًا كي يؤمّن له عيشة راضية.

العاملون في القطاع العام أصبحت رواتبهم متساوية مع رواتب القطاع الخاص، ولم تعد نفوسهم تتقبّل المذلة من الرشوة. كما لم يبقَ لديهم وقتٌ لحل الكلمات المتقاطعة في ساعات دوام العمل. وأصبح المواطن يشعر بالمتعة، لا بالمهانة، إذا ما انتقل إلى دائرة حكومية لإنهاء معاملة ما.

القضاء أصبح مستقلًّا، نصًّا وروحًا، والقضاة يطبقون القوانين بعيدًا عن تدخّل السياسيين.

وبعدُ، ألا يحق لي أن أتمنى لهذا الحلم أن يصبح حقيقة؟ أم أنّه مستحيلٌ التحقّق، لأنَّ الإخلاص والنزاهة والوطنية والكفاءة، قد اختفت من هذا البلد الحبيب؟

اللهم سبحانك لا تجعل أمنيتي هذه كقول الشاعر:

إذا تمنيتُ بِتُّ الليلَ مغتبطًا *** إنَّ المُنى رأسُ أموالِ المفاليس.

تشبهوا بالكبار[1]

يروى أن ابن السمّاك دخل يومًا على هرون الرشيد. فكان أن طلب الرشيد الماء ليشرب، فقال له ابن السماك: مهلًا يا أمير المؤمنين، لو مُنعِتَ هذه الشُربة بكم كنت تشتريها؟ قال بنصف ملكي. قال ابن السماك: اشرب.. فشرب. فقال له: لو مُنعِتَ خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري ذلك؟ قال: بجميع ملكي. فقال ابن السمّاك: إن ملكًا لا يساوي شربة ماء ولا خروج البول لجدير ألّا ينافس[2] فيه.. فبكى الرشيد.

لم يكن الرشيد رئيسًا منتخبًا لمدة يحدّدها قانونٌ أو عرفٌ، يفترضُ في نهايتها، كي يبقى على كرسي الولاية، إعادةُ انتخابه أو تعديلُ ذلك القانون، بل كانت ولايته تمتد حتى آخر أيام حياته، كما كان له الحق أيضًا في تعيين خليفة يحكم الرعية من بعده.

ولمّا وُلّي أبو بكر الصديق الخلافة، صعِد المنبر وقال:

«أيها الناس: أما بعد: فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيتُه فلا طاعة لي عليكم...»

فإذا كان الرشيد على استعداد لأن يضحيَ بملكه هذا في سبيل كمّية من الماء تدخل جسده أو تخرج منه،

وإذا كان أبو بكر يقول للناس: إذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم،

وإذا كان عمر بن الخطاب يقول: كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

فكيف يستطيع رئيس دولة، ممن انتخبه شعبه، (إذا ما طالبه هذا الشعب يومًا، سواءً بإصلاح فسادٍ، أم بحيّزٍ من الحرية، أو حتى بإنهاء تلك الولاية المكرّرة مرّات عدة،) أن يضحي تقتيلًا وتجريحًا بالمئات، بل بالألوف، من هذا الشعب،

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة العدد 17568 تاريخ 2011/5/11 الموافق 8 جمادى الثانية 1432. وقد كتبته على أثر الثورات الشعبية التي قامت في العالم العربي من تونس إلى مصر ثم اليمن وليبيا وسوريا، وسميت «بالربيع العربي»، وبعد أن تنازل كل من رئيسي تونس زين العابدين بن علي ومصر محمد حسني مبارك. بينما لم يزل الباقون مصرين على البقاء على كراسيهم.

[2] نافَسَه في الشيءِ منافسةً: رغب فيهِ على وجه المباراة في الكرم وبالغ فيهِ وغالى وزايد.

من دون تفريق بين صغير أو كبير، بين رجل أو امرأة، في سبيل البقاء على كرسيّ الحكم عامًا أو عامين يليان عشراتٍ قبلهما؟

وإن كنتَ أيها الرئيس الموقر لا تريد أن تتشبه بأبي بكرٍ أو بالرشيد، مدعيًا بأنك حررت بلادك من إمبراطور عاتٍ أو ملكٍ ظالمٍ أو رئيس خائنٍ، فلعلكَ تتشبه بالجنرال شارل ديغول الذي حرر فرنسا فعلًا من الاحتلال النازي، وأسّس الجمهورية الخامسة. وإن كنت نسيت قصته، إن كنت ممن عاصروه أم أنّك لم تقرأها، لأنك تتعالى عن قراءة كتب التاريخ، إذ كيف تفعل ذلك وأنت «تصنع التاريخ»؟ فسأوجزها لك:

في العام 1968 عَمَّت المظاهرات شوارع باريس وبعض فرنسا، وعلى أثرها أعلن رئيس الجمهورية الجنرال ديغول عن إجراء استفتاءٍ حول مشروع إصلاحات اجتماعية واقتصادية، وقرن إعلانه هذا بتصريح بأنّه إن لم يَنَل المشروع موافقة الأكثرية من الشعب، سيستقيلُ من منصِبِه. جرى الاستفتاء في 27 نيسان 1969، وفي اليوم التالي، أي 28 نيسان، جاءت نتيجة الاستفتاء، بأن قال52.41 %: «لا»، وقال 47،59%: «نعم»، فسقط المشروع. فإذا بباني فرنسا الحديثة لم ينتظر حتى صباح اليوم التالي ليعلن موقفه فبعد عشر دقائق فقط من منتصف الليل، صدَرَ عنه بيانٌ موجَزٌ جاء فيه حرفيًا: «أُعلِنُ توَقُّفي عن مُمارسة مهامي كرئيسٍ للجمهورية. ويصبحُ هذا القرار نافذًا عند ظهر اليوم: 29 نيسان 1969». وفي العام التالي توفي ديغول فبكاه الفرنسيون جميعًا.

فلماذا يا أيها «الرؤساء الأجلّاء» لا تتشبهوا بمن سبقكم من الكبار فيحافظ كلّ منكم على كرامته ويتنحّى قبل أن يُسقطه ويُذلّه شعبُه!؟ وتذكّروا دومًا قول الشاعر: «إنّ التشبّه بالكرام فلاحُ».

ثم بالله عليكم أيّها «المبجّلون»، ألم تُشبِع عيونَكم تلك السنوات التي قضيتموها في الحكم؟ أم أنكم تريدون فعلًا تطبيق المثل القائل:

«إن عينَ الإنسان لا يُشبعها إلّا التراب»؟

ثورةٌ بلا سلاح[1]

في الذّكرى الثالثة والستين لنكبة فلسطين، تقاطر الآلاف من إخواننا الفلسطينيين متجهين إلى نقاط التّماس مع الأرض السليب، في جنوب لبنان والجولان السوري والضفة الغربية وقطاع غزة، ليلقوا نظرات الحسرة على أرض بلادهم التي حُرِّمت عليهم، وليسيروا على الدروب التي سلكها آباؤهم وأجدادهم يوم هُجِّروا من ديارهم كُرهًا وغصبًا ومن دون أي وجه حق.

وعندما شاهدتُ تلك الجموع على شاشات التلفزة، عادت بي الذاكرة إلى مقولة لمؤسس الصين الحديثة، ماو تسي تونغ في خمسينيّات القرن الماضي إذ قال: «لو كنت في مكان العرب لحرَّرتُ فلسطين بمائة ألف أعزل». وقد كان يومها مجموع عدد سكان العالم العربي بنحو الثمانين مليونًا، أي أن العدد الذي طلبه ماو كان يعادل خمسة أفرادٍ من كل أربعة آلاف نسمة.

ثم ما لبثتُ أن تذكرتُ حدثين: أولهما لا بدّ أن كثيرين ممّن عاصروه وما زالوا على قيد الحياة، عنيت تلك الثورة السلمية التي أعلنها المهاتما غاندي والتي أدت إلى استقلال الهند عن بريطانيا العظمى في 15 آب (أغسطس) من العام 1947. فالهدف من سياسة اللاعنف في رأي غاندي هو «إبراز ظلم المحتل من جهة، وتأليب الرأي العام على هذا الظلم من جهة ثانية، تمهيدا للقضاء عليه كليًا أو على الأقل لحصره والحيلولة دون تفشيه».

أما الحدث الثاني، فلم تزل مشاهده شاخصةً أمام أعيننا، ألا وهو ثورة أطفال الحجارة التي انطلقت في قطاع غزة والضفة الغربية في فلسطين المحتلة، في ثمانينيّات القرن الماضي. في حينه عندما رأيت على شاشات التلفزة أول مشاهدها تمنيت فورًا أن يبقى السلاح بعيدًا عن ساحتها. ولشدة ما تعاطف الرأي العام العالمي مع أولئك الأطفال، الذين كانوا يواجهون يوميًا دبابات وجنود الاحتلال بصدورهم العارية وبمطالبهم المحقة، وبخاصة أنّ عهد المحطات الفضائية كان قد ابتدأ، فقد أربكت هذه الثورة قادة الاحتلال إرباكًا عظيمًا جعلهم على وشك اتخاذ القرار بالانسحاب من الضفة والقطاع. ولكن عنصران مهمان حولا بداية ذلك النصر إلى هزيمة، وهما ظهور السلاح واتفاقية أوسلو. فمع بدء الفصائل

[1] نشر هذا المقال في العدد 17592 من جريدة الحياة - بيروت تاريخ 2011/6/4 الموافق 2 /1432/7.

الفلسطينية باستعمال السلاح، عرف الإسرائيليون أن يُبيّنوا للعالم، وهم أرباب الإعلام، بأنهم يواجهون حرب إبادة وهم الأقلية التي ستغرق في بحر العرب والمسلمين، إن لم يواجهوا السلاح بسلاح أقوى منه. فكانت المجازر التي لم يفرّقوا فيها بين كبير أو صغير، وكان منها قتل الطفل محمد الدرّة، العائد من المدرسة، بدمٍ باردٍ وأمام عدسات المصورين، غير آبهين في أن يراها العالم أجمع. وقد اتضح فيما بعد أن الأسلحة الأولى التي استعملها في ذلك الحين مقاومون من أبناء فلسطين، كانت مشتراة من الإسرائيليين أنفسهم، إن لم نقل بأنهم هم الذين زودوهم بها بطرقهم الخبيثة.

أما اتفاقية أوسلو، وما جرّت من ويلات، سواء على قضية فلسطين أم على أبنائها وقادتها، فحدّث عنها ولا حرج.

فيا إخواني أبناء فلسطين، دعوا جانبًا جميع الفصائل والمنظمات ولا تأتمروا بأيٍّ من قادة «فتح» أو «حماس» أو «الجهاد» أو غيرها... ودعوا ما أُطلقَ عليه خطأً تسمية العمليات الاستشهادية، وعودوا إلى ما قاله ماو تسي تونغ، وتمثلوا بالمهاتما غاندي، وانطلقوا بثورة سلمية حتى النصر، عمادها مئات الآلاف من شباب الأرض المحتلة، أيديهم ناصعة وصدورهم عارية ورؤوسهم مرفوعة، ورايتهم كلمةُ حق تنطلق من أفواهٍ حرة.

ولا تنتظروا من الأربعمائة مليون من أبناء يعرب سوى كلمات «التضامن الوجداني» التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع. واصبروا وصابروا، «فما لكم والله إلّا الصدق والصبر».

وإلى نصرٍ قريبٍ انشاء الله.

اعتبروا يا أولي الألباب[1]

لم يكن مشهدًا عاديًا، مشهدُ محمد حسني مبارك في قفص الاتهام، ذلك الرجلُ الذي رئس جمهورية مصر العربية على مدى ثلاثة عقود، لم تكن كافية لتشبع شهوته في التربّع على كرسيّ الحكم، بل كان يقول: هل من مزيد؟ لقد نسي أو تناسى، إذ قد حرمته الصبغة الاصطناعية رؤية شعره الأبيض، أنه جاوز الثمانين التي قال فيها شاعر العرب زهير بن أبي سُلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعشْ** ثمانين حولا لا أبك يسأمِ

لم يشأ أن يتنحى عزيزًا مكرّمًا ليقضي ما تبقّى له من أيام العمر «رئيسًا سابقًا محترمًا»، قبل أن يخلعه شعب مصر، الذي أرهقته نزوات وتصرفات ذلك «المتصابي»، الذي حسب نفسه مالكًا لأرض مصر وشعبها، يورّثهما لمن يشاء.

حين أمر بقمع المظاهرات السلمية بالحديد والنار، فزهقت المئات من الأرواح، كان حسني مبارك قد نسي قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة 179). فلم يتّقِ، بل ولم يدُرْ في ذهنه أنه قد يمثل، يومًا في هذه الدنيا في قفص الاتهام، أمام قاضٍ من أبناءِ شعبه، مذلولًا مذمومًا مدحورًا.

في العام 1952 سارت في شوارع بيروت (عاصمة أصغر الجمهوريات العربية)، وحدها ومن دون سائر البلدات اللبنانية، مظاهراتٌ تطالب الشيخ بشارة الخوري بالتنحّي، على الرغم من أن السنوات التي كان قد قضاها لم تكن قد بلغت العقد الواحد. لم يمضِ أكثر من أربعة أيام على تلك المظاهرات حتى امتثل، رئيس جمهورية الاستقلال في لبنان، لإرادة الشعب وأعلن استقالته الفورية، ولم نرَ يومها نقطة دم واحدة تقطر من جرح. بعدها عاش الشيخ بشارة في بلده معززًا مكرّمًا حتى وافته المنية، فأقيم له مأتم رسمي يليق برئيسٍ سابقٍ للجمهورية. كما أقيم له تمثالٌ لم يزل منتصبًا في أحد أهم شوارع بيروت والمسمى أيضًا باسمه.

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد 2011/9/10 رقم 17690.

أما أنت يا «سيادة» الرئيس المخلوع فقد مزق شعبك حتى تلك الصور اللواتي اعتقدت أنّه سيتبارك بها مدى الدهر، فأين أنت من ذلك الرئيس الذي احتفظ بكرامته وفرض احترامه على الناس في حياته وفي مماته؟

وأنتم أيها الرؤساء «المبجلون» الذين ما زلتم «متعمشقين» بأرجل كراسي الحكم، ولو كلّف ذلك شعوبكم مئات بل آلاف القتلى، فبالله عليكم اتعِظوا مما جرى ويجري لمن سبقكم، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ} (يوسف 111). وامتثِلوا لإرادة أبناء شعوبكم الذين كسروا حواجز الخوف والرعب، التي نصبها أزلامكم من رجال «المباحث» أو «المخابرات» أو «الأمن» الخ... وبدأوا بتحطيم تماثيلكم وصوركم التي رُفعت، برغباتكم وأوامركم أنتم، في جميع أنحاء البلاد التي حسبتم أنّكم مالكوها مدى الدهور.

فالبقاء على كرسيّ الحكم لا يُفرض على الشعوب غصبًا بالحديد والنار، ولا بالتقتيل أو بالاعتقال أو بكمِّ الأفواه. والاحترام الذي تريدونه من شعوبكم لا يأتي من تلك التماثيل أو الصور، إنما يفرضه احترامكم أنتم لإرادة هذي الشعوب، وتذكروا ذلك المثل الذي علمونا إياه في صغرنا: «قيل للصغير: احترم من هو أكبر منك سنًا. قال: فليحترمْ هو نفسَه.»

وأخيرًا أذكركم بقول الشاعر:

قُلْ لِمَنْ حَسِبَ الزَّعامَةَ إرْثَةً *** ما الخَلقُ مُلكُ أبِيكَ كالأنعامِ

وأختم قائلًا: اعتبروا يا أولي الألباب، إن كنتم حقًا أولي ألباب.

لا تستقووا بالأجنبي[1]

منذ بدء الحَراك الشعبي في سوريا، اعتاد المتظاهرون أن يطلقوا شعارًا لمظاهرات ينظمونها في كل يوم جمعة، أسوة بما سبقهم إليه إخوانهم في تونس ومصر. وبالأمس، يوم الجمعة في 2011/9/9، سارت مظاهرات، في مدن وبلدات سورية، تحت شعار «جمعة الحماية الدولية». وقد طالعتنا إحدى الصحف بصورة للافتة رفعت في مدينة إدلب حوت، بالإضافة إلى الشعار المذكور، عبارة: «أنقذونا من أنياب الأسد».

فيا إخواني الشباب، في جميع الأقطار، الذين تطالبون بالحرية والديمقراطية، أرجوكم وأتوسل إليكم ألّا تستقووا بالأجنبي، ودعوه بعيدًا عن بلادكم ومدنكم وقراكم وبيوتكم، فتكونوا، على حد قول المثل الشعبي، كمن أحضر «الدُّب إلى كرمه».

ألم تروا ماذا جلب لنا، في لبنان، الاستقواء بالأجنبي؟ لقد كانت النتيجة أن تفرقنا شيعًا ومذاهب تتناحر، يوميًا، وأن حلَّ في النفوس الكُره والحقد عوضًا عن المحبّة التي توصي بها جميع الأديان والمذاهب؟ حتى الفساد الوقح استشرى في النفوس أيضًا وفي زوايا المكاتب والدوائر الحكومية، يحميه ذلك التشرذم الذي نعيش في ظله. أرجوكم اقرأوا عن أحوالنا قبل أن ترموا أنفسكم بأيديكم إلى التهلُكة.

ثم هذا هو العراق الحبيب مثالٌ آخر لما جرّه عليه استقواء أبنائه بالأجنبي. ألا ترون ماذا يحصل فيه يوميًا من تقتيل وتدمير وسرقاتٍ لثروات أحد أغنى أقطارنا العربية؟ أرجوكم اتعظوا.

وهذه أفغانستان وجارتها الباكستان أنظروا كيف يقتل أبناؤهما المسلمون إخوانهم في الدين وهم في المساجد يقيمون الصلاة. وبالله أصدقوني: هل رأى أحدكم دمعة واحدة ذرفتها عين أحد المسؤولين، سواء في أوروبا أم في أميركا، حسرة على مئات، بل آلاف، الأرواح التي تزهق في هاتين الدولتين؟ أم هل سمعتم أحدهم ينطق بكلمة أسًى واحدة عليها؟ فكأنها أرواح حيوانات «مرضى بالطاعون»؟

[1] كتبت هذا المقال في 2011/9/10.

ولا تتجاهلوا ما جرى ويجري في فلسطين الحبيبة. ولا ما يحصل في السودان والصومال وغيرهما من البلدان الإفريقية. والشواهد كثيرة.

كما أسألكم يا أبناء الأمة الواحدة، مسؤولين من جميع المستويات، ومواطنين، شيبًا وكهولًا وشبابًا، ألّا تحتكموا إلى السلاح مطلقًا لحل مشاكلكم الداخلية، فلتبقَ الكلمة أقوى الأسلحة بينكم. فالسلاح لا يجرُّ سوى الدم والدمار، ومتى جرت الدماء فلن تجدوا من يقدر على وقف سيولها.

عودوا إلى معتقداتكم وتعاليم أديانكم وإلى عاداتكم وتقاليدكم العريقة المفعمة بروح المحبة والأخوَّة، وهي كفيلة بحل مشاكلكم وتلبية طلباتكم المحقة.

بالله عليكم لا تقتلوا أنفسكم، ولا تدمّروا بلادكم وتُمسوا تبكون عليها، كما يفعل الأطفال بلُعبهم، وكما فعلنا بلبناننا الذي حوّلناه من «سويسرا الشرق» إلى بلد نحلم فيه برؤية نور الكهرباء.

ولا تنسوا قوله تعالى:

{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...} (الإسراء 7)

{وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ...} (الشورى 30)

اللهم فاشهد إني قد بلغت والله خير شهيد.

في لبنان أيضًا نريد تغيير النظام[1]

النظام في لبنان فريدٌ في نوعه، قد لا نجدُ له شبيهًا في سائر أقطار العالم. وَضَعت أولَ أسُسِهِ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أيدٍ غريبةٌ عنه منها البريطانيُّ والفرنسيُّ والروسيُّ والتركيُّ... ومنذ ذلك الحين وهو يتعرض للتغيير والتبديل والتعديلِ، إمَّا بأيدٍ غير لبنانية، أو بتحريض منها، كما تعمل دومًا، على إيهام القاصي والداني بأنّ هذا النظام نموذجٌ يحتذى به. ولكن ما هو في الواقع هذا النظام؟

أولى قواعده، التشرذم السياسي والمذهبي:

ثمانية عشر قانونًا ترعى الأحوال الشخصية لأبنائه كلٌّ حسب مذهبه. فإذا به بدل أن يكون وطنًا موحدًا لجميع أبنائه تحول إلى ثماني عشرة مزرعة أو يزيد، يتحكم بكلٍ منها زعيمٌ سياسيٌّ اقطاعيٌّ، «حديثُ الأساليب، عصريُ الوسائل». هؤلاء الزعماء يجمعهم قاسمٌ مشتركٌ واحدٌ، هو التسابق والتصارع لاقتسام ما تبقى من خيرات هذا البلد. أمّا مصلحته فلا يعنيهم منها سوى كونها مادة للتشدق من على المنابر وأجهزة الإعلام بأنهم حُماتها. هم يسوقون المواطنين كما يسوق الرعاة القطعان، لكنَّ عِصِيَّهم هي الطائفية والمذهبية والحزبية الضيقة، يتلاعبون بها بعقول العامّة، يساعدهم في هذا طبقة من المنتفعين، معنويًا وماديًا، من المناصب التي فُرِضوا فيها كي يأتمر كلٌّ بما تقتضيه مصلحة ذاك الزعيم الذي فرضه، لا بما تقتضيه مصلحة وطنه. وإذا التقى اثنان من أولئك الزعماء في مجلس خاص تراهما يتعانقان، تقولهما صديقين حميمين، ولكن إذا ما لاح أمامَهما أحد أجهزة الإعلام، تراهما يهاجم أحدهما الآخر متناسيًا تلك القبل، بل ومكيلًا التهم بحقه، وقد يصل الأمر أحيانًا إلى الشتائم. نعم هؤلاء هم زعماء هذا البلد التعيس بهم.

ثانيها: المحاصصة المذهبية واستغلال المراكز والوظائف:

يقوم كلٌّ من هؤلاء، الذين يسمَّون زورًا «زعماء»، بالمطالبة بحقوق طائفته. ولكن كيف؟ يريدون إصدار «سندات تمليك» بوظائف ومراكز معينة كي يفرضوا

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد 2011/11/19.

فيها من كانت كفاءته أنّه ينتمي أولًا إلى تلك الطائفة، وأن يكون ثانيًا من المقربين من أولئك «الزعماء». أمّا الكفاءة العلمية والعملية والنزاهة والإخلاص فأمورٌ أصبحت من الميزات التافهة البالية البائدة. وغالبًا ما يكون هذا المقرّب نفعيًّا ومتزلفًا قادرًا على أن يتعهّد رعاية مصالح ذاك الذي أنعم عليه بهذا المركز أو بتلك الوظيفة، تحت ستار المحافظة على حقوق طائفته. ثم لا يمضي وقتٌ طويلٌ حتى تظهر آثار النعم على هذا المقرّب فتمتلئ حساباته في البنوك ويشتري السيارات الفارهة والشقق الفسيحة الفخمة، ثم يبني في قريته «فيلة» أو حتى قصرًا، وقد يشتري أيضًا طائرة خاصة حسب درجة منصبه. عداك عن شراء العقارات في منطقته. وكي يظهر بمظهر المحافظ على تراث «أجداده» فقد يشتري المنازل القديمة المهدّمة أو الأثرية ويعيد ترميمها.

ثالثها: القوانين والأنظمة المطاطة

وكي يتمكن أولئك الزعماء من إدارة البلاد حسب ما تقتضيه «مصالح طوائفهم»، يفرضون على جهابذة التشريع إصدار قوانين وأنظمة مفصّلة على القياسات التي تكفل لهم تفسيراتها حسب المقتضى. فإذا كان تفسير بعض مفردات أو عبارات اللغة العربية ينطلق من مبدأ: «في المسألة قولان»، ففي القوانين والأنظمة اللبنانية كثيرًا ما نجد أن في «المسألة بضعة أقوالٍ» حسب الحاجة. فيتحوّل تطبيق هذه القوانين والأنظمة إلى الاستنسابية والعشوائية بما يكفل زيادة «كلفة الفتاوى» في تفسير نصوصها لتغطية أعباء خدمة مصالح «ملوك الطوائف» وإتباعهم. كما أنّ ما يُعدّل، كتابةً في النصوص الدستورية، فلا يطبّق منه إلّا ما يخدم مصالح أولئك الزعماء.

رابعها: الفساد في الإدارات

من جرّاء ذلك فقد غدت أعمال الإدارات والمصالح العامة تسير من دون رقيب أو حسيب، وتفشى الفساد حتى في زواياها. وإذا صدف وجود رئيسٍ، «من مخلّفات الذين لا يقدِّمون المصالح الشخصية على مصلحة الوطن»، وقضت ظروف العمل أن يعاقب مرؤوسًا ارتكب مخالفة ما، وكان هذا المرؤوس من غير مذهب ذاك الرئيس، أو كان «مدعومًا»، عندها تقوم البلاد ولا تقعد بحجّة أنّ ذلك الرئيس قد اعتدى على طائفة أو مذهب ذلك المرؤوس أو زعيمه. وتنبري أجهزة الإعلام بمهاجمة ذلك الرئيس، دفاعًا عن مصالح المذهب الذي تدّعي أنّها تنطق باسمه.

وبدل تسهيل معاملات المواطنين وتبسيطها، أسوة بما يجري في البلدان المتحضرة، نرى مسؤولي تحديث القوانين، يزيدون هذه المعاملات صعوبة وتعقيدًا بحجّة محاربة الفساد. ولكن، كي يتمكن المكلّف من إنجاز معاملته بالسرعة التي تقتضيها حاجته إليها، يضطّر مُرغمًا إلى دفع «بدل أتعاب ذلك الموظف الخدوم» بمبالغ تزداد قيمُها حسب أهميّة تلك «الخدمة»، وهنا نادرًا ما يُقبل هذا البدل بالعملة اللبنانية، لأن العملة الخضراء أضمن منها.

خامسها: قهر المواطن وإرهاقه

ولتغطية الهدر غير المعقول في الأموال العامّة الناتج عن الفوضى في الإنفاق، سواء كان عن سوء إدارة أو تقدير، أم عن التضخيم المفتعل في كلفة تنفيذ المشاريع، أم لتغطية عجز مصلحة الكهرباء، أو ما شاكلها، يعمد «ملوك الطوائف» إلى فرض الضرائب والرسوم والغرامات الباهظة والمجحفة، والتي تؤدي أيضًا إلى زيادة غلاء المعيشة، من غير أن يرفّ لهم جفن على أحوال هذا المواطن الذي بات صبره يفوق صبر «الحمير». وكي يخفّف عن كاهله من قيمة هذه الضرائب أو ملحقاتها يضطر المكلّف أن يلجأ إلى طلب «الخدمات» من ذلك الموظف «الخدوم»، ليصدر له «الفتوى» التي من شأنها ليس فقط، تخفيض المبالغ المتوجبة عليه، بل أيضًا تغطية كلفة تلك «الخدمة»، والتي تحدّد أيضًا بالدولار الأميركي، فكلمة الألف مثلًا أخف وقعًا من المليون ونصف المليون[1].

فيا أخي اللبنانيّ الذي يحبُّ لبنانه حقًا، لا رياءً، إلى متى سنبقى صامتين مقهورين تاركين رقابنا دانية تحت نير العبودية هذه؟ فلنقُمْ قومة رجل واحد مطالبين بإسقاط هؤلاء «الملوك». فإذا كان القذّافي قد حكم ليبيا ما يزيد عن الأربعين سنة فهم يحكموننا، وبالتوارث، منذ ما قبل نشوء دولة لبنان. أما إذا بقينا مشرذمين خانعين فعلى بلدنا السلام، فينطبق علينا المثل: «على نفسها جنت براقش».

ولتكن ثورة، سلاحها الأقلام والصوت المرتفع، تستمر حتى الإطاحة بهؤلاء الطغاة وبنظامهم الفاسد، لنعيد بناء لبناننا كما نريده نحن لا كما يريدونه هم.

وإلى اللقاء في ساحة الحرية.

[1] باعتبار أن قيمة الدولار الواحد تساوي ألفًا وخمسمائة ليرة لبنانية.

أهكذا تكون حرية الرأي والتعبير؟[1]

يوم الخميس الفائت (2011/12/22) أقرّت الجمعية الوطنية الفرنسية (مجلس النواب)، بغالبية كبيرة، اقتراح قانون يقضي بتجريم من أنكر أيّة «إبادة» يعترف بها القانون الفرنسي، ومنها ما أسمته: «إبادة الأرمن» إبّان الحرب العالمية الأولى. وهناك «إبادة» أخرى يعترف بها القانون المذكور ويجرّم كلّ من شكّك فيها، هي «محرقة اليهود»، ففي العام 1998 حكمت محكمة فرنسية على المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي بتهمة التشكيك في تلك «المحرقة» في كتابه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل»، لأنّه شكك في الأرقام الشائعة عن «إبادة» يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازيين. وقد كان يومها في الخامسة والثمانين من سني العمر.

لست هنا في معرض إثبات أو نفي أيّ من الأحداث التي حصلت في التاريخ الحديث أو المعاصر، فهذا أمر أتركه للخبراء والباحثين الموضوعيين المتخصّصين. ولكن ما يعنيني هو خيبة الأمل التي خلّفها في نفسي إقرارُ قانونٍ كهذا في بلد يعتبر نفسه حامي الحرية بكل معانيها، ويتغنى دومًا بشعار يرفعه أمام العالم بأسره منذ نجاح ثورة شعبه الشهيرة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، ألا وهو: «حرية – إخاء – مساواة».

وكإنسانٍ عاديٍ دفعتني سنوات العمر، التي تخطت السبعة عقود، إلى أن أطرح على السلطات في فرنسا بخاصّة، وفي سائر أنحاء «العالم المتحضر» عامّة، الأسئلة التالية:

أولا: هل يضمن الدستور الفرنسي حرّية الفكر والقول والتعبير والمعتقد أم لا؟ فإن كان الجواب بالإيجاب، فيصبح سؤالي: ألا يتعارض ذاك القانون مع نصوص هذا الدستور فيسلب الباحث المفكّر حقّه في هذه الحرية؟ أمّا إن كان الجواب سلبًا فهي الطامة الكبرى!!؟

ثانيًا: هل تعتبر السلطات الفرنسية، حسب معاييرها، ما حصل فقط للأرمن في الحرب العالمية الأولى، ولليهود في الحرب العالمية الثانية، بمثابة عمليتي إبادة من دون سواهما؟

---

[1] كتبتُ هذا المقال في 2011/12/24، وتريثت في نشره بانتظار قرار مجلس الشيوخ الفرنسي. ثم عدلت عن نشره في حينه بعد أن أسقطه هذا المجلس.

ثالثًا: ألم تقم السلطات الفرنسية عينها، إبّان استعمارها للجزائر، بقتل ما يزيد عن مليون إنسانٍ لمجرد أنهم كانوا يطالبون بالاستقلال والحريّة، أحد ثالوث الشعار الفرنسي؟

رابعًا: لماذا لا تتجرأ أيّ من حكومات دول العالم «المتمدن» ولو بالإشارة، موحيةً أن ما فعلته الولايات المتحدة الأميركية، هو أيضًا «إبادة» حينما قتلت في دقائق معدودات مئات الآلاف من اليابانيين يوم ألقت قنبلتين ذريّتين على مدينتي هيروشيما وناكازاكي إبّان الحرب العالمية الثانية؟

خامسًا: ماذا يعتبر، في معايير ومقاييس دول العالم «الحر»، ما قامت وتقوم به السلطات «الإسرائيلية» (الطفل المدلل للولايات المتحدة الأميركية) منذ العام 1948 وحتى أيامنا هذه، من تقتيل وتعذيب وتشريد لأبناء فلسطين لمجرد أنهم يطالبون بالاستقلال والحرية؟

سادسًا: والحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأميركية، في العام 2003، على العراق بحجّة أنّه يمتلك أسلحة دمار شامل، تبين أنها كانت مجرّد كذبة لا أساس لها من الصحة، فكان أن خلّفت هذه الحرب مئات آلاف القتلى، معظمهم من الأطفال والنساء، كما أدّت إلى تهجير الملايين من ديارهم وتدمير المنازل والمعالم الثقافية والتاريخية... ومن ثم تفتيت وشرذمة شعب ليصبح بضعة شعوب تتناصب العداء فيما بينها. فأين تُصنِّفُ من تطلق على نفسها صفة «دول العالم الديمقراطي الحر» هذه الحرب؟

والتاريخ مليء بمجازر حصلت في الغرب كما في الشرق. فلماذا نقوم اليوم بنكء الجراح، وبالتالي إثارة العصبيّات والنعرات والبغضاء بين الشعوب، ما ينتج حروبًا لا يعلم حصيلتها إلا الله؟ هذا عوضًا عن أن نعمل على دمل تلك الجروح وأخذ العبر، وننسى الضغينة ونقول: إنّ ما فعله الآباء لا يجوز أن يحمل وزره الأبناء، وليس باستطاعة أي من بني البشر أن يعيد الزمن إلى الخلف فما مضى قد مضى.

ولا بد لي من أن أذكّر السيد ساكوزي[1] وغيره من المسؤولين بأمرين: أولهما، ذلك البيان الذي أصدره الفاتيكان، تحت ضغط الولايات المتحدة الأميركية والصهيونية العالمية، في أواخر القرن الماضي وبرأ فيه يهود العصر الحاضر من جريمة أجدادهم في صلب المسيح (عليه الصلاة والسلام). وثانيهما، يوم زار السيد ساكوزي الجزائر، وكان يومها، لم يزل مرشحًا لرئاسة الجمهورية الفرنسية، إذ سأله أحدهم: هل في نيّة فرنسا أن تُصدر بيان اعتذارٍ عمّا فعلته في

[1] رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك.

الجزائر أيام استعمارها لها؟ فكان جواب السيد ساركوزي بما معناه: لماذا تريدون أن يتحمل الأبناء أخطاء آبائهم؟

ويا سيد ساركوزي عندما يقوم جهابذة السينما والأدب والرواية بنعت السيد المسيح وأمّه العذراء (عليهما السلام) بصفات ليس أقلّها أنّهما كانا «فاجرين متهتكين...» تقولون بأنّ هذا يندرج تحت عنوان حريّة الرأي والقول والتعبير والمعتقد. أما إذا حاول باحث إعادة التمحيص في بعض أحداث التاريخ فيصبح مجرمًا يحاكم ويغرّم. فأي منطقٍ هذا الذي تعتمدونه في صوغ وإقرار القوانين والشرائع؟ أهو مما يسمى: «شتاء وصيف فوق سطحٍ واحدٍ»، أم أنّها شريعة الغاب المقنَّعة؟»

الدولة أول المستفيدين من ارتفاع الأسعار[1]

بالأمس تذكّرت كلامًا سمعته من أحد الثقات منذ ما يزيد عن الخمس عشرة سنة، قال:

كنّا شلّة من الأصدقاء في إحدى جلسات السّمر، وكان بيننا وزير المالية في حينه، فقال له أحدنا: «أنت وزير المال فمهمتك إدارة أموال الدولة». فانتفض «معاليه» قائلا: «أبدًا أنا مهمتي هي ملء الخزينة فقط.»

اطمئن يا «صاحب المعالي» فسياسة «ملء الخزينة فقط» لم تزل تطبّق، لا في وزارتك وحدها، بل في المرافق الحيوية العامة جميعها. أما كيف تصرف الأموال منها أو تهدر أو حتى تسلب فأمرٌ لا علاقة لأحد من المسؤولين به. فلم نرَ مرةً أحدهم يعمل على محاربة الفساد إلا بالكلام «الشعبوي». أمّا ارتفاع الأسعار فقد نسمع منهم كثيرًا من المبرّرات في أسبابه «الخارجة عن إرادتهم وسيطرتهم». والعمل على حماية لقمة العيش، كما يدّعون، فقد يتم بقرارات غير مدروسة العواقب، كزيادة الأجور عشوائيًا، أو التعويض على فئة من المواطنين متضررة «مباشرة»، كإعطاء السائقين بدلًا نقديًا لفترة محددة تعويضًا عن ارتفاع سعر صفيحة البنزين... هذا طبعًا مع التّمنين بأن هذه الأموال تتحملها خزينة الدولة.

ولكن هل قام أحد الخبراء في الاقتصاد يومًا بإجراء حساب ولو بسيطٍ لما تجنيه خزائن الدولة «المثقوبة» من جراء ارتفاع الأسعار؟

إن الضرائب والرسوم نسبيّة، في معظمها، كالضريبة على القيمة المضافة أو الرسوم العقارية أو رسم الانتقال أو رسم الطابع المالي. وبقدر ما يزداد المبلغ الخاضع للضريبة أو الرسم تزداد قيمة ما تستوفيه الدولة.

فبالنسبة للضريبة على القيمة المضافة، وكعينة، سأكتفي باحتساب حجم الزيادة في الأموال التي تدخل خزينة الدولة، من هذه الضريبة، من جراء ارتفاع سعر صفيحة البنزين وحدها.

يوم طبّق قانون الضريبة على القيمة المضافة (في العام 2002) كان سعر صفيحة البنزين بنحو 18.000 ل.ل. منها 1.636 ل. ل. قيمة تلك الضريبة،

[1] نشر هذا المقال في العدد رقم 24720 - جريدة النهار تاريخ 2012/5/3.

أما حاليًا فهو بنحو الأربعين ألف ل.ل. أي بزيادة 22.000 ل.ل. ما أنتج زيادة في قيمة هذه الضريبة تعادل 2.000 ل.ل. أي أن الزيادة بلغت 122%. ولا ننسى رسوم المحروقات التي تزيد عن ربع السعر الذي تحدده وزارة النفط للمستهلك.

أما حجم الزيادة في رسوم تسجيل العقارات والأملاك المبنية والانتقال والبلدية... فقد تضاعفت في السنوات الأخيرة بما لا يقل عن الأضعاف الثلاثة. وكعينة نقول: في العام 2005 كان المعدل الوسطي، لسعر المتر المربّع من البناء للشقق السكنية في بيروت، بنحو 1.200 دولار أميركي أما حاليًا فلا يقل عن 4.000 دولار. فلو أخذنا مثلًا شقة مساحتها 150 مترًا مربعًا، فسنرى أن رسم تسجيلها قد ارتفع من نحو 10.800 دولار في العام 2005، إلى 36.000 دولار حاليًا (على أساس أن نسبة الرسوم هي بحدود 6%)، هذا إذا وافق السعر، المدرج في عقد البيع، هوى «السيد» المسؤول في الدوائر العقارية، ولم يعمل على تعديله بما يسمح له أن يقدم «خدمته» لاستنباط المخرج الذي يجعل السعر «متوافقًا مع القانون». وقس على ذلك.

وعلى الرُّغم من هذه الزيادات وارتفاعها المضطرد فالدوائر المالية (التي تحصر مهمتها في ملء الخزينة فقط) تعمل على البحث في السجلات العتيقة، عملًا بالمثل القائل: «عندما يفلس أحدٌ ما يبحث في دفاتره القديمة.» فالوزارة منهمكة بنبش «القبور» في دوائر السجل التجاري للتنقيب عن «رفات» الشركات والمؤسسات التي «ماتت» أو مات أصحابها منذ سنوات، كي تفرض عليهم غراماتها المجحفة بحجة أنهم من المكلفين المكتومين أو المتخلفين عن القيام بواجباتهم الضريبية.

ألم يكن من الأجدى أن تعمل هذه الوزارة على استصدار قانونٍ لتسوية أوضاع هذه الشركات أسوة بغيرها من المخالفات، أو حتى الجرائم التي ارتكبت إبّان الأحداث الأليمة؟ فالذي قتل عشرات بل مئات الأبرياء أعفي عنه بالقانون!!! والأبنية التي شيدت مخالفة لقانون البناء سويت مخالفاتها أيضًا بالقانون!!! وأصحاب الأبنية الذين حولوا الملاجئ ومواقف السيارات، إلى محلات أو مستودعات تجارية، سُوّيت مخالفاتهم بالقانون أيضًا، فشردت بالتالي آلاف السيارات إلى الشوارع!!! ولا ننسى المباني التي شيدت على أملاك الآخرين، والتعديات على الأملاك البحرية والتي لم يزل يستثمرها أولئك المخالفون بحريّة تامّة يكفلها «قانون الزعامات السياسية.»

فيا معالي وزير المال، إنّ الكثير من القوانين والأنظمة التي تصدر منذ مدة، ليست بوجيزة، من أهم مساوئها تحييد وجهة المستثمرين الجدد إلى خارج لبنان بل أيضًا تهجير أو قتل كثيرٍ من الشركات والمؤسسات العاملة حاليًا في لبنان، فرأس المال لا يهمّه جمال الطبيعة والجوَّ الجميل، إنّما يهمّه أن يعمل في ضل قوانين وأنظمة عادلة وواضحة تخلوا من التعقيد والتعجيز والتعسير، وهذا بالتأكيد إلى جانب الاستقرار بجميع أوجهه بما فيه القوانين.

وختامًا وباسم الصامتين الصابرين من أبناء هذا البلد، أناشدكم أيها «المسؤولون» أن تعيدوا دراسة كلّ القوانين والأنظمة وتحديثها، ولا تنسوا الاستعانة بالخبراء، كلٌ في حقل اختصاصه، وأخصُّ منهم العاملين على «الأرض»، «فراعي الغنم أدرى من أرسطو في صنعته».

أي لعنة حلت في أرض الحضارات؟[1]

في العام 1921، قسّم الجنرال غورو، المفوض السامي الفرنسي على سوريا ولبنان في ذلك الوقت، سوريا إلى أربع دويلات هي: دويلة العلويين ودويلة جبل الدروز ودويلة حلب أو الشمال، ودويلة دمشق أو الجنوب، بالإضافة إلى سنجق الإسكندرون الذي وَهبَته فرنسا فيما بعد إلى الجمهورية التركية. فما كان من السوريين إلا أن وقفوا، يومها، وقفة رجلٍ واحدٍ مطالبين بوحدة بلادهم. فعمّت الاضطرابات والتظاهرات الأراضي السورية بأكملها. لم يحمل يومها، سواء العلويُّ أم السنيُّ أم الشيعيُّ أم المسيحيُّ أم الدرزيُّ...، لواءً غير لواء وحدة بلاده، حتى أنّهم أرجأوا النضال ضد المستعمرين كي يحافظوا على تلك الوحدة. لقد كانت الدولة الفرنسية يومها دولةً عظمى خارجةً للتوّ منتصرةً، من الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من هذا فقد خضعت لمشيئة الشعب السوري واستدعت الجنرال غورو وأرسلت مكانه الجنرال ويغان، الذي أعلن الدولة السورية في العام 1924 بعد توحيد تلك الدويلات الأربع المذكورة.

وفي العام 1954، في عهد الرئيس أديب الشيشكلي، قائد الانقلاب الثالث في سوريا، قامت في جبل حوران (حاليًا محافظة السويداء) ثورة احتجاجًا على ممارسات القوى الأمنية، وكان يومها سلطان باشا الأطرش حيًا يرزق، وفي أوج عزه، فأمر الشيشكليُّ بإرسال الجيش إلى السويداء لقمع تلك الثورة. فكان حصيلة الأعمال العسكرية نحو 300 قتيل، هذه الأعمال، التي لم تدم شهورًا بل أيامًا معدودات فقط، أسهمت في قيام تحالف لقوى المعارضة في معظم الأراضي السورية. حينها قال الشيشكلي قوله المشهور: «أعدائي كالأفعى رأسها في الجبل وبطنها في حِمص وتمتد إلى حلب». ثم تقدم بكتاب استقالته الذي قال فيه: «حقنًا لدماء الشعب الذي أحبّه والجيش الذي أفتديه...أقدم استقالتي من رئاسة الجمهورية إلى الشعب السوري العزيز...».

وفي العام 1958، استقال الرئيس شكري القوتلي، لا غير مرغمٍ فقط، بل برضاه الكامل، من رئاسة الجمهورية السورية لإتمام وحدة سوريا ومصر في الجمهورية العربية المتحدة. ولكنَّ هذه الوحدة لم تعمَّر طويلا، وأهمّ أسباب ذلك،

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد 2012/8/4.

تلك السياسة الاستبدادية التي اتبعها، في الإقليم الجنوبي أي سوريا، رجالُ الحكومة المعيّنين من قبل الرئيس جمال عبد الناصر، وعلى رأسهم من كانوا من المصريين. ممّا تسبب بقيام الثورة في سوريا في28 أيلول من العام 1961. فما كان من عبد الناصر، الداعي إلى الوحدة العربية الشاملة، إلا أن خضع لرغبة الشعب السوري وقبل بانفصال سوريا من دون إراقة نقطة دمٍ واحدة.

وها هي سوريا قاربت أن تطوي الشهر السابع عشر على بدء ثورتها، التي كلفتها حتى اليوم ما يقارب العشرين ألف قتيلٍ، أي أضعافًا مضاعفة لعدد الضحايا الذي أجبر أديب الشيشكلي على الاستقالة. هذا بالإضافة إلى الخسائر المادية الهائلة من جراء التدمير الذي تخلّفه أسلحة الطائرات والآليات الفتّاكة. هذا التدمير الذي لم تعرف سوريا يومًا مثيله، حتى إبّان أعتى الحروب التي عرفتها أراضيها، سواء في الحربين العالميتين أم مع إسرائيل أم في ثوراتها ضد المستعمرين. فإلى متى يتمسك رموز نظامها الحاكم بسياسة القمع التي تَبيَّن فشلُها منذ الأيام الأولى لنشوب ثورتها الحالية؟ ولماذا لا يتشبهون بالذين سبقوهم**!!؟؟**

وإلى متى تستمر هذه الأحداث؟ وإذا كان كل الأطراف يقولون بأنها نتاج مؤامرة حيكت في الخارج وتنفذ على الأرض السورية، فلماذا لا يعملون يدًا واحدةً على التصدّي لها بكل ما أوتوا من الوسائل لوقف حمّام الدم هذا الذي يحصد الأبرياء من الأطفال والنساء والعجّز قبل المتحاربين؟

أم هي لعنة القدر حلت في أرض الحضارات العتيقة، عقابًا لمن أخَّرها عن ركب الحضارات الحديثة؟

فالله يحمي سوريا قلب العروبة النابض، ويحمي شعبها الطيب المحب للخير.

ما أشبه اليوم بالأمس[1]

يروي المؤرخ المرحوم سليمان أبو عز الدين قائلا: «يوم الجمعة 19 آب سنة 1932 زُرتُ جرجس بك صفا من دير القمر المقيم في بيروت وهو واسع الاطلاع على تاريخ لبنان، خصوصًا ما اختص منه بعهد الأمير بشير الكبير وعهد المتصرفية الذي أدركه كلَّه، وهو قد ناهز التسعين من العمر ولا يزال قوي الذاكرة صافي الذهن».

ثم يقول: إن جرجس بك، روى له، يومها، الحكاية التالية: «حينما كان ناصيف بك الريس موظفًا في حكومة جبل لبنان وكان له النفوذ الأول عند المتصرف، في أمر التوظيف وغيره، جاء أحد زعماء شمالي لبنان يطلب تعيينه «قائمقام» في البترون وطلب من جرجس بك أن يتوسط له بذلك عند ناصيف بك، فخاطب جرجس بك صديقه ناصيف بك في ذلك فقال له هذا الأخير: إذا كان صاحبك يطلب هذا المنصب فيجب عليه أن يقوم بخدمة عامة نتخذها وسيلة لعرض أمره على المتصرف، وفي الشمال الآن ثلاثةٌ من «الطياح»[2] فدعه يقبض عليهم أو على بعضهم ويقدمهم للحكومة لنوجد سبيلا إلى مكافأته على عمله. فأبلغ جرجس بك صاحبه هذا الكلام، أما هذا فأجاب: إني لو كنت قادرًا على القبض عليهم لما فعلت لأن نفوذي في بلدي يتوقف على ما يلتف حولي من أمثال هؤلاء. بعد هذه الرواية قال لي جرجس إن أعيان بلادنا يستمدون نفوذهم من إقلاق راحة بلادهم لا من خدمتها بإخلاص».

فلو اكتفى «رجال» السياسة في لبنان (لو كانوا رجالا!!؟؟) حاليًا بما كان يفعله أسلافهم فقط لما وصلنا إلى هذه الحال.

---

[1] نشرت هذه الحكاية في جريدة البلد عدد الجمعة 3 آب 2012.

[2] الخارجون على القانون. ومنهم من يسميهم (الطفّار)

نداء إلى فخامة رئيس الجمهورية[1]

يا فخامة الرئيس، باسم أطفال لبنان والعجزة، باسم أمهاتنا ونسائنا وبناتنا وأخواتنا، باسم الذين لا صوت لهم، أناشدك وأناشد عبرك كلّ من يُصنِّف نفسه من المخلصين للبنان، أنقذوا لبناننا ولا تدعوه يتخبط فيهوي في أتون النار المشتعلة حوله.

أعيدوا له ابتسامته. أعيدوا له وجهه الأخضر المشرق.

أعيدوه واحة سلام وأمان ولا تتركوا على أرضه سلاحًا غير سلاح المحبة والأخوة.

أعيدوه منارة المشرق والمغرب.

أعيدوا أبناءه شعبًا واحدًا ولاؤهم لوطنهم فقط، لا شعوبًا مذهبية متباغضة متناحرة.

يا فخامة الرئيس، ها هي «إسرائيل» قاربت البدء باستثمار ما يخصُّ فلسطين المحتلة من حقول الغاز المكتشفة في مياه البحر الأبيض المتوسط، ونحن ما زلنا نبحث عن جنس الملائكة. تأكل الديون والضرائب والرسوم... لقمة عيشنا والثروة أمام أعيننا أعمانا عنها الحقد والبغضاء وصرنا كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الضما *** والماء فوق ظهورها محمولُ

يا فخامة الرئيس، أدعُ أبناءك المخلصين إلى ساحة الحرية يأتونك من كل حدب وصوب، وتولَ قيادتهم في مسيرة تحقيق حلم بناء الوطن الحر السيد المستقل ولا تأبه لأبواق تنعق في الداخل وفي الخارج، فسترى القافلة تسير و....

[1] نشرت هذا النداء في 2012/8/25، على صفحتي على الفيس بوك.

إلى متى سنبقى قطعان غنم؟؟!![1]

إخواني اللبنانيين: إنّ من يُطلقُ عليهم زُورًا صفة «الزعماء»، حولوكم إلى قطعان من الأغنام واختاروا من بينكم «كبار الألسن» وعلقوا أمام أفواههم الأبواق، كما تعلق الأجراس على أعناق كبار القرون من الأكبُش، ليبلّغوكم الأوامر فتتبعوهم كيفما اتّجهوا، من دون أن يكون لكم الحق في اختيار طريقكم. نعم أقول غنمًا لأنها أسهل أنواع الماشية انقيادًا للرعاة... أما الفرق فيما بين رعاتنا ورعاة الغنم هو أن هؤلاء يعملون على إطعام أغنامهم قبل أن يسوقوهم إلى الذبح، بينما «رعاتنا» يعملون ما في وسعهم ليميتونا جوعًا وعطشًا بعد أن جفّفوا «ضروعنا». لم يتركوا في خزائن الدولة قرشًا إلا تنعّموا به، هم وأزلامهم، وأنتم عن ذلك عَمُون ساكتون صامتون، وتكتفون بالتصفيق لهم عندما يكيل بعضهم التهم والشتائم بحق غيرهم، من الذين يختلفون معهم «في السياسة فقط...»، فيُرضوا عواطفكم وتُعمَى بصيرتكم، حتى من دون أن يعطوكم من اللسان حلاوة.

أدرجوا في الدستور نصًا يقول بأن اللبنانيين متساوون جميعًا في الحقوق والواجبات، ولكن جُلّ ما تساوينا فيه هو الخضوع لمشيئة وأهواء أولئك السلاطين والعمل على إشباع أطماعهم وملء جيوبهم وتثبيتهم، هم وورثتهم، على عروشهم.

قالت مرةً مذيعة الأخبار على شاشة ال LBC: «أهلا بكم في جمهورية العار»[2]. ولكنها لم تكن على حقٍ، إذ كان عليها أن تضيفَ أيضًا صفات الذل والاستذلال والعبودية والاستغباء والاستغلال و«المغارة»...

وإذا كنت ألوم هؤلاء «الزعماء» قيراطًا فالثلاثة والعشرون الباقية هنّ على هذا الشعب الذي يكتفي بأن يفرح عندما يصفه بعضهم بأنه شعب «جبار بصبره وطول أناته»، تصيبه المصائب والويلات فينتصب بعدها فورًا على قدميه ويعود إلى سابق نشاطه. ولكنَّي لا أرى في هذا من الجبروت والصبر بقدر ما فيه من الذل والاستذلال والجهل، ولا ننسى أن «كل ذي عاهة جبار» وعاهتنا أننا نتوهم بتفوقنا على باقي البشر بالفهم والعقل والإدراك. وقديمًا قيل: «لا يلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين»، ولكننا في لبنان نُلدغ من الجحر عينه مئات المرات ولا نحاول أن

---

[1] نشر هذا المقال في العدد 3 تشرين الأول 2012 من جريدة البيان – مونتريال – كندا كما نشر مرة أخرى على الفيس بوك في 2014/9/18.

[2] كان هذا في أواخر شهر تموز من العام 2012.

ندمره كي نتخلص من شروره، فقطيع الغنم ليس عليه إلا أن يسير بإمرة عصا الراعي حتى لو كان يسوقه إلى المسلخ.

قطعوا عنكم الماء والكهرباء، جوّعوكم وحمَّلوكم مليارات الدولارات دينًا ولن يبقى إلا القليل كي يُفلسوا بلدكم. حوّلوه من منارة للعلم إلى سوق... أباحوا أرضكم للمجرمين وحدودكم للطامعين. لا أمن ولا أمان. سلّطوا على رقابكم سيوف الأشرار من أزلامهم. إن دولة يخاف فيها الشرطي أن ينظّم محضر مخالفة سير، خشية أن يكون المخالف «مدعومًا»، لا يجوز أن تسمى دولة.

فإلى متى، يا أبناء وطني، تقبلون بهذه الحال وبأن نبقى مشرذمين قطعان غنم؟ قوموا واصرخوا من أعماق قلوبكم في وجه هؤلاء «الزعماء» بقول الشاعر:

قل للذي حسب الزعامة إرثةً: ** «ما الخلق مُلكُ أبيك كالأنعام»

أسلافكم استنهضوا قومية ولغة أبناء العرب، وأنتم ماذا تنتظرون كي تنهضوا سويّة، أبناء وطنٍ واحدٍ لا ثمانية عشر، لتغيّروا نظام رعاة الأغنام هذا؟

وتذكّروا قولَه تعالى: {لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد 11).

أقلية تفرض دستور «الإخوان»[1]

بالأمس وقّع الرئيس المصري، محمد مرسي، الدستور الجديد بعد أن نال 63.8% من أصوات الذين شاركوا في الاستفتاء فأصبح هذا الدستور ساريَ المفعول، فمبارك للإخوان المسلمين.

ولكن ما هو الدستور؟ هو ليس قانونًا عاديًا تكفيه موافقة الأكثرية كي يكون صالحًا للتطبيق. إنّه بمثابة ميثاقٍ يُعقد بين أبناء وطنٍ واحدٍ مختلفي الآراء والمعتقدات فكريًا وعرقيًا ودينيًا ومذهبيًا واجتماعيًا، يحدد أسس وأحكام العيش فيما بينهم. وقد أشبهه بعقد الزواج مع فرقٍ بأن هذا الأخير يكون بين شخصين اثنين بينما يكون الدستور بين أفراد مجتمع بكامله. وبالتالي يجب ألّا تصاغ نصوص الدستور إلا بعد التشاور والتفاوض مع ممثلي تيارات المجتمع كافة لوضع قواسم مشتركة لتلك الأسس والأحكام التي يتحتّم أيضًا أن تحظى بموافقة الجميع من دون استثناء.

ولنقرأ ما فعله النبيّ محمدٌ ﷺ، بعد وصوله وأصحابه إلى المدينة المنورة مهاجرين من مكّة المكرمة. لقد كان سكان المدينة مجموعة من عدة قبائل لكلّ منها عادات وأعراف ومعتقدات تختلف عن غيرها، أسوة بما كان عليه سائر العرب في جميع أنحاء الجزيرة العربية. فمنهم من كان قد أسلم، وهم الأنصار، ومنهم من كان مسيحيًا أو يهوديًا أو وثنيًا أو لا معتقد له، تحكمه عادات وتقاليد قبيلته. وقد أمضى النبي ﷺ نحوَ الأشهر السبعة يباحث ويفاوض مكوّنات هذا المجتمع الصغير حتى توصّل إلى وضع «ميثاق المدينة» بعد أن حظيَ هذا بموافقة جميع تلك المكونات، وهذا الميثاق يعتبر أول دستور مدني مكتوب في التاريخ العربي.

فكيف تم وضع دستور مصر الجديد؟ شكلت لجنة صياغة الدستور بانتخاب أعضائها المائة من قبل مجلسي الشعب والشيوخ اللذين كان يسيطر عليهما الإخوان المسلمون وحلفاؤهم من السلفيين، مما يعني أن أكثرية أولئك الأعضاء يمثلون تياري الإخوان والسلفيين أو مقربين منهما. وإبّان عمل هذه اللجنة، اعترض على طريقة عملها ليس فقط ممثلو الأقباط، بل أيضًا ممثلو التيارات

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة العدد 18177، 9 كانون الثاني 2013.

والأحزاب المدنية الأخرى، ولمّا لم يلقوا تجاوبًا على اعتراضهم انسحبوا من اللجنة. وبدلا من أن يصار إلى إعادة تكوينها من جديد لتكون مقبولة من جميع الأطراف، استمرت في عملها بمن بقي فيها من أعضاء فأصبحت ذات لون واحد، وبالتالي لا تكون قد خالفت السنّة النبوية فقط، بل أيضًا لم يعد يجوز لها أن تكتب مادة واحدة من مواد ميثاق يجعل شرحات عديدة وكبيرة، من شرحات المجتمع المصري، تشعر بأنها مهمشة ومغلوبة على أمرها، وهذا يخالف أصول وأحكام المساواة بين أبناء الوطن الواحد، التي هي من أولى البديهيات الدستورية. ولا ننسى أن عدد الأقباط وحدهم قد يبلغ الملايين العشرة.

وإذا أعدنا قراءة نتائج ذاك الاستفتاء لرأينا ما يلي: لقد بلغ عدد المشاركين فيه 33.4 % من مجموع المسجلين، أي ما يزيد قليلا عن 17 مليون شخصٍ على أساس أن عدد المسجلين هو بنحو 51 مليونا، بينما بلغ عدد المقترعين في الجولة الثانية لانتخاب رئيس الجمهورية نحو 26.5 مليونا أي أن ما يقارب العشرة ملايين من الذين شاركوا في الانتخابات امتنعوا عن المشاركة بالاستفتاء. أمّا الذين قالوا «نعم» للدستور فبلغوا 63.8% من مجموع الذين اقترعوا، أي ما يزيد قليلا عن 11 مليونا، أمّا لو عاد وشارك بالاستفتاء هؤلاء الممتنعون لانقلبت النتائج رفضًا للدستور. ثم إذا كان عدد سكان مصر حاليًا بنحو واحد وتسعين مليونًا فتكون نسبة الذين وافقوا على الدستور بنحو 12.25%. فهل يُعقل أن تفرض نسبة ضئيلة كهذه أرادتها على 87.75 % من الشعب المصري؟

كما لا بد لنا من أن نشير إلى أن نسبة الأميين في مصر تساوي نحو 28 % من مجموع الشعب المصري، ولا يخفى على أحد أن الأمّيَّ غالبًا ما يتوجه كما يوحي أليه رجل الدين...

الطائفية فرضها الأجنبي وتناقض الدستور[1]

في العام 1842 وُضع حجر الأساس للنظام الطائفي في لبنان، يوم قُسِمت الإمارة إلى قائم مقاميتين، مسيحية ودرزية. هذا النظام فرضه ممثلو الدول الأوروبية على الدولة العثمانية التي كانت تعاني من ضعفٍ منعها من رفضه. وقد كان على رأس أولئك الممثلين كل من الكولونيل روز، قنصل إنكلترا العام، والمستر وود، قنصلها في دمشق، اللذين يئسا من استمالة موارنة لبنان لسياسة دولتهما التي كانت ترغب في الهيمنة على سوريا (أو بلاد الشام) لتضمن لها طريق الهند. وقد وصف رفعت باشا، ناظر الخارجية العثمانية آنذاك، مشروع تلك القسمة بقوله: «إنها بمثابة إشعال نار الحرب الأهلية.»[2]

وعلى أثر أحداث العام 1860 استبدل أولئك الممثلون، نظام القائم مقاميتين، بنظام المتصرفية الذي ارتكز أيضًا على توزيع المناصب بين المسيحيين والمسلمين بنسبة سبعة للمسيحيين وخمسة للمسلمين.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، انتُدِبَت الدولة الفرنسية، العَلمانية وصاحبة شعار: «حرية – إخاء – مساواة»، «لتمدين» (civiliser) سوريا ولبنان. فكرّست، النظام الطائفي، في «لبنان الكبير»، بدلا من إلغائه، وأصبح انتخاب مجلس النواب يتم بنسبة 6 مسيحيين و5 مسلمين. وعلى أثر إحصاء العام 1932، بدلت بدعة تقسيم اللبنانيين بين مسيحيين ومسلمين، إلى بدعة أشدّ خطورة، بأن اعتبرتهم «أقليات دينية»، أي طوائف ومذاهب[3] فوزّعت المناصب بنسبة عدد أبناء كل مذهب. وأوجدت بالتالي نظام «المحاصصة» الطائفية. ولمّا حاولت أكثريّة أعضاء مجلس النواب، في أواخر ذلك العام، كسر هذا العرف في

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة - بيروت عدد 2013/4/27، وفي جريدة الرسالة - كندا العدد 424 تاريخ 2018/10/12.

[2] مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان– فيليب وفريد الخازن – المجلد الأول - الصفحة (67).

[3] تاريخ لبنان الحديث – فواز طرابلسي – الطبعة الثانية ص. (153).

التوزيع، بالتوافق على انتخاب الشيخ محمد الجسر لرئاسة الجمهورية، علّقت السلطة المنتدبة، الدستور[1]...

وفي العام 1943 أبقى مجلس النواب على نظام «المحاصصة» هذا، بنص خجول، في المادة 95 من دستور الاستقلال، يقول: «بصورة عادلة ومؤقتة والتماسًا للعدل والوفاق تُمثّل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الإضرار بمصلحة الدولة.»

ثم انبثقت الوثيقة الدستورية عن المؤتمر الذي عقد في العام 1989 في مدينة الطائف السعودية، أي في خارج الأراضي اللبنانية. وبنتيجة هذه الوثيقة عُدلت بعض مواد الدستور بحيث جاء في المادة (24) ما يلي: «والى ان يضع مجلس النواب قانون انتخاب خارج القيد الطائفي، توزّع المقاعد النيابية وفقا للقواعد الآتية:

أ - بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين.

ب - نسبيا بين طوائف كل من الفئتين....»

هنا أسال: هل كان يستحق أن يُكلّف اللبنانيون ما يزيد عن المائتي ألف قتيل، عدا عمّن أصيبوا بعطل دائمٍ، والدمار والتهجير، ثمنًا لمقعدٍ نيابيٍ واحدٍ كسبه المسلمون!!؟؟ يا خجلتنا من التاريخ.

ثم جاءت المادة (95) تقول: «على مجلس النواب المنتخب على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين اتخاذ الاجراءات الملائمة لتحقيق الغاء الطائفية السياسية وفق خطة مرحلية...»

وعلى الرغم من مرور نحو ربع قرن من الزمن لم يؤخذ أي إجراء لإلغاء هذه «الطائفية السياسية»، فالقاعدة المتبعة في لبنان، للأسف، تقول: «لا يدوم إلا المؤقت». أضف إليها رغبة «الزعماء السياسيين» في المحافظة على «مكاسب منسوبة» إلى الطوائف التي يدَّعون تمثيلها؛ متجاهلين ذلك التناقض الواضح لهذا النظام مع سائر نصوص الدستور،

وأولها: مقدمته التي تقول:

«ج- لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية، تقوم على احترام الحريات العامة، وفي طليعتها حرية الرأي والمعتقد، وعلى العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين دون تمايز أو تفضيل.

ح- الغاء الطائفية السياسية هدف وطني أساسي يقتضي العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية.»

[1] تاريخ لبنان الحديث – فواز طرابلسي – الطبعة الثانية ص. (153).

فأين أصبح هذا «الهدف الوطني الأساسي»!!؟؟

وثانيها: المادة (7) التي تقول: «كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دونما فرق بينهم.» فأين هذه «المساواة بالحقوق»!!؟؟

وثالثها: نص المادة (9): «حرية الاعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الاجلال لله تعالى تحترم جميع الاديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها على ألا يكون في ذلك إخلال في النظام العام.»

فكم مرة أخلّت هذه الطائفية البغيضة بالنظام العام!!؟؟ وهل ينتظرون تفكك وتفتت لبنان وتفريغه من أبنائه كي «يفكروا» بإلغاء ذاك النظام؟؟

ورابعها: نص المادة (12): «لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة لا ميزة لاحد على الآخر إلا من حيث الاستحقاق والجدارة...».

فأين أصبح هذا الحق وعدم التمييز بين اللبنانيين ما دام لكل مواطنٍ سقفٌ لا يحق له أن يرتفع فوقه، بناه فوق رأسه مذهبٌ فُرض عليه يوم ولد، كما فرض عليه اسمه، ولم يختر هو بنفسه الانتماء إليه!!؟؟

فإلى متى ننتظر كي نتخلص من هذه الآفة التي تتسبب يومًا بعد يوم بهدم قواعد وركائز الوطن وبغرس العداوة في نفوس أبنائه؟؟ هل ننتظر من الأجنبي الذي فرض علينا هذا النظام أن يفرض علينا إلغاءه!!؟؟

وكفانا التغني بشعارٍ، يفرق ولا يجمع، يسمونه «العيش المشترك» فنحن نريد أن نكون مواطنين في وطنٍ واحدٍ موحدٍ لا فضل فيه لأحدنا على الآخر إلا بقدر انتمائه إلى وطنه لا إلى مذهبه.

دمار العرب من دمار العراق[1]

أكاد لا أصدّق سمعي ولا بصري في ما يجري في دول ما يسمي بالربيع العربي. وهل من قبيل الصدفة أن يعُمَّ الانشقاق إلى حد التقاتل فيما بين أبناء البلد الواحدِ من تونس غربًا إلى العراق شرقًا؟

وتعود بي الذاكرة إلى كلمة قالها الرئيس كميل شمعون، رئيس الجمهورية اللبنانية سابقًا، يوم سأله أحد الصحفيين إبّان الأحداث اللبنانية في الربع الأخير من القرن الماضي، قائلًا: يا فخامة الرئيس، هل نحن ذاهبون في لبنان فعلًا إلى التقسيم؟ فأجابه: «ما دام العراق بخيرٍ فالبلاد العربية، بما فيها لبنان.» لم ندرك يومها لماذا ربط أوضاع البلاد العربية بوضع العراق وحده.

ولا يطول الأمر كثيرًا بعد وفاة الرئيس شمعون حتى تنزلق قدمُ الرئيس العراقي، صدّام حسين، «بقشرة موزٍ» رمتها أمامه إبريل غلاسبي، سفيرة الولايات المتحدة الأميركية إلى بغداد، فيجتاح الكويت ويعلن ضمها إلى العراق[2]. فتُقيمُ الولايات المتحدة الدنيا وتقعدها وتحشدُ نصفَ دُولِ العالم «لتحرير» الكويت. وعوضًا عن أن يقف حكامُ البلاد العربية في وجه تلك الهجمة قائلين بأنّ هذا الأمر شأنٌ عربيٌّ يحُلُّه العرب وحدهم، رأيناهم يتسابقون، مُهْطِعين مُقنِعِي رؤوسِهم[3]، للحصول على الرضى الأميركي فيحشدون الجنود لقتالِ إخوانهم العراقيين إلى جانب الأميركيين وحُلفائهم. حتى رفضُ الفرنسيين المشاركة في تلك الهجمة، بل ووقوفهم العلني ضدها، لم يعنِ شيئًا لبني يعرب.

وتشاء «الأقدار»، سبحان الله، أن تتوقف الأحداث اللبنانية قبل «تحرير» الكويت بأشهرٍ معدودة. ويبدأ بعد هذا «التحرير» تدميرُ المجتمع العراقي وتفتيتُ روابط المواطنة فيه لتحويلِ انتماءِ أبنائه إلى التجمعات المذهبية والعرقية؛ إلى أن يوجّه له الأميركيون الضربة القاضية بأول قرار لهم، لحظة احتلالِهم أراضيه في العام 2003، بحجة واهية، ذلك القرار الذي قضى بحلِّ الجيشِ العراقي وتسريح جميع أفراده. فيصبح العراق ساحةً للفوضى والتقاتل بين الإخوة ويموت ما يزيدُ

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة العدد رقم 18544 ليوم السبت 2014/1/11.

[2] كان ذلك في شهر آب من العام 1990.

[3] المُهْطِعُ الذي يَنْظُرُ في ذُلٍّ وخُشوعٍ، والمُقْنِعُ الذي يَرْفَع رأْسَه ينظر في ذلٍّ.

عن المليون طفلٍ ويتشتت في أصقاع الأرضِ مليون أو أكثر سواء من المقتدرين ماليًا أم من شبابه المتعلمين. ولا أرى ضرورة لزيادة شرحِ وضعه المُزري الذي ما زلنا نراه عِيانًا حتى هذه الساعة.

وفي العام التالي لاحتلال العراق وبعد تحرير جنوبِ لبنان بأربع سنوات، تبدأ سلسلة اغتيال شخصياتٍ لبنانيةً من سياسيين وصحفيين ومفكرين، إما بتفجيرِ سياراتٍ تُودي، أيضًا، بحياة العشرات من المدنيين، أو بالاغتيال المباشر. ويأتينا تموز العام 2006 بحربٍ إسرائيلية شاملة تحصدُ أرواح نحو 1500 لبنانيٍّ معظمهم من المدنيين العُزّل، وتُدمِّرُ اقتصاده الذي كان قد بدأ يستعيد عافيته السابقة لأحداث القرن الماضي المؤلمة. ويكون من نتائج تلك الحربِ وما سبقها وتبعها من اغتيالات، شللٌ شاملٌ أو جُزئيٌّ في معظمِ مؤسسات لبنان الذي وصفه الكولونيل تشرشل «Churchill» في منتصف القرن التاسع عشر، قائلًا: «فما قولك بجبل لبنان، هذه القلعة الطبيعية الكبيرة القائمة بين العالم الشرقي والغربي؟»

ومع العام 2011 يُطلُّ علينا «الربيعُ العربيُّ» من تونس فتتساقط الأنظمة الدكتاتورية فيها ثم في مصر وليبيا واليمن. وعِوضًا عن التحول إلى الديمقراطية يعُمُّ الانشقاق والتقاتل تلك البلدان الأربع وتُدمّرُ ثلاثة أرباع سوريا ويُهجّرُ أكثرُ من ثلث أبنائها إما في داخلها أو إلى خارجها، ويقتلُ مئات الآلاف من أبنائها المدنيين، جلهم من الأطفال والنساء والعُجَّز. فأتذكّر ما كان يُردّده المرحوم والدي عن السيد جمال الدين الأفغاني، بان العرب لا يقومون إلّا بحاكمٍ دكتاتوريٍّ عادلٍ. فهل كان عبثًا أن جمع هذا المفكرُ، الضِدّين: الدكتاتورية والعدل، لقيامة العرب؟

رحم الله السيد الأفغانيَّ والرئيس شمعون كم كانا بعيدي النظر.

ماذا قدم لي وطني؟[1]

جاءني يومًا صديقٌ قائلًا: لقد عقدنا العزمَ على الهجرة، أنا وعائلتي.

قلت: وهل حدّدتم وجهتكم؟

قال: بلاد الله واسعة، وسأختار منها ما أشعر فيه أنّني إنسانٌ حقوقه مصونة.

قلت: أبهذه البساطة تتخلى عن وطنك بأرزه وسنديانه وزيتونه... وذكريات طفولتك؟

قال: اسمعني جيدًا يا صديقي، حبُّ وطني سيبقى في قلبي ما دام فيَّ رمقٌ من الحياة. ولكن قُلْ لي ماذا قدم لي هذا الوطن؟

فدعنا من العواطفَ، ولنحكّمِ العقل. فهل تساءلت يومًا، ما معنى الوطن؟ الوطن يا صديقي ليس تلك البقعة من الأرض التي نقطنها فقط، مهما بلغت جمالًا، ففي الكون بقاعٌ كثيرة رائعة الجمال غير لبناننا؛ بل الأهمّ هو المجتمع الذي يعيش ويسكن عليها بكلِّ مكوناته، بقوانينه وأنظمته، بحكامه ومسؤوليه، بمؤسساته الحكومية والعسكرية والأمنية، بأحزابه وتجمعاته وبخاصّة تلك التي لها التأثير القوي في تحديد سياساته الداخلية والخارجية. وكما أن على كلِّ مواطنٍ واجباتٍ أهمّها تنشئة ورعاية عائلة صالحة تكون نواة مجتمعٍ صالحٍ، كذلك على الوطن، أن يؤمّن عوامل وسبُل معيشة وسكن هذا المواطن.

وفي التنزيل العزيز: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...} (الروم 21) و{ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ...} (التوبة 26). فما معنى هذا السكن والسكينة؟

السكينة تعني: الرحمة والطمأنينة والأمن والوقار. فماذا حقق لي وطني من معاني هذه السكينة؟

فهل الرحمة في الضرائب والرسوم المتعددة الأنواع والنسب؟ أم في الغرامات التي يتكبدها المواطن إذا تأخر أو حتى أخطأ في شكليات تأدية أيٍّ من هذه الضرائب والرسوم، وقد تبلغ قيمة هذه الغرامات أحيانًا ثلاثة أضعاف الضريبة أو خمسة أضعاف الرسم؟ أم من الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة بتاريخ 2014/5/10.

الذي يتقاضى المليارات من المكلفين ويمنُّ بالفتات على أولئك العمال الذين يدّعي أنه يضمن حقوقهم وطبابتهم؟

وأين هذه الرحمة في تلك النصوص القانونية ذات المعاني المطاطة، أو الفجوات التي تجعل المواطن عرضة لابتزاز الموظف المختص من ضعاف النفوس؟

وهل من الرحمة أن تفرض علينا كلفة تأمين حاجتنا من أهمِّ ضروريات العيش، عنيت المياه والكهرباء، من مصدرين وأحيانا ثلاثة؟

أم أنّ الرحمة في هذا التلوث الذي يغطي سماءنا، وتفوق نسبته أضعاف ما هو مقبولٌ عالميًا، سواء في الهواء أم الماء، والذي يتسبب يومًا بعد يوم في تلك الأمراض القاتلة وفي تلف واحتراق المساحات الخضر؟ التي جعلت القاصي والداني يقول يومًا: «نيال من له مرقد عنزة في لبنان»؟

أما الطمأنينة، المعنى الثاني للسكينة، فهل شعرتَ يومًا يا صديقي بأنك مطمئنٌ على سلامتك أو سلامة أفراد عائلتك أو أقربائك أو أصدقائك مع هذا الوضع الأمني المتردي الذي نعيش في ظله منذ ما يزيد عن العقود الأربعة؟

ثم ألا يتملكك الخوف الدائم على الحاضر والمستقبل القريب والبعيد؟ فأين فرص العمل لأولادنا حينما ينتقلون من مقاعد الدراسة إلى سوق العمل؟ ألستَ على اطّلاع على أعداد شبابنا الذين يسافرون يوميًا للعمل خارج لبنان؟

وأين ذلك الضمان الصحي الشامل المواطنين كافة الذي نسمع الوعود المتكررة به منذ عقود؟ وأين أيضًا شقيقه ضمان الشيخوخة سواء الصحّي منه أم التقاعدي؟ وما زال السواد الأعظم من المتقاعدين يعيشون كما كانت تعيش، حتى أوائل القرن الماضي، «خيول الحكومة»، التي تنجو من «القتل الرحيم»، بعدما تُضعِف السنون أجسادَها؟

وأين الأمن، ثالث معاني السكينة، مع فوضى السلاح غير الشرعي المنتشر بهذه الكميات الهائلة والأنواع المتعددة والمتطورة، ما جعل قوة الدولة أضعف من أن تواجه دويلات أصحاب ذلك السلاح؟

وأخيرًا وليس آخرًا، أين الوقار، رابع تلك المعاني، في عيشتنا، فهل جرّبت يومًا يا صديقي أن تقف، كمواطنٍ عاديّ غير «مدعوم»، وقفة ذُلٍّ أمام أحد الموظفين المختصين، من ذوي النفوس الضعيفة، أو أمام بابه، وبيدك أوراق «معاملة» تحتاج توقيعه «الكريم»؟ أولئك الموظفين الذين «منحهم» تعقيدُ الأنظمة، سلطة إذلال مال المواطن أو نفسه، عندما يضطرُّ العملَ بالمثل القائل: «من احتاج ال... قال له: صباح الخير يا سيدي».

وقبل أن يختم صديقي شرح دواعي قراره بالهجرة أضاف: في أوائل الأحداث المؤسفة التي عمت لبناننا منذ العام 1975، سأل أحدهم المعلم كمال جنبلاط رأيه فيها، فأجاب: إذا انتهت في 15 سنة فالأمر جيد. فعاد السائل يستفسره عن مصير الشعب، فأجاب: «قسمٌ يموتُ وقسمٌ يهاجرُ وقسمٌ يُجنُّ.» وبما أنّي يا صديقي ما زلتُ على قيد الحياة ولا أرغب في الجنون فلذا قررتُ الهجرة.

عند ذلك وقفتُ، احترامًا له، وصافحته بحرارة وتمنيّت له التوفيق، وعيناي تغرورقان بالدمع ونفسي حزينة مما وصلت إليه حال لبنان.

تفتيت الشرق وتهجير مسيحيّيه[1]

منذ أن ضَعُفت الدولة العثمانية انبرت إنكلترا لمساندتها، ممّا أطال بعمر تلك الدولة نحو القرن. بالتأكيد، لم يكن موقف إنكلترا هذا محبةً بسلاطين بني عثمان، بل كان ناتجًا عما يلي:

أولًا: لم تعدْ تلك السلطنة تشكّل أيَّ خطرٍ على اوروبا، بعدما اصبحت ذلك «الرجل المريض».

ثانيًا: كانت إنكلترا تتخوّف من ان تنقضَّ الرّوسيا القيصرية على الآستانة «القسطنطينية»، وما يليها فتحقّق حلمها بالوصول إلى المياه الدافئة، «البحر الأبيض المتوسط»، فتصبح الطريق الى الهند، أهم اراضي الامبراطورية الانكليزية، تحت سيطرة الروسيا. ولهذا تضامنت انكلترا (وفرنسا) مع السلطنة في حربِ القرم في العام 1854.

ثالثًا: الصراع الفرنسي الإنكليزي، لا في اوروبا فقط بل أينما يكون لأيٍّ منهما مصلحة أو موطئ قدم، وخصوصا، حيث يكمن الخطر على طريق الهند. وهذا ما جعل الانكليز يردّون نابوليون بونابارت عن أسوار عكا، ثم يطردون عساكره من مصر في أول القرن التاسع عشر.

رابعًا: عدم اتفاق دول أوروبا الاستعمارية، فيما بينهنّ، على تقاسم تركة «الرجل المريض». وهذا نتيجة حتمية لتلك المخاوف والصراعات فيما بينهنَّ. وخصوصًا أن أهمَّ أملاك هذا «المريض»، تلك البقعة من الأرض التي كانت تعرف جغرافيًا بسوريا أو سوريا الطبيعية، (مطلب أنطون سعادة)، والتي كانت تمتدُّ على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من خليج السويس إلى خليج إسكندرون شمالًا وإلى خليج البصرة شرقًا، ومنه بمحاذاة بلاد فارس حتى أرمينيا، التي كانت تفصلها عن البحر الأسود شمالًا. وقد كانت سوريا هذه، ولم تزل، تعتبر بحقٍّ أهمَّ بقعة على الكرة الأرضية لمركزها الاستراتيجي كمفتاح قارّات العالم القديم الثلاث، وبما في سوريا هذه وما حولها من ثروات وخيرات طبيعية. وبالإضافة إلى موقعها هذا يتوسطها قلعة طبيعية، من سيطر عليها يصبح بإمكانه السيطرة على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والداخل السوري

[1] نشر هذا المقال، مختصرا، في جريدة الحياة عدد الثلاثاء، 9 سبتمبر/ أيلول 2014.

بأكمله. هذه القلعة هي لبنان، بسلسلتيه الغربية والشرقية، الذي كان يمتد، جغرافيًا، من عكا جنوبًا إلى موازاة جزيرة أرواد شمالًا.

كلُّ هذا جعل أوّل أهداف دول الاستعمار، وعلى رأسها إنكلترا، عدمُ السماح بقيام أيّ دولة قوية يمكن أن تحلَّ محل الدولة العثمانية، وخصوصًا في سوريا «الطبيعية». وأهم مثالٍ على هذا، وقوف الدول الأوروبية الكبرى بوجه محمد علي باشا، والي مصر، بعد احتلاله سوريا[1]، وبلوغه كوتاهيا ومحاولته المتابعة إلى الآستانة، حيث أيقنت تلك الدول، بأنّ هذا الأخير أصبح على وشك إنشاء دولة فتية قوية تحلَّ محل العثمانيين، فتقاطرت، تلك الدول، لمساعدة العثمانيين على طرد محمد علي من سوريا وإعادة تحجيمه واليًا على مصر والسودان. بينما امتنعت فرنسا، لا عن المشاركة في ذلك فقط، بل أيضًا عن إمداد حليفها محمد علي، سواء بالرجال أم بالمال...

بعد هذا بدأ عمل الاستعماريين على تنفيذ خطّة تقضي بتفتيت سوريا، فكانت خطوتهم الأولى في أهمِّ أبراج تلك القلعة الطبيعية، التي قد تفشِّلُ خطتهم تلك، عنيت جبل لبنان، مبتدئين بغزوه بالإرساليات التي ظاهرُها تبشيريٌّ وتعليميٌّ وتثقيفيٌّ، وباطنها زرعُ بذور الفرقة والحقد فيما بين أبناء الوطن الواحد. ثم استغلال ما أنتجته سياسة «فرّقْ تسُدْ» التي اتبعها الأميرُ بشيرٌ الشهابي الثاني عملًا بنصيحة «حليفه» بل «عرّابه» محمد علي باشا، الذي كان يرى أمامه عقبتين تحولان دون تحقيق حلمه باحتلال سوريا، وهما جبل نابلس وجبل لبنان. فكان له القضاء على بني طوقان، الموالين للعثمانيين، في جبل نابلس في معركة سينور بقوة عسكرية أهم مقاتليها فرقة من دروز لبنان، أرسلها الأمير بشير بناء على أمر محمد علي، وعلى رأسها الشيخ سعيد جنبلاط، حليف الشهابي. وبما أن الشهابي كان يرى في حليفه هذا ومن معه من المقاتلين الدروز، أهم مانع له في حكمه المطلق للجبل، كان محمد علي يريد أيضًا الخلاص منهم نظرًا لولائهم للعثمانيين. ولذا لعب الشهابي على الوتر القبلي بين عشائر الدروز ومن ثم على الوتر الطائفي بين الموارنة والدروز بعدما تمكّن من إضعاف قوة هؤلاء الآخرين.

ولمّا تحقّق لمحمد علي إزالة تينك العقبتين، عنيت جبلي نابلس ولبنان، بعث ابنه إبرهيم باشا فاحتلّ سوريا في العام 1832 من دون أي مقاومة تذكر وفي نحو تسعة أشهر.

ولما ثار دروز جبل حوران على المصريين في العامين 1837 – 1838، واستعصى على إبرهيم باشا القضاء على تلك الثورة، طلب من الأمير بشير أن

[1] في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

يمدّه بما يزيد عن الألف مقاتل من موارنة جبل لبنان لمقاتلة إخوانهم، اللبنانييّ الأصل، دروز جبل حوران.

كل هذه الأمور أوجدت شرخًا كبيرًا بين الدروز والموارنة الذين عاشوا سابقًا مئات السنين بوئام تامٍ بينهم. وبعد طرد المصريين من سوريا في العام 1840 راح الفرنسيّون والإنكليز يستغلون هذا الشرخ ويعمقونه كلٌّ لمصلحته الخاصّة، ولا ننزه العثمانيين من ذلك أيضًا. فكانت الحرب، التي سميت أهلية، فيما بين الدروز والموارنة، بمعارك قتالية متقطعة بدءًا من العام 1842 حتى العام 1860. ويرى بعضهم أن تكون فرنسا قد أثارت معركة العام 1860 ردًا على قرار السلطان العثماني بوقف العمل في حفر قناة السويس، هذا القرار الذي اتخذ بناء على رغبة الإنكليز في الردِّ على رفض الفرنسيين طلبهم المشاركة في ملكية شركة القناة.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وجاءتنا معها اتفاقية «سايكس – بيكو «ووعد بلفور. وعندما احتلَّت فرنسا حصتها من تلك الاتفاقية قسمتها إلى ستة أقسام: دولة لبنان الكبير ودولة جبل الدروز ودولة جنوب سوريا (دمشق) ودولة شمالها (حلب) ودولة العلويين وسنجق أو لواء إسكندرون. ولكن الاحتجاجات والتظاهرات الشعبية أجبرت فرنسا على إعادة توحيد الأراضي السورية كما هي اليوم، ولكنها وهبت إسكندرون إلى تركيا أتاتورك.

أما الإنكليز فقد أنشأوا في حصتهم دولتين: شرقي الأردن ونصبوا عليها أميرًا عبد الله بن الحسين، شريف مكة. والعراق، ونصبوا عليه ملكًا، فيصل ابن الشريف حسين المذكور، بينما أبقوا فلسطين تحت حكمهم المباشر حتى انسحابهم في العام 1948 وإعلان دولة إسرائيل، باعتراف ومناصرة إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي. ولا بد من الإشارة إلى أن رؤوس الوكالة اليهودية، العلمانيين، كانوا قد تقبلوا فكرة إنشاء دولتهم في إفريقيا، ولكنّ إنكلترا أوعزت إليهم بالمطالبة بفلسطين أرض الميعاد، فتكون بالتالي عاملًا على عدم استقرار الدويلات السورية (الطبيعية).

وبعد أن انكفأت دول الاستعمار القديم، حلّت الولايات المتحدة الأميركية محلّها بمتابعة سياسة التفتيت تلك، فكان مشروع دالاس، بعنوان تعبئة الفراغ في الشرق الأوسط، ثم حلف بغداد....

ويوم قطع الملك فيصل بن سعود النفط عن أميركا وأوروبا إثر حرب العام 1973، بين مصر وسوريا من جهة والعدو الصهيوني من جهة أخرى، وتبعته

سائر الدول العربية النفطية، قررت واشنطن، عاصمة العالم الجديد، إعادة رسم خريطة الأراضي السورية (الطبيعية)، وسارت لندن في ركابها وصمتت موسكو.

وكما بدأ سيناريو القرن التاسع عشر من جبل لبنان ابتدأ السناريو الجديد في العام 1975 من لبنان أيضًا، بوابة الداخل السوري «الطبيعي» ثم العربي. ثم زُحلِقَ صدام حسين على «قشرة موز» أبريل غلاسبي، في العام 1990 فاحتلّ الكويت، كي تجيّش الولايات المتحدة دول العالمِ أجمع، بما فيها الدول العربية، وبحجّة تحرير الكويت، لتدمير وتفتيت العراق، الذي قال عنه يومًا كميل شمعون، رئيس الجمهورية اللبنانية سابقًا، «ما دام العراق بخير فالدول العربية جميعها بخير.»

ثم ابتدعت الولايات المتحدة «الجهاد المقدس» بوجه الاتحاد السوفييتي إثر احتلاله لأفغانستان، فكان تنظيم القاعدة (أسامة بن لادن) وطالبان، فخرج مارد التعصّب الديني الجاهل من القمقم، الذي استغلّته أيادي المخابرات الغربية والصهيونية لإذكاء نار الفرقة والحقد في نفوس أولئك الجهلة لإشعال التقاتل السني – الشيعي، وتحويل ثورات «الربيع العربي» إلى اقتتالِ الإخوة في البلد الواحد، ومن ثمَّ إثارة النزعة الإجرامية في نفوس من تفرّع عن تنظيم القاعدة، من النُّصرة وداعش، لقتل كلّ من لا يقبل بشريعتهم، التي نسبوها زورًا وبهتانًا إلى الإسلام، مسيحيًّا كان أم مسلمًا، شيعيًّا أم سنيًّا.

أما البوابة الرئيسية للتدخل الأجنبي في بلاد الشرق الأوسط عامة وفي سوريا (الطبيعية) خاصة، فقد فتحتها على مصراعيها تلك الامتيازات للأجانب ولغير المسلمين التي منحها العثمانيون، من قبيل التسامح الديني حسب رأيهم واغترارًا بقوتهم، أمام الدول الأوروبية بدءًا من القرن السادس عشر، بإعطاء كلٍّ من تلك الدول حقَّ حماية رعاياها المقيمين على أراضي السلطنة، ومن كان على دينها من مواطني السلطنة. فكانت هذه الامتيازات وبالًا على سلطنتهم وعلى الجماعات التي شملتها تلك الامتيازات على حدٍّ سواء. إذ استغل الأجانب هذه الامتيازات للتدخل في شؤون السلطنة الداخلية بما يخدم مآربهم ومصالحهم الخاصة. أما المواطنون المشمولون بتلك الحماية فقد رسخ في نفوس غالبيتهم، الجهلة، بأن كلًّا منهم ينتمي إلى قومية الدولة التي «تحميه»، مما أدى إلى شعورهم بالغربة، في بلاد هم أصحابها منذ ما قبل مجيء العثمانيين، ومن ثم بالكره والحقد والعداوة لا تُجاه العثمانيين فقط، بل تجاه أبناء جلدتهم من المسلمين أيضًا. وهذا ما استغلّه الإنكليز والفرنسيّون للسعي إلى السيطرة على الأجزاء المهمّة من أراضي السلطنة؛ فكانت من نتائجه أحداث القرن التاسع عشر في جبال لبنان باقتتال

مواطنيه الموارنة والدروز، الذين عاشوا قبلها مئات السنين بوئامٍ وإخاء تامين، كما أسلفنا، وهجرة الكثير منهم. كما فيما بعد، أدّى إلى تهجير نحو سبعة ملايين من مسيحيي الأناضول والعديد من الأكراد، وإلى «مذبحة» الأرمن.

وفي الختام أقول لإخواني في البلاد العربية جمعاء: لا يغرَّنَّ أحدًا منكم قولُ أجنبيٍّ بأنّه آتٍ لحماية، من سموّهم زورًا «أقليّات»، من ظلم أبناء جلدتهم، وإلّا أوقعوكم في حفرتها. وما بدعة «الأقليات» هذه إلّا من صنع ذاك الأجنبيّ لتكون كمسمار جحا كي يتدخّل بين الأخ وأخيه ساعة يشاء. وليس لنا ما يحصِّننا إلّا أن نكون صفًا واحدًا بوجه من يريد بنا السوء.

فرنسا، «الأمّ الحنون» على مصالحها[1]

يروي جرجي الحداد في الصفحة (88) وما يليها من كتابه «البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين»[2]، قائلًا:

«وها حوادث سنة 1919، وهي بدء سنة الاحتلال والتقسيم المشؤوم، تشهد كيف أن الجنرال غورو ضحّى بمسيحيي مرجعيون إذ حرّش عليهم المسلمين والمتاولة[3] وأعطى محمود بك الفاعور[4]، على ما يقال 45 ألف ليرة إنكليزية لكي يقوم بذبحهم، وهذا لكي يقولون [يقولوا] للرئيس ولسن إن النصارى بدون حماية فرنسا لهم هالكون لا محالة. وقد أخبرنا مواطنٌ من تلك البلاد، وهو رجلٌ فاضلٌ وممن يوثق بكلامهم، أن الفرنسويين استأجروا رجلًا جاسوسًا نذلًا من دير القمر وزودوه بتعليمات مآلها أنه، هو والذين يقدر أن يجمعهم حوله من الرجال، كلما قتلوا درزيًا أو متواليًا يأخذون عن كل قتيل ليرة إنكليزية. وبذات الوقت استأجروا رجالًا من المسلمين والدروز وطلبوا منهم ذات الطلب وهو أنهم كلما قتلوا رجلًا مسيحيًا يعطونهم على قتله ليرة إنكليزية أيضًا. فلما كثر عدد القتلى من الجانبين أبى الفرنسيس أن يعطوهم مالًا بل سلاحًا وذخيرة تعادل هذه القيمة. وزاد على ذلك مخبرنا بقوله: إنهم لما هجموا، أي المتاولة، على مرجعيون، إنهم أبرقوا [أي أهل مرجعيون] إلى الجنرال غورو في بيروت يستنجدونه فما كان من مجيب، وغاية ما هناك أنه بعد يومين أرسل طيارتين طارتا فوق تلك الربوع الملتهبة بالحريق والقتل وعادتا إلى بيروت. وكان الفرنسويون معسكرين بالقرب من مرجعيون يتفرجون فاستغاث المسيحيون بالضابط الإفرنسي لكي ينجدهم فأبى قائلًا ان ليس لديه أوامر أن يتدخل. فطلبوا منه على الأقل سلاحًا لكي يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم، مع أن عندهم الكثير من السلاح الذي أبقته الحرب، وما قولهم

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد الثلثاء 4 تشرين الثاني 2014.

[2] طبع هذا الكتاب في سان باولو في العام 1931، ومؤلفه جرجي الحداد هو ابن سارة شقيقة إبرهيم ابن الشيخ ناصيف اليازجي، وابن عمّ الكاتب والشاعر المهجري نجيب الحداد. وهو صاحب ومحرر جريدة «القلم الحديدي» التي أنشأها في سان باولو – البرازيل في العام 1914.

[3] هكذا كان بعضهم يسمي السنة مسلمين والشيعة متاولة.

[4] زعيم عشيرة الفاعور في الجولان، وقد كان شبه أمّيٍّ كما رأيته في خمسينيات القرن الماضي، وكنت يومها في سن المراهقة.

هذا إلّا لكي يمتحنوا محبة «الأم الحنون...» فأبى عليهم هذا قائلًا إنه لا يدافع إلّا عن الفرنسويين وليس عن السوريين الذين يمكنهم أن يذبحوا بعضهم بعضًا إلى ما شاء الله».

وبعد أن يروي قصصًا عن حوادث مشابهة يقول:

«وهذا ما كان يريده غورو باشا الغازي الذي بعد نيل مأربه الاستعماري وتثبيت قدم دولته في سوريا الحزينة، بعث واستدعى محمود بك الفاعور وعانقه وأنعم عليه بنيشان المعارف وعينه عضوًا شرفيًا في الأكاديمي فرنسيز. ولا تسل عن الضحك الذي حدث يومئذٍ من هذا التعيين وهذا النيشان وهذه المهازل المقرفة التي تتقزز منها النفس. ولما عُوتب الجنرال غورو من بعض وجوه المسيحيين على هذا العفو عن الرجل الذي لطّخ يداه بدم المسيحيين، قال بالحرف: (إن فرنسا تعرف المذنب من البريء فكل واحد عليه بالنظر إلى أشغاله الخاصة). ونظنُّ أن هذه أفضل وأصدق كلمة قالها هذا المستعمر لأنه هو وحده طبعًا يعرف المذنب من البريء.»

وهذا الأمر لا يقتصر على فرنسا وحدها فالتاريخ، بقديمه وحديثه، مليءٌ بما يشبهه، وقد تتغير الأسماء من حماية الأقليات إلى الدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان أو الديمقراطيات إلى تحرير الشعوب من الظلم... إلى ما هنالك من تعابير لتبرير التدخل في شؤون الشعوب الضعيفة.

وإليكم هذه الحكاية، لعلنا نأخذ منها العبرة فنمتنع جميعًا عن طلب الحماية أو المساعدة من الأجنبي الذي لا يمكن أن يهتم إلّا بمصالحه فقط. تقول الحكاية:

يروى أن ثريًّا كان يملك مزرعة كبيرة وفيها أيضًا بعضُ الحيوانات الأليفة والدَّواب، ومن بينها فرسٌ أصيلة وبغلٌ اسمه «بلَيْق». وفي أحد الأيام تسلّل إلى المزرعة لِصٌّ، وعلى غفلةٍ من صاحبها والعاملين فيها، امتطى الفرسَ وانطلق بها مسرعًا، ولكنّ صاحب المزرعة رآه، فركب فورًا أقرب جياده ليلحق به، كما نبَّه أحد العاملين في المزرعة، واسمه «مبروك»، الذي اعتلى بدوره ظهر «بليق» وانطلق به كالسهم، ولما قارب «مبروك» أن يلحق باللص ليمسك به، ناداه صاحب المزرعة صارخًا: «ارجع يا مبروك، تفنى الأصيلة ولا بليق يردها».

فليكنْ، يا إخواني، «بليق» في كلِّ أجنبيٍّ يدَّعي الرغبة في حماية أيٍّ منا من أبناء وطنه، مهما جاروا عليه أو ظلموه.

شارلي إيبدو ومركز التجارة .... هل من علاقة؟[1]

في السابع من الشهر الفائت تعرّضت مكاتب مجلة الكاريكاتير الفرنسية «شارلي أيبدو» لهجوم مسلح أسفر عن مقتل اثني عشر شخصًا من العاملين فيها. وقد ترافقت إذاعة خبر هذا الهجوم مع القول بأنَّ شقيقين جزائريين مسلمين متشددين من عائلة كواشي، هما اللذان قاما بتلك العملية انتقاما من المجلة لإساءتها إلى النبيّ محمد ﷺ برسومها الساخرة. وفي اليوم التالي أعلنت الشرطة الفرنسية أنّها تمكنت من قتل ذينك الشابين. وبعد مدة وجيزة تبين أن سبب اتهامهما هو عثور الشرطة الفرنسية على بطاقة هوية أحدهما في السيارة التي كانا يستقلانها لتنفيذ ذلك الهجوم، ولم يذكر أحدٌ سبب وجود هذه البطاقة في السيارة، فمات هذا السر، ولو مؤقتًا، مع مقتل ذينك الشابين.

فتعود بي الذاكرة إلى أحداث الحادي عشر من أيلول 2001عندما قالت الشرطة الأميركية إنها عثرت على جواز سفر محمد عطا بين رُكام وحُطام مبنيي مركز التجارة العالمي في نيويورك. ومحمد عطا هذا هو من اتُّهم بأنّه قائد المجموعة التي استولت على الطائرات التي ارتطمت ثنتان منها ببرجي ذلك المركز، اللذين انهارا، إثر ذلك، في غضون دقائق وكأنهما من الكرتون، وتحولا مع الطائرتين إلى جزيئيّات لا يدل أيّ منها على ما كانت تشكّل. وكذلك أصبح، أيضًا، حال جثث من كانوا سواء في البرجين أم في الطائرتين. أمّا كيف سلم جواز محمد عطا وحده من دون غيره فهذا من الأسرار التي ماتت مع موت من اتهموا بتلك الأحداث.

ثم بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع على حادثة «شارلي إيبدو»، نشرت مجلة الأعمال الهولندية «كووت» خبرًا مفاده أن ملكية هذه المجلة كانت قد انتقلت، قبل نحو الشهر من تلك الحادثة، إلى اسم أحد أفراد عائلة روتشيلد اليهودية الشهيرة والواسعة الثراء. وهذا ما يعيدنا بالذاكرة ثانيةً إلى مركز التجارة العالمي في نيويورك إذ تبيّن أيضًا أن أحد الأثرياء اليهود قد اشتراه قبل نحو الشهرين من أحداث الحادي عشر من أيلول، وقد اقترن خبر الشراء هذا بأن المشتري أبرم في

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد السبت 2015/2/14.

حينه عقد تأمين على ذلك المركز مع شركة تأمين ألمانية، ليس بين مساهميها أيُّ يهودي، وأنّه قبض، فيما بعد، من تلك الشركة قيمة بوليصة التأمين مضاعفة بحجة أنّ ما حصل حادثتان لا واحدة.

وبانتظار أن يطلع علينا خبرٌ آخر عما إذا كان المالك الجديد لمجلة «شارلي إيبدو» قد تعاقد أيضًا مع إحدى شركات التأمين، نشير إلى أن هذه المجلة كانت على وشك الإفلاس وأنها في أول إصدارٍ لها بعد تلك الحادثة، قد طبعت خمسة ملايين نسخة عوضًا عن الخمسين ألفًا التي كانت تطبعها سابقًا.

مسؤولية فرنسا عن حادثة

«شارلي إيبدو[1]»

يفاخر الفرنسيون بأنّ قوانينهم تصون الحريات، بما فيها حرية الرأي والمعتقد والتعبير، انطلاقًا من شعار دولتهم: «حرية – إخاء – مساواة». والرأي والمعتقد ملازمان لنفس صاحبهما ويبقيان من أسراره ما لم يعبر عنهما، وهذا التعبير يكون على ثلاثٍ: قولًا أو كتابةً أو رسمًا، أو باثنين منها أو جميعها. ويقول كثيرون منهم بأنّ حرية التعبير لا حدود لها. ولكن هل في الدنيا حرية مطلقة؟ بالتأكيد، لا، ومن تخطى حدود حريته أصبح معتديًا على غيره. فإذا كان أحد الصَّحفيين، مثلًا، يظنّ أن مسؤولًا ما فاسدٌ أو سارقٌ أو زانٍ، فهل يحق له أن ينعته علنًا بإحدى الصفات المعبرة عن رأيه هذا؟ بالتأكيد سيتعرض ذاك الصَّحفي للملاحقة القانونية، إذا لم يقدِّم دليلًا حسّيًّا لقوله، وهذا أمرٌ طبيعيّ ويكفله القانون الفرنسي لأنّ في عمل ذاك الصَّحفي إهانةً لذلك المسؤول، وبالتالي أذًى معنويًا له قد يتحول إلى مادي. أمّا إذا أهان ذاك الصَّحفيُّ نبيًا أو رسولًا فيعتبرونه من قبيل حرية التعبير، على الرغم من أنّ تلك الإهانة قد تسبّب أذًى لمليارات البشر.

فإذا كانت أذيّة شخصٍ واحدٍ ممنوعةً قانونًا فلماذا لا يمنع القانون أيضًا أذيّة أولئك المليارات؟ وهل يستندون في هذا على أن الجريمة الصغيرة يجب أن يعاقب مرتكبُها، أمّا الكبيرة فتكون قابلة للتسوية!؟

ثم لم ننسَ بعد أن في العام 1998 حكمت محكمة فرنسية على المفكّر والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي، بالسجن مدة سنة بتهمة «التشكيك» فيما يسمى «إبادة يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازيين» وذلك لأنه قال، في كتابه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل»، بأنَّ الأرقام الشائعة حولها، مبالغٌ فيها، ومن دون ينفها. وقد كان يومها في الخامسة والثمانين من سني العمر، فالقانون الفرنسي يمنع الخوضَ في أيّ من أمور تلك «الإبادة»، بحجة أنّه قد

[1] نشر هذا المقال على صفحتي في الفيس بوك في 2015/3/17.

يسبب أذًى معنويًا لنحو خمسة عشر مليون يهودي في العالم أجمع. فأين أصبحت هنا حرية التعبير!؟

أما من يسبب أذًى لمليار وخمسمائة مليون مسلم برسوم بذيئة ومهينة لنبيهم ﷺ، أو من يصور المسيح (عليه الصلاة والسلام) «متهتِّكًا» أو «مثليَّ الجنس»، ومريم العذراء، (ع) «عاهرة»، اللذان يعتبرهما المسيحيون والمسلمون، على حدٍّ سواء، «رمزي القداسة والطهارة»، ولا دليل لدى ذاك المصور على ذلك سوى الكره والحقد أو الإلحاد، فهذا يعتبرونه من حرية التعبير!! على الرغم من أن في عمله هذا أذًى معنويًا لما يزيد عن الأربعة مليارات من المسيحيين والمسلمين مجتمعين!!

وأن تسير امرأة في شوارع باريس شبه عارية فيعتبره القانون من حريتها الشخصية، أما أن تغطي أخرى شعرها فهذا مخالفٌ لقانون العلمنة الفرنسي وبالتالي هي ليست حرّة! أقول هذا على الرغم من قناعتي بأن غطاء الشعر هذا ليس من رموز دين الإسلام بل هو عادة متوارثة منذ ما قبل الإسلام، بدأ التخلي عنها مع بداية القرن العشرين ثم عاودت الظهور في الربع الأخير منه مع هذه الموجة من التعصّب والجهل الذميمين.

«مسكينة أنتِ أيتها الحرية، كم من الجرائم ترتكب باسمك»!؟

إنَّ من يريد أن يحمي بيته من اللصوص عليه ألّا يترك لهم منفذًا يدخلون إليه منه. كذلك على الدولة التي تريد حماية مواطنيها أن يكون في قوانينها، لا المساواة والعدالة فقط، بل ما يقفل الأبواب أمام المجرمين. فلو كانت السلطات الفرنسية قد وضعت في قوانينها حدودًا لما تسميه «حرية التعبير»، فهل كانت لتحصل حادثة مجلة «شارلي إيبدو»، إن كان الدافعَ الحقيقيَّ، كما قيل، الانتقامُ منها لإساءتها إلى النبي محمد ﷺ؟ وإن كان العوز أحد الأسباب التي تدفع اللصّ إلى السرقة، فالتعصب الأعمى الناتج عن الجهل قد يدفع متشددًا «مغسول الدماغ» لارتكاب جريمة، مهما بلغ حجمها، معتقدًا أنّه فيها يحصِّلُ حقَّ وشرفَ نبيه؛ خصوصًا وأنَّ العالم أجمع يعاني منذ عدة عقود من جهل أولئك المتعصّبين المتشدّدين الذين نصَّبوا أنفسهم حماةً لدين الإسلام ولله تعالى ولرسوله ﷺ، وما هم في الحقيقة إلّا أعداء الإسلام والمسلمين.

ولهذا أقول: إنّ السلطات الفرنسية هي المسؤول الأول عن جريمة مجلة «شارلي إيبدو»، لأنها لم تقفل «النوافذ» في وجه أولئك المجرمين.

حرب المائتي سنة[1]

إنّ ما يحصل في البلاد العربية هذه الأيام ليس مؤامرة، كما يحلو لبعضهم تسميتها، بل أراها حربًا من حروب صراع البقاء، أو صراع الأمم. أراها بدأت هذه الحرب في آخر القرن الثامن عشر مع نزول نابوليون بونابارت بجيشه على أرض مصر، ثم توجهه بعد ذلك إلى عكّا، لتتصدى له بريطانيا العظمى وتردّه عنها ثم تطرده من مصر. لم تقم بريطانيا بذلك حبًّا بسلاطين بني عثمان، بل أولًا: بسبب العداوة القديمة بينها وبين الفرنسيين، الذين سيقومون حتمًا بقطع طريقها إلى الهند إذا ما احتلوا مصر وسوريا، اللتان تشكلان مع ما حولهما من الأراضي العربية، بقعة هي أهمّ بقاع الكرة الأرضية، بموقعها الاستراتيجي كبوابة لقارات العالم القديم الثلاث، ولِما فيها من ثروات طبيعية ضخمة. وثانيًا: لأنها لم تكن بعد قد اتفقت والدول الأوروبية على تقاسم تركة ذلك «الرجل المريض» (الدولة العثمانية).

وفي العام 1840 تقاطرت الدول الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، لمساندة السلطنة العثمانية في طرد جيوش محمد علي باشا من سوريا وإعادة تحجيمه واليًا على مصر. وعلى الرغم من أنّ فرنسا كانت حليفة لمحمد علي، فلم تقدّم له المساعدة التي كان يحلم بها لصد تلك الحملة. لم تقم الدول الأوروبية بذلك إلّا لأنّها أيقنت، أن دولة حديثة فتيّة بدأت تظهر بقوة على أهم موقعين من تلك البقعة الاستراتيجية ولتحلّ بالتالي محلّ السلطنة العثمانية، التي كانت على طريق الزوال. وكان لا بدَّ لهم أيضًا من تسليح وإثارة أبناء جبل لبنان بوجه محمد علي للتسريع في طرده، ليقينهم أنّه لم يتمكن سابقًا من احتلال سوريا بسرعة قياسية لولا وقوف اللبنانيين عسكريًا معه. هذا الجبل الذي يشكل «القلعة الطبيعية التي من يسيطر عليها سيسيطر على سوريا بكاملها». وهذا ما جعلهم أيضًا يثيرون تلك الأحداث المؤسفة بين أبنائه، بدءًا من العام 1842 حتى 1860، ويلبسونها الثوب الطائفي، كي يُنهوا أهمية هذه القلعة.

وفي العام 1907 شكّل رئيس وزراء بريطانيا، كامبل بانيرمان، لجنة من الخبراء، في عدّة حقول، من كلٍّ من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة عدد 19 نوار 2015.

وإسبانيا وإيطاليا، وكلّفهم بدراسة أحوال الدول الأوروبية، وخاصة الاستعمارية منها، التي قاربت، حسب رأيه، حافة الزوال. وكانت نتيجة تقرير تلك اللجنة أن الخطر الأهم في سرعة زوال دولهم يكمن في العالم العربي، الذي يقطنه أناسٌ يتكلمون لغة واحدة، وغالبيتهم على ديانة واحدة، وأرضهم تحتوي على كميات هائلة من الموارد الطبيعية المتنوعة، ولا يفصل بينهم فاصل جغرافي، وقد بدأوا يصحون من سُبات طال أمده، ولا يحتاجون إلّا إلى قيادة قويّةٍ حكيمةٍ ليقيموا دولة قوية على أهمّ بقاع الأرض استراتيجية، والتي ستتمدد بعد ذلك حكمًا تجاه أوروبا.

أما الحلّ، الذي خلصوا إليه، فكان التالي:

1 – العمل المستمر على تفتيت وتقسيم وتفريق هؤلاء العرب.

2 – تأسيس كيانات مصطنعة تكون تحت سيطرة الدول المُستَعمِرة.

3 – محاربة أيَّ نوع من أنواع الوحدة بينهم سواء كانت جغرافية أم ثقافية أم دينية أم تاريخية، والعملُ من دون حدود على تقسيم المناطق المأهولة من أراضيهم.

4 – ولإتمام ذلك اقْتُرِح أن تُؤسَّس في فلسطين دولة «فاصلة» (Buffer state) مأهولة من أناسٍ غرباء أقوياء، معادين لجيرانهم، أصدقاء للدول الأوروبية ومصالحها.[1]

وهكذا كانت اتفاقية سايكس – بيكو، ووعد بلفور ثم قيام دولة إسرائيل. أما لماذا اختاروا فلسطين بالتحديد؟ فلأنّها تشكّل فاصلًا جغرافيًّا كاملًا فيما بين عرب آسيا وعرب إفريقيا.

وأعتقد بأنني لست بحاجة لسرد ما حصل للبلاد العربية منذ بداية القرن العشرين وحتى يومنا هذا. مع الإشارة إلى أنّ الولايات المتحدة الأميركية تولّت، منذ خمسينيات القرن الماضي، الدور الذي كانت تقوم به، في بلادنا العربية، دولُ الاستعمار القديم، وبخاصّة بريطانيا وفرنسا، بما عُرف يومها بسياسة «تعبئة الفراغ». كما تولى الاتحاد السوفييتي، سابقا، الاتحاد الروسي حاليًّا، دور القياصرة الروس.

ومن رؤيتي لما حدث ويحدث على أراضينا أقول: إن تلك الدول لا تضع الخطط مسبقًا ولكنها تراقب وتنتظر ما نقع فيه من أخطاء، وما أكثرها، فتستغلها

---

[1] ***The Origins of Imperial Israel- Part I*** - DECEMBER 30, 20113 COMMENTS - **Israel: A Buffer against Arab Nationalism - By Andrew Gavin Marshall.**

http://www.boilingfrogspost.com/2011/12/30/the-origins-of-imperial-israel-part-i/

لتحقيق غاياتها في زيادة شرذمتنا وتقسيمنا وتقطيع الأواصر التي تربط فيما بيننا. لأنّ أفضل وسيلة لإضعاف العدو هو تفريق مكوناته.

وهنا أسأل جميع المسؤولين في البلاد العربية قاطبة:

هل علم أحدكم، أو أحد مستشاريكم، بتلك المقررات أو مثيلاتها؟ وما أكثر أولئك المستشارين! أم ما زلتم تغُطُّون بنومٍ عميق؟ وإذا ما علمتم بها، وبما أنّ أسلافكم قصّروا بمواجهتها، فكيف ستواجهون ما هو آتٍ؟

وأختم بالقول المأثور: «إن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم.»

دعاء[1]

اللهم احمِ لبنان من زعمائه وسياسيّيه.
اللهم نجِّهِ من شرّ زلاتهم وأخطائهم ورغباتهم ونزواتهم.
اللهم قِهِ من دلع أبنائهم وأصهارهم.
اللهم أقنعهم أنهم ليسوا بباقين ولا خالدين، وأنّ لبنان ليس لهم وحدهم، ولا لأبنائهم وأصهارهم من بعدهم، بل هو للبنانيين أجمعين.
اللهم ارحمْ لبنان واللبنانيين وخلصهم من أولئك الزعماء والسياسيين.
اللهم أبعدهم عنا.
اللهم خذْهم وأرِحْنا من عقولهم ووجوههم وألسنتهم.
اللهم يا مجيب الدعاء، لا تخيّب رجائي، إنك على كلِّ شيء قدير،
اللهم آمين.

[1] نشر هذا الدعاء على الفيس بوك في 2015/6/5.

الحزنُ القاتل[1]

حزينٌ أنا من رؤية بلادي تتمزَّقُ وتتفسّخ وتتفتّتُ أمام عينيّ وليس بيدي أن أفعل شيئًا سوى ما يخطّه قلمي، في زمنٍ أصبح فيه القرّاء نادري الوجود. وما يحزُّ في نفسي، بل ويُدمي فؤادي، أن يكون أبناؤها هم أكبر المساهمين في تنفيذ ذلك وبكل جهدٍ وإخلاص، ثم يتّهمون الأجنبيَّ بحياكة وتنفيذ المؤامرات عليها.

بلاد العالم أجمع تتجه إلى الاتحاد أو الوحدة، وبلادنا تسير نحو التقوقع. هذه أوروبا، المتعددة القوميات واللغات، تتحد. ونحن نعمل للعودة إلى «المدينة المملكة». كان آباؤنا وأجدادنا يعملون على التخلص من كيانات «سايكس – بيكو» ليعيدوا «بلاد العُرب أوطانًا»، أمّا اليوم فقد نسينا هذا البلاء، بل أصبحنا نعمل جاهدين لتفتيت حتى تلك الكيانات، ونصفّقُ لكل نزعة انفصالية جديدة، سواء كانت طائفية أم مذهبية أم عرقية.

فلبنان، الذي علَّم البشرية الحَرْفَ، والذي أرسى قواعد وحدة انتماء أبنائه ميثاقُ العام 1943، تحول إلى دويلات ومزارع بعدد طوائف ومذاهب و«زعماء» من بقي فيه من أبنائه. هؤلاء «الزعماء» يتبجح كلٌّ منهم بأنه يعمل لمصلحة طائفته ولكنَّ الواقع أنّهم يلعبون على الأوتار الطائفية والمذهبية لمآربهم الخاصّة ولتقاسم ما تبقى من خيرات لبنان؛ وليس فيهم من يهتمُّ بمصلحة هذا البلد التعيس بهم. ثم يطلع علينا بعضهم ويطالب باعتماد النظام الفدرالي على رقعة من الأرض قد لا تساوي مساحتُها مساحة قضاء في بعض الدول.

وفلسطين، الأرض المقدسة، مهد المسيح (عليه الصلاة والسلام) وأولى القبلتين، أصبحت في عالم النسيان. يقتل بنو صهيون أبناءها بأوحش مما تُكافحُ به الجرذان، ويغيّرون معالمها، ولا من يسأل.

والعراق، مهد الحضارات، بعد أن قُتلَ وهُجِّرَ الملايين من أبنائه، غدا اليوم ثلاث دويلات، وما زال التقتيل والتذابح، بين سنّي وشيعي، الخبزَ اليوميَّ لمن بقي فيه من مسلميه، بعدما هُجِّر معظم مسيحييه، أراه سائرًا نحو المجهول.

---

[1] كتبت هذا المقال في 2016/3/25 ونشر في جريدة الحياة عدد 2016/4/26، ونشر أيضًا في العدد 418 من جريدة الرسالة – مونتريال بتاريخ 2018/6/29.

وسوريا، قلب العروبة النابض، تسيل الدماء فيها أنهارًا منذ بضع سنوات، يُقتل من أبنائها مئات الألوف ويُهَجَّر الملايين. أما من بقي فيها منهم، فيستعينون بالأجنبي ليقتل الأخُ أخاه، لاختلاف المذهب أو الرأي. بل هم يتفنّنون بأساليب القتل والذبح والحرق وتدمير «أرض الحضارات». سوريا التي وقف أبناؤها بجميع انتماءاتهم، الدينيّة والعرقيّة، في أول عشرينيّات القرن الماضي، وقفةَ رجلٍ واحدٍ، بوجه فرنسا التي أرادت جعلها أربع دويلات، أخذت رياح التقسيم تعصف، لا على الأرض فقط، بل وفي النفوسِ أيضًا. ولواء إسكندرون السليب لم يعد يذكره أيٌّ منهم. والمؤسف، أيضًا، أن أحفاد صلاح الدين، بعدما ساهموا في تقسيم العراق ها هم اليوم يدقُّون أول مسمارٍ في نعش وحدة سوريا.

قديمًا قيل: «العربيُّ وجملُهُ يشكلان إمبراطوريةً مستقلة»، فهل نحن سائرون اليوم إلى تحقيق هذه المقولة مجدَّدًا؟

وما يزيد في أحزاني أولئك الذين انتقلت أدمغتهم من رؤوسهم إلى فُروجِهم، وانتشروا في أصقاع المعمورة، يكفِّرون من ليس على رأيهم، ويفجِّرون أنفسهم ليقتلوا مئات الأبرياء في المطارات ومحطات مترو الأنفاق، وفي المسارح وملاعب الرياضة وفي الساحات العامة والأسواق، بعدما أقنعهم بعض أصحاب اللحى المُحنَّاة والشواربِ المحفوفةِ، في أنّ ذلك سيوصلهم إلى جنات النعيم حيثُ سيُزَوجُون بحورٍ عينٍ لا يُحصى عددُهن. فغدا العربيُّ، بخاصة، والمسلمُ عامةً، في نظر الآخرين، إرهابيًّا يقتلُ للقتل لا فرق عنده أقتلَ طفلاً أم امرأةً أم عجوزًا.

فيا إلهي، هل كان قدري أن أحيا إلى هذا الزمن الذي ماتت فيه الضمائرُ وانعدم فيه الحسُّ الوطنيُّ والشعورُ الإنساني، واغتيل فيه حلمُ وجهادُ آبائنا وأجدادنا في العيش بكرامة في وطنٍ موحدٍ مستقلٍّ؟

فوا حرَّ قلباهُ عليكِ يا بلادي.

كفاك وعيدًا[1]

كفاك وعيدًا يا «سيد» جبران. وكفاك تلاعبًا على أوتار الطائفية والمذهبية، وأخيرًا وليس آخرًا بدعة «الميثاقية»، وكفاكَ ادعاءً بالمطالبة بحقوق المسيحيين ومصالحهم، فهم، كإخوانهم المسلمين، لبنانيون أولًا، والمسؤول عنهم هو الدولة وحدَها، بكامل مؤسساتها التي تعطلونها، أنتم ومن يشدُّ على أيديكم، بتعطيلكم انتخاب رئيس الجمهورية «المسيحي»، أكرر «المسيحي»، منذ ما يزيد عن العامين، ومعه أصاب الشللُ مجلس النواب وسائر المؤسسات والإدارات، المدنية منها والعسكرية. وها أنتم اليوم تعملون على تعطيل، ما أصبح بفضلكم، شبه حكومة، وتضعون الحوار أمام حائط مسدود، وهو ما كنَّا نتوسم فيه آخر أبواب الفرج.

أيكون «الإصلاح والتغيير»، الذي «طوشتمونا» به، بتعطيل وتدمير ما تبقى من هذه الدولة، التي جعلتموها بأفعالكم أنتم وسائر «المسؤولين» من أفشل دول العالم؟

واذكر، يا «معالي الوزير»، بأنك ما كنت لتحلم يومًا لا بإدارة ولا بوزارة، لو لم تكن «الداماد»، (لمن لا يعرف، هي كلمة تركية تعني: صهر السلطان). فكم من وزارة عرقل «حموك العماد» تأليفها قائلا: «نعم، كَرْمَى للصهر ما في وزارة». وإذا كنت تحلم اليوم ب «توصيل حميك»، قسرًا وكرهًا، إلى بعبدا وبأن ترثه فيما بعد كما ورثتَ رئاسة تياره، فاصْحُ من حلمك واستيقظْ واعلمْ أن نتائج أفعالكم وتصرفاتكم هذه لن تكون في خسارتكم هذا الحلم فقط، بل ستؤدي إلى القضاء التام على دولة كان اسمها لبنان، بمسحييها ومسلميها معًا.

ويا أيها «الزعماء الكرام»، بالأمس القريب شهد شاهد منكم، حين قال الرئيس أمين الجميل: «إنَّ التاريخ سيلعننا». نعم هذا قولٌ صائبٌ، وقد يكون هذا اللعن قد بدأ منذ زمن. فإذا كنتم تريدون حقًّا أن يترحَّمَ عليكم أبناؤنا وأحفادنا لا أن يلعنوكم فقط، فما عليكم سوى العودة إلى بيوت آبائكم عساكم تعثرون على ذلك الكتاب الذي تعلمنا فيه نحن وآباؤنا وآباؤكم وأجدادنا وأجدادكم، عنيت كتاب «التربية الوطنية»، لعلّكم تتعلمون منه أنتم أيضًا، أن الأوطان لا تبنى بتفريق

[1] نشر هذا المقال على صفحتي على الفيس بوك. 27/ أيلول 2016.

أبنائها، ولا بالكلام المنمّق والخطب الرنانة، ولا بالشعارات الفارغة والادّعاءات المزيفة، بل بالعمل بكل إخلاصٍ وأمانةٍ وصدقٍ لمصلحتها ورفعها فوق كل المصالح، وبالتضحية، لا بالكراسي فقط، بل بكلِّ غالٍ ونفيسٍ أيضًا، في سبيل إعلاء شؤونها، وتحصين مواقعها واستقرارها وأمنها وعزة وكرامة أبنائها.

وأنتم، يا شباب لبنان، إن كنتم تؤمنون حق الإيمان بلبنانيتكم، قبل مسيحيتكم وإسلاميتكم، فقفوا وقفة عزٍّ وهبُّوا صفًا واحدًا لمنع سقوط بلدنا الحبيب ونهائيا في الهاوية التي يقف اليوم على حافّتها. ولا تنتظروا العون من شقيقٍ أو صديقٍ أو حليفٍ، فكلٌّ منهم يعمل لمصلحته هو فقط. لا تتخاذلوا فتتحولوا نوّاحين كالثكالى، وأيتامًا يتسولون اللجوء المُذِلَّ في مشارق الأرض ومغاربها. كفاكم «صبرًا» فالصبر الزائد ليس سوى ضعفًا وخنوعًا وعبودية. ومن لا يعرف مصلحته لن يلقى الذي يهديه إليها. ومن لا يرحم نفسه لن يجد من يرحمه. اللهم فاشهد، إنّي قد بلغت.

خمسون عامًا والحرائقُ في دمي[1]

خمسون عامًا والحرائقُ في دمي *** خمسون عامًا أعجزُ التَّأويلا
فخطيئتي أنّي رسمتُ خريطتي **** ومشيتُ في نهجِ الفداءِ سَبيلا
وخطيئتي أنّي زهوتُ بوحدةٍ ******* وضممتُها في جانحَيَّ بَديلا
وزرعتُ في يافا بذُورَ سنابِلٍ ****** فتماوجَتْ في الرافدينِ نَخيلا
(هتاف السوقي)

هذه الأبيات أهدتها إليَّ، مشكورة، منذ بضعة شهورٍ، «سيدةُ الشعر» الأخت الكريمة هتاف السوقي صادق، في مداخلةٍ لها إبّان حديثٍ لي، مع الإعلامي الأستاذ فكتور دياب، عبر أثير إذاعة الشرق الأوسط في كندا[2]، إثر استماعها لمقاطع قرأتُها يومها من مقالة، كنت كتبتها منذ بضع سنوات، بعنوان «خمسون عامًا مع الأرقام»، وبعد متابعتِها بعضًا من كتاباتي على مواقع التواصل الاجتماعي. وقد وعدتها، يومها، أن يكون لهذه الأبيات موقعٌ في إحدى كتاباتي، وها أنا اليوم أفي بذلك الوعد، وأقول لها:

لقد أدركتِ، سيدتي، بإحساس «الشاعر المرهف»، بعضَ ما يؤلم النفسَ ممّا تعاني منه بلادي. ولكن، ثِقِي بأن عودَ الثقابِ الذي أشعل تلك الحرائق في عروقي، لم يولد من رحِمِ الأرقامِ، فالرقم أُحاديُ المعنى يصّورُ الحقيقة والواقع بصدقٍ. بل أنتجه ذلك الوهم الذي ملأوا به عقولنا وقلوبنا بتلك الكلمات، المُلوَّنةِ الجوفاءِ الطنَّانةِ الرنَّانةِ، التي طَبَّلتْ لها وصمَّتْ بها آذانَنَا، أبواقُ الحُكَّامِ مذ ضاعت فلسطين، في العام 1948. حتى أنّني اقتنعتُ، ولأيام معدوداتٍ، بأن النصر قريبٌ، وأنَّ بضعةَ أيامٍ فقط تفصلني عن تحقيقِ حُلُمي بأن تطأ قدمَايَ ثانيةً ترابَ أرضٍ زرتُها طفلا، لم يكن بعد قد بلغ التاسعة.

نعم سيدتي، كان ذلك منذ خمسين عامًا، وبالتحديد في الخامس من حزيران (يونيو) من العام 1967. يومها تمكن بضعةُ آلافٍ من «شُذّاذ الآفاق» أن يُمرّغوا

[1] كتبت هذا المقال بمناسبة الذكرى الخمسين لحرب 1967 التي سميت «النكسة»، ونشر في صحيفة الحياة في 11 حزيران 2017.
[2] كان ذلك في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 2016.

بالتراب والعار أنوفَ «خيرِ أمّةٍ أخرِجت للناس»، وأن يستولوا على ما تفوقُ مساحته أضعافَ ما اغتصبوه من الأرض أول مرة. ولكن لم يسكت بعد ذلك أولئك الحكّام «الكرام»، بل ثاروا وهاجوا وماجوا وعقدوا مؤتمرًا في الرَّباط، قال فيه عمر أبو ريشة، رحِمَهُ الله:

خافوا على العار أن يمحى فكان لهم ** على الرباط لدعم العار مؤتمرُ

وبعدما استعيدت سيناء، بالتذلُّلِ والذُّلّ والمهانة، غاب الجَولانُ والضفةُ الغربيةُ وفلسطينُ بقدسها وخليلها وبيت لحمها وناصرتها، في غياهب النسيان الذي أصاب ذاكرةَ بني يعربٍ في كلِّ الأمور، إلّا في إطلاق اللحى وحفِّ الشوارب والبحثِ عن «الحور العين»، ولكن من دون أن ينسَوا أن المرأة «عورةٌ كلها»، وأنها خلقت لمتعة الرجل فقط.

عذرًا سيدتي، فالسنابلُ التي نبتَتْ من تلك البذور التي زُرِعَتْ في يافا، نضِجَت هشيمًا أشعل نيران الحرائق في أرزِ لبنان ونخيلِ العراق وياسمينِ الشام. ولم تسلم منها ليبيا واليمن، ومصر ليست ببعيدة عن ألسنتِها. أُزهقت مئات آلافِ الأرواح، وسقطَ أضعافها من الجرحى والمعوقين، وهُجِّر وشُرِّد ملايين النساءِ والأطفالِ والعجزة، بحثًا عن خِيمٍ في أمكنة آمنة، تقيهم حرَّ الصيفِ وبرد الشتاء. وامتلأت نفوس الإخوةِ والأهل والأقارب وأبناء البلد الواحد، بالحِقدِ والكراهيةِ والعداوة، بعضُهم تُجاه بعض. وقتل الأخُ أخاه، والابن أباه. وأُثكِلت النساءُ ويُتِّمت الأطفال. وعمَّ الخراب والدمار أصقاع البلاد.

وعلى الرُغم من أنّ من سلِم منهم تفرّقوا وتشتّتوا وتفتّتوا، سُنّةً وشيعةً ودروزًا ومسيحيين وأكرادًا وآشوريين وكلدانيين ويزيديين وأمازيغ و... فما زال هناك من يقول: «أمجاد يا عرب أمجاد». فأنَّى لي الَّا أتحرَّقَ حسرةً على بلادي؟

واليوم، يا سيدتي، وقد بلغتُ من الكِبَرِ عِتيًّا، فلم يبقَ لي سوى أن أرجوَ ربّي، الذي أمرني يومًا بالصبر، أن يبعثَ صلاحَ الدين ثانيةً، رافعًا رايةَ الحقِّ، لعلّه يحررُ ما سُلبَ من أرضنا ويَستعيدُ ما انتُهِك من كرامتنا.

والله على كلِّ شيءٍ قدير.

تفتيت البلاد العربية[1]

كثيرة جدًّا هي الشعوب، إن لم نقل: جميعها، التي تعرضت في التاريخ للغزوات والحروب والاحتلالات، منها من تمكن من النجاة، ومنها من «غرق» واندثر.

وقد يزداد تعرّض أيّ شعب لمثل ذلك بقدر ما تتميّز به أرضه من أهميّة، سواء في موقعها أم في ثرواتها. ويبقى من أخطر ما يواجهه ذلك الشعب إبّان تعرضه لأزمة ما، هو أن يتخلى أبناؤه عن وحدتهم ويتخاذلوا عن الدفاع عن كيانهم.

لم يسجّل التاريخ أن أرضًا ما قد تعرّضت للاحتلالات والغزوات والحروب بقدر ما تعرضت له هذه البقعة من الأرض، مما يسمى اليوم «الشرق الأدنى»، ويسميها بعضهم «سوريا الطبيعية أو الكبرى أو الهلال الخصيب»، لأهميّة موقعها الاستراتيجي بالإضافة إلى ثرواتها الطبيعية، والتي جزأتها اتفاقية «سايكس بيكو» منذ مائة سنة إلى ما يعرف حاليًّا بالعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين. وقد كان حظُّ هذه الأخيرة أن تُغتصبَ ويُهجَّرَ أهلها، بفضل بريطانيا «العظمى» وحلفائها، لتصبح حاجزًا يفصل بين عرب آسيا وعرب إفريقيا.

أمّا ما يحصل اليوم في البلاد العربية قاطبة، فهو أخطر بكثير من مفاعيل «سايكس بيكو»، عنيت تفتيت، ليس فقط، مجتمعات كيانات هذه «الاتفاقية»، بل أيضًا سائر تلك البلاد. والمؤسف المحزن هو أن يتمّ هذا التفتيت على أيدي المغرضين أو الجهلة من أبنائها، وبإخلاص وحماسة أشدَّ مما هو لدى أعدائهم. فبعدما أمعنوا بالتقاتل والتهجير والتدمير، برزت حربٌ فكريّة خطيرة، قادتُها ممن يسمَّون بالباحثين الذين ينبشون في مقابر التاريخ عمّا يزيد في بذر الفرقة ونار الحقد في النفوس. فبدأوا بما تحويه الكتب الصفر، ممّا يفرق دينيًا ثم «ارتقوا» إلى ما يفرق مذهبيًا، إلى أن بلغوا «القمّة» في العودة آلاف السنين بحثًا عن أعراقٍ بادت أو انصهر أبناؤها مع من طرأ عليهم من المجتمعات الأخرى،

---

[1] كتبت هذا المقال في 2017/6/21، وقرأته على أثير إذاعة الشرق الأوسط في مونتريال برنامج (ما خلصت الحكاية) الذي يقدمه الإعلامي الأستاذ فكتور دياب يوم الأحد الواقع فيه 2017/6/25. ثم نشر في جريدة الرسالة – كندا العدد 426 تاريخ 2018/11/16.

متناسين سُنّة تطور الشعوب والمجتمعات الدائم عبر التاريخ، فكريًا باندماج الحضارات وجسديًّا بالتزاوج.

وكانت سلسلة التفريق: فبعدما صنفوا أبناء البلد الواحد، هذا مسيحيٌّ وذاك مسلمٌ، أصبح المسيحيّون موارنة وروم أرثدوكس وكاثوليك وغيرها. وأصبح المسلمون سنةً وشيعةً ودروزًا وعلويين وغيرها. إلى أن وصلنا إلى الأعراق فسمَّوا هذا عربيًّا وهذا كرديًّا وذاك أرمنيًا وتركيًا وسريانيًا وكلدانيًّا وآشوريًّا إلى آخر المعزوفة.

وممّا يزيد الطين بِلّة هو مواقف الأجهزة الحكومية في البلاد العربية، من رأس الهرم إلى أسفله، التي عوضًا عن أن تقف في وجه نزعات التفرقة هذه بجميع أشكالها، نراها تساهم في إذكائها سواء عن قصد أم عن تقاعس وجهل.

وإنّي أسألُ السادةَ عُلماء الأعراقِ والأنسابِ والاجتماعِ: كم من السنين تحتاج جماعاتٌ من أعراقٍ وقومياتٍ مختلفةٍ إلى العيشِ معًا، على أرضٍ واحدةٍ وفي ظروفٍ واحدةٍ في حلوها ومرّها، ويتزاوجون بعضُهم من بعضٍ، كي ينصهروا فيما بينهم ليصبحوا شعبًا واحدًا؟ ألا تكفي أربعة عشر قرنًا لذلك؟ وألم يحن الوقت بعد لتقتنعوا بأنّنا أصبحنا شعبًا واحدًا؟ ولا فرق عندي في أن نُسمَّى عربًا أو غيره. وهذه الولايات المتحدة الأميركية أكبر مثالٍ أمامنا وهي لم يبلغْ بعد عمرها ثلاثة قرون.

فإنّي أهيب بقادةِ الفكرِ والبحثِ في بلادي، وبمسؤوليها كافةً، سِّياسيّين كانوا أم غير سِّياسيّين، كلٌّ في مجالِ عملِهِ ومسؤوليتِهِ، أن يقفوا جميعًا في وجِه هذه التياراتِ المُغرضةِ، ويعملوا على توحيد البلاد، حتى لو كلفهم الأمر التضحيةَ، لا بالكراسي والمراتب وحسب، بل بكلِّ غالٍ ونفيسٍ أيضًا. وأعتقد جازمًا بأنهم سيجدون ما يكفي ويزيدُ من مواطنيهم جنودًا مُخلصين مُجاهدين، للوصول ببلادهم إلى برّ الخلاص والأمان والعزة والكرامة، واقفين معًا سدًّا منيعًا بوجه أيِّ خطرٍ قد تتعرضُ له بلادنا الحبيبة، فيتسلمها أبناؤنا وأحفادنا حرَّةً أبية.

فكفانا تفتيتًا وتفريقًا ولندرأْ عنَّا لعنةَ الأجيالِ القادِمةِ.

كفى أمتنا تفتيتًا[1]

في كل يومٍ يطلُّ علينا «باحثٌ» أو «مؤرّخٌ» أو «عالمٌ بالأعراق» بمقولة: «نحن لسنا عربًا»، نحن سريانيون أو فينيقيون، أو آشوريون أو كلدانيون أو آراميون أو أقباط أو أكراد أو أمازيغ... وأنَّ لكلٍّ من هذه «الأعراق» لغتَه الخاصّة. ويحاولون إثبات نظرياتهم بطرقٍ شتى ومن دون الالتفات إلى آراء نظراء لهم في أنّ هذه التسميات هي لجماعاتٍ أو قبائل عربية نزحت من الجزيرة العربية، وأنّ لغاتهم لهجاتٌ عربية تطورت مع الزمن، وأن اللغة العربية إن لم تكن أمَّ ما يسمى ب«اللغات السامية» فهي أختهنّ الكبرى ووريثة الأمِّ.

ولمن ينكر وجود العرب، قبل الفتح، في ما كان يعرف بسوريا أو بلاد الشام، وهي اليوم العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين، أورد ما يلي:

أولًا: لقد حكم روما الإمبراطور ماركوس يوليوس فيلبس (204-249 م) المعروف بفيليب العربي المولود في شهبا السورية بالقرب من مدينة بُصرى. وعن سبب لقبه بالعربي يقول بعضهم لأنّه ولد في الولاية العربية الرومانية، ويقول آخرون بأن والده كان أحد شيوخ القبائل العربية التي أقامت في اللّجاه (في محافظة السويداء حاليًا). وهذا دليلٌ واضحٌ على الوجود العربي في سوريا قبل دخول الجيوش العربية إليها بمئات السنين.

ثانيًا: تخبرنا كتب التاريخ أن قبيلتي المناذرة والغساسنة نزحتا من اليمن بعد انفجار سد مأرب، واستوطنت الأولى في جنوب وسط العراق، ومنها الشاعر العربي امرؤ القيس، حيث أسّست مملكة عُرفت باسم مملكة الحيرة، وأسّست الثانية مملكتها في الشام. وأن هاتين المملكتين كانتا على عداء بينهما لولاء المناذرة إلى دولة الفرس والغساسنة إلى الدولة البيزنطية. وقد استمروا على هذه الحال حتى فتح العرب العراق والشام في عهد عمر بن الخطاب. فلو لم تكن هاتان القبيلتان ذاتي عدد وقوة لا يستهان بهما لما استعان بهما الفرس والروم.

ثالثًا: لقد امتدت سلطة الدولة العربية من حدود الصين شرقًا حتى شواطئ المحيط الأطلسي غربًا وبحر قزوين شمالًا، وذلك لما يزيد عن القرون الثمانية. فلا نرى اليوم اللغة العربية سوى في العالم العربي وحده، بينما لا نراها في

[1] نشر هذا المقال في جريدة الحياة في عدد الأحد 2017/10/22.

باكستان وإيران وأفغانستان وأندونيسيا وغيرها من البلاد التي اعتنقت الإسلام. كذلك زالت من إسبانيا التي حكمها العرب ثمانمائة سنة. ألا يعني هذا أنّ من كان من أصول عربية لم يتخلَّ عن لغته الأم؟

رابعًا: لقد حكم العثمانيون البلاد العربية، تحت راية خليفة المسلمين، أربعة قرون ولم يتخلَّ أبناء العالم العربي عن لغتهم على الرغم من محاولة تحويلهم إلى التركية.

خامسًا: أما عن «أحفاد صلاح الدين»، الذين يطالبون اليوم بدولة كردية، فيقول باحثون بأنهم من أصولٍ عربية، وسموا «كُردًا»، لا «كورد» كما يدّعون، لأنهم طُردوا من بلاد فارس إبان الحرب بين الأتراك، السنَّة، والصفويين، الشيعة، في أوائل القرن السادس عشر، لأنهم على المذهب السني. ولو عدنا إلى لسان العرب[1] باب (كرد) لقرأنا التالي: «الكَرْدُ: الطَّرْدُ. ابن الأَعرابي: الكُرْد، بالضم: جيل من الناس معروف، والجمع أَكراد؛ وأَنشد: لَعَمْرُكَ ما كُرْدٌ مِنَ أبناءِ فارِس، ولكنه كُرْدُ بنُ عَمْرو بنِ عامِر. فنسبهم إلى اليمن.»

وعليه أرجو السادة الباحثين والعارفين في شؤون الأعراق وعلماء الاجتماع، إجابتي على ما يلي:

1 – هل من المعقول أن يعيش أبناء «عِرقٍ» ما من دون أن يتزاوجوا مع أبناء أعراقٍ أخرى يعيشون وإيّاهم على أرضٍ واحدة، وعلى مدى أربعة عشر قرنًا؟

2 – كم هو عدد السنين التي يحتاج إليها انصهار سكان البلد الواحد ليصبحوا شعبًا واحدًا؟ ألا يكفيه أربعة عشر قرنًا؟

3 – ماذا يعني صدور قانونٍ فيما يسمى دولة إسرائيل يتيح لمن يريد تبديل هويته من عربيٍّ إلى آراميّ بإجراء إداريّ؟[2]

4 – أفتوني يا سادة في هوية ذرّيّتي، لقد شاءت الأقدار أن أُولد من أبوين يعودان بالنسب، كما أُخْبِرنا، إلى إحدى القبائل العربية مما قبل الإسلام، وأن يكون والدُ زوجتي ممن يسمونهم أكرادًا، ووالدتها من أبٍ تركيّ الجذور وأمٍّ «كرديّتها». فإلى أيٍ من الأعراق تريدونني أن أنسب ذريتي؟

5 – ألا يكفينا ما تعرّضنا له، ولم نزل، منذ مائة عام من تقسيم مصطنع كي نزيده اليوم بزرع الفرقة بيننا عرقيًا، بعد الطائفية والمذهبية، فتُملأ النفوسُ بالحقد والعداوة؟

---

[1] معجم لسان العرب لابن منظور المتوفى (711 هـ).

[2] صدر هذا القانون في أوائل العام 2016.

6 – أيهما أفضل، أن نعيش في ظلِّ دولة كبيرة قوية يمكنها حمايتنا بالصمود في وجه الطامعين والأزمات، أم أن نكون مشرذمين في دويلات ضعيفة تتلاعب بمصائرها الدول الأخرى؟ ثم ألم يكن ضعفنا سبب تهجيرنا؟

عندما دعا المفكر أنطون سعادة، رحمه الله، إلى وحدة «سوريا الطبيعية» لم ينفِ عنها عروبتها بقوله بأنها جزء لا يتجزأ من العالم العربي. الذي أراده من أربع دول هي: الجزيرة العربية وسوريا ووادي النيل والمغرب العربي. أليس أفضل من ثلاث وعشرين؟

فمن المؤسف والمحزن أن يصل بنا اليأس والانهزامية إلى التخلي عن تضامننا ووحدتنا بدل أن نقوم قومة رجلٍ واحدٍ لندرأ عن بلادنا شرور الأزمات التي تعصف بنا منذ بداية القرن الماضي.

سبعون عامًا على النكبة[1]

الخامس عشر من شهر أيار (مايو) 1948 يومٌ أسودُ في تاريخ العرب الحديث. بِضعُ مئات الآلاف من أعراقٍ وقومياتٍ مختلفة جاؤوا، من أصقاع الدنيا، بدعمٍ وتسهيلٍ من بريطانيا[2]، إلى فلسطين قلب العالم العربي، أعلنوا في ذلك اليوم قيامَ دولةٍ لهم على أرضها المقدسة، أسْمَوها «إسرائيل». فثارت «الحميَّةُ العربيةُ» في صدورِ حُكامِ «الدول» العربية وأعلنوا الحربَ على تلك «الدولة».

وبدلًا من أن يقولوا لأبناء فلسطين: «ابقوا في مدنِكُم وقُراكُم ودافعوا عن أرضِكُم بأيديكُم وأسنانِكُم...» قالوا لهم: افسحُوا المجالَ «لجيوشنا» لتطهّر الأرضَ من رِجسِ أولئك الصهاينة المعتدين، واخرجوا من دياركم لأيامٍ معدودات نُنهي فيهنَّ مهمتنا فتعودوا إليها معزّزين مكرّمين.

وتمرُّ «الأيام المعدودات» لتبلغ اليوم سبعين عامًا، وأبناءُ فلسطين مُشرَّدون في الأرضِ «لاجئون» في مخيماتٍ على أراضي إخوانٍ لهم ومحرُومون من بعضٍ من حقوق الإنسان بحجة «وجوب العودة».

بضعةُ آلاف، من أولئك الشذّاذ الذين اندسوا بين زيتون وليمون فلسطين في سنوات معدوداتٍ، تمكنوا، في تلك الحرب، من التغلب على ما يزيدُ عن الثمانين مليون عربي متجذرين في أرضهم منذ آلاف السنين، فضاعَ الجُزءُ الأكبرُ من فلسطين وكانت «النكبة الكبرى».

فماذا حصل بعد ذلك؟

في العامِ التالي بدأت في سوريا سلسلةُ انقلاباتٍ عسكريةٍ، كان القائمون بها يتّهمون من سبقهم، وعلى التوالي، بالتخاذل ويدّعُون بأنّ غايتَهم الاستعدادُ والتحضيرُ لحربِ تحريرِ فلسطين. ثم تلتها في مصر، والغايةُ هي نفْسُها، ثورةُ 23 يوليو (تموز) 1952، فانفصلت السودانُ عنها، والتي أصبحت اليومَ سودانين. ولم يتخلّف العراق كثيرًا عن ركب تلك الانقلابات، كذلك السودان واليمن وتونس وليبيا. ورُفِعَت شعاراتُ الوحدةِ العربيةِ، التي لم يعملْ أيُّ حاكمٍ

---

[1] كتبت هذا المقال بمناسبة الذكرى السبعين لاغتصاب فلسطين، ونشر في جريدة الرسالة – كندا العدد 416.

[2] إبّان انتدابها على فلسطين.

لإتمامها، باستثناء وحدةَ مصر وسوريا التي تمت بأعجوبة، أو قُلْ بالصدفة، ولذا لم تدُمْ طويلًا. واعتمد أولئكَ الحُكّام منطقَ التهاتُرِ والتشاتُمِ والتصنِيفِ بين تقدميّين اشتراكيّين ورجعيّين رأسماليّين، إلى أن وصلنا اليوم إلى مؤمنين وكُفَّار، بعدما أصبحَ التقاتلُ الخُبزَ اليومِيَّ لأبناء المدينة أو القرية الواحدة.

وباسم الاشتراكية التقدمية، أصدروا قوانين «الإصلاح الزراعي» و«التأميم»، فكانت النتيجةُ إفقارَ الشّعُوبِ والأوطانِ. ولكنّهم لم ينفكوا يومًا عن تهديدِ ووعيدِ مُغتصِبي فلسطين.

وراحُوا يشترون الأسلحةَ ويُعِدّون الجيوشَ ويضرِبون طُبولَ الحربِ حتى جعلونا نشعر بأن التحريرَ باتَ قابَ قَوسَين أو أدنى. إلى أن كانت الهزيمةُ الكُبرى الأُخرى في العامِ 1967، عندما تغلّبَ «ثلاثة ملايين» صهيوني على «مئتي مليون» عربي، يا للعار، فاستولَوا على ما تبقى من أرضِ فلسطين وضاعت غزةُ وضفةُ الأردُنِّ الغربيةُ، بالإضافةِ إلى سِيناء وأُقفلت قناةُ السُّويسِ، كما نالوا جائزةً على طبقٍ من فِضَّة اسمُها «هضبة الجولان»، أصعبُ وأعتَى وأهمُّ قلعةٍ طبيعيةٍ في الشرق. فسمّى حُكام العرب هذه الهزيمة «نكسةً». وقال بعضُهم: «انتظرناهم من الشرق فجاءُونا من الغرب»، وقال آخرون: «لقد انتصرنا عليهم إذ أحبطنا مخطّطهم الذي كانَت غايتُه إسقاطَ نظامنا، والنّظام أهمّ من الأرض».

فانتفض «سكانُ الملاجئ والمخيمات» وامتشَقوا السلاحَ قائلين: هي أرضُنا ونحن أولى باستِرجاعِها. فعادَ الأملُ إلى قلوبِنا، ولكنْ للأسفِ لمُدةٍ وجيزةٍ، إذ تسلّلَ سُوسُ السياسةِ إلى صفوفِهم فتفرقوا جماعاتٍ يُسيطرُ على كلٍّ منها واحدٌ من أولئِك الحكامِ. وتحوّلت الأسلحةُ عن هدفِها فوُجِّهت إلى صُدورِ الإخوةِ. وضاعَ الأملُ من جديد.

ثم كانت مسرحيةُ تشرين (أكتوبر) 1973. ودفعت مصرُ بعدها ثمنَ استردادِ سيناءَ معاهدةَ «سلامٍ» مع «إسرائيل» فسُحِبت يدُها من القضية. ثم تحولت البنادقُ العربيةُ أدواتٍ لسلسلةِ حروبٍ يتقاتلُ فيها أبناءُ البلدِ الواحدِ، وبشراسةٍ ما بعدها شراسةٌ، منهم من يعرفُ لماذا يقاتلُ ومنهم من لا يعرفُ، أمّا المستفيدُ فلم يكن سوى الأعداء، وأولهم بنو صهيون.

إلى أن طلعَ علينا من يُبشّرُنا بأن زوالَ «إسرائيلَ» حتميٌّ كما تنصُّ عليه «الكتبُ» التي تقول بأن «دولةَ اليهودِ» لا تعمّرُ أكثر من سبعين سنةً.

فيا من تعودتُم المُطالبةَ بحقُوقِكُم بالدُّعاء وبالاتكالِ على اللهِ بالكلامِ، ومن دونِ أن تعقِلوا، ويا من تنتظرون من الآخرين أن يمنّوا عليكم ببعضٍ من فتاتها، وبثمنٍ باهضٍ من الكرامةِ والمالِ، فها قد انصرمَ اليومَ العامُ السبعون على تأسيسِ «دولةَ

اليهود»، ولا نرى أيَّ إشارةٍ على قُربِ تفكُّكِها أو حتى على ضَعفِها، بل هذا واحدٌ ممن ظننتُم أنه سيعيدُ لكم بعضَ «الفُتات»، قد أكَّدَ أمسِ «حقَّ» المُغتصِبين في ملكيتهم قُدسِنا[1]. فماذا أنتم فاعلون؟

أمّا أنا فلا أرى فيكم من يستحقُّ نعته حتى بصفة «شبه مسؤول»... ولم يبقَ لي سوى أطفال الحجارةِ، والعُزَّل الذين قدَّموا أمسِ على أبوابِ غزّةَ عشرات الشهداءِ ومئاتِ الجرحى. بارك الله فيهم ولا بارك فيكم.

[1] اعتراف دونالد ترامب، رئيس الولايات المتحدة الأميركية، بالقدس عاصمة إسرائيل، ونقله سفارة بلاده إليها.

في لبنان أيضًا نريد إسقاط النظام[1]

في الربع الأخير من العام 1966 تعرّض بنك «إنترا» لأزمة سيولة حادة (قناعتي أنها كانت مفتعلة)، اضطرّته إلى التوقّف عن الدفع، ومن ثم تسليم سجلاته الحسابية إلى القضاء المختص[2]، عملًا بالقوانين اللبنانية.

هذه الأزمة ولّدت الذعر في قلوب اللبنانيين جميعًا وغدت موضوع أحاديثهم اليومية. فهذا المصرف كان من أكبر المصارف اللبنانية وأوسعها انتشارًا في داخل لبنان وخارجه.

وفي أحد تلك الأيام صادف أن التقيت مرةً بضعةً من أترابي في منزل أحدنا، وكان والده الحاضر الوحيد ممن يكبرنا سنًا. هذا الوالد كان المرحوم رضا بك التامر، الذي لم يكن فقط من كبار القضاة، بل أيضًا من كبار رجالات لبنان.

دار الحديث بيننا في موضوع الساعة، فأخذ كل منا يسترسل في شرح خطته لإصلاح النظام في لبنان، وخاصة في حقل الاقتصاد والمال، وذلك الكبير صامتٌ يصغي إلينا. ولما أفرغ كل منا جعبته، سألَنا قائلًا: هل فرغتم جميعًا؟

قلنا: نعم.

قال ما معناه: أصغوا إليّ جيدًا يا أبنائي، إنّ هذه القطعة من الأرض عندما أُريد لها أن تكون دولةً، اسمها لبنان، كان القرار أيضًا أن تكون مزرعة على طراز مزارع الأيام الغابرة، لا على الطراز الحديث الذي تقرأون عنه في الكتب والصحف والمجلات، وخلاف ذلك لن تكون.

رحمة الله عليك يا رضا بك، لو كنت ما زلت على قيد الحياة لرأيت أن نبوءتك لم تتحقق، فلبنان لم يعد حتى مزرعة، بل تشرذم إلى عدة مزارع يتحكم بكلٍ منها زعيمٌ سياسيٌّ اقطاعيٌّ، حديثُ الأساليب، عصريُّ الوسائل. هؤلاء الزعماء يجمع بينهم قاسمٌ مشتركٌ، هو التسابق والتصارع لاقتسام ما تبقى من «جبنة» هذا البلد. أمّا مصلحته فلا يعنيهم منها سوى كونها مادة للتشدّق، من على أجهزة الإعلام، بأنّهم حماتها. هم يسوقون المواطنين كما يسوق الرعاة القطعان،

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة – كندا – العدد 421 تاريخ 2018/8/10.

[2] كان هذا في 1966/10/14.

لكنَّ عِصِيَّهم هي الطائفية والمذهبية والحزبية الضيقة، يتلاعبون بها بعقول العامة. يساعدهم في هذا طبقة من المنتفعين، معنويًا وماديًا من مناصبهم التي فُرِضوا فيها، أُجَرَاء يأتمر كلٌّ بما تقتضيه مصلحة زعيمه، لا بما تقتضيه مصلحة وطنه. فغدت أعمال الإدارات والمصالح العامة تسير من دون رقيب أو حسيب، وتفشّى الفساد حتى في زواياها. وإذا وُجد، بالصدفة، رئيسٌ من «مخلفات» أولئك الذين كانوا يقدّمون مصلحة وطنهم على مصالحهم الشخصية، وقضت ظروف العمل أن يعاقِبَ مرؤوسًا ارتكب مخالفة ما، وكان هذا المرؤوس على غير مذهب ذاك الرئيس، أو كان «مدعومًا»، عندئذٍ تقوم البلاد ولا تقعد بحجة أن ذلك الرئيس اعتدى على مصلحة طائفة أو مذهب ذلك المرؤوس أو زعيمه، وتنبري أجهزة الإعلام، التابعة لهذا الزعيم، بمهاجمة ذلك الرئيس دفاعًا عن مصالح «المذهب»، الذي تنطق باسمه.

فمن سُمُّوا، زُورًا، «زعماء» أو «مسؤولون» في هذا البلد «التعيس» بهم، عوضًا عن أن يُعيدوا بناء البشر قبل الحجر، مما دمرته أحداث العام 1975 وما تلاه، تراهم يعيثون فيه فسادًا، يعطّلون إداراته ومؤسساته ومصالحه، إما خدمة لأجنبي أو في سبيل مقعدٍ زائل. أغرقوا لبنان واللبنانيين بديونٍ تفوق الناتج المحلي العام بما يزيد عن 150%، ما جعله في المركز الثالث عالميًا، بهذه النسبة. وعلى الرُّغم من هذا فما من يهتمُّ منهم بغير الحصول على حصته من تقاسم ما بقي من فُتات اقتصاده المهترئ. كميات الغاز التي اكتشفت في مياهه الإقليمية لم تزل حقولها تعاني من مخاض البحث في «كيف السبيل» إلى استثمارها، بينما نرى قبرص و«إسرائيل» قد بدأتا بالاستثمار منذ ما يزيد عن العامين. وإلى أن يتفقوا على تقاسم أرباحها، ثمَّ تنظيم عقود استثمارها، قد يكون ذلك الدين قد بلغ المرتبة الثانية أو حتى الأولى. وحمانا الله من الإفلاس.

إنّي أحسدكُم، يا رضا بك، أنت ووالدي وأبناء جيلكم إذ اختاركم الله قبل أن ترى أعينُكم هذه الحالة المزرية التي تعمُّ لبنان بأكمله، هذا البلد الذي جاهدتم «لتحريره» من براثن المستعمر. فيا ليتكم تركتمونا مُستعمرين، لأنّ من وصلت الأمانة إليهم سيجعلون لبنان في خبر كان. وليته اختارني أنا أيضًا معكم.

منذ أكثر من ربع قرنٍ، أضافوا في مقدمة الدستور فقرة تقول: «الغاء الطائفية السياسية هدف وطني أساسي يقتضي العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية». وللأسف أصبحت، هذه الخطة، في عالم النسيان، بل تحولنا من «الطائفية» إلى «المذهبية». وباقي نصوصه تُفسر حسب الحاجة، لا على قاعدة: «في المسألة قولان»، بل «أقوال» خدمة لمصالحهم. كما ابتدعوا ما سموه: «الميثاقية»،

و«الديمقراطية التوافقية» و«الأمن بالتراضي»، وغيرها من «مبادئ» شأنهم الوحيد منها، تعطيل وتفريغ المؤسسات لغايات في أنفسهم. لا سامحهم الله.

لقد أصبح لبنان من أفشل دول العالم بسبب هذا النظام الفاسد، ألم يحن الوقت بعد لإسقاطه واستبداله بنظام الوطن الواحد، لا الدويلات الطائفية أو المذهبية؟؟

ليس دفاعًا عن العرب[1]

قال كثيرون، وأنا منهم: العربُ جَهلةٌ ومتخلِّفون سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، والإنسانُ العربي يعيشُ في بلادِه مقموعًا ومحرومًا من أبسطِ حقوقِ الإنسانِ. والديمقراطيةُ لا وجودَ لها إلّا في الكتبِ التي لا يقرأُونها. بينما أهلُ الغربِ ينعمون بكلِّ ذلك.

وقالوا، وقلت معهم: لقد اكتشفَ أهلُ الغربِ واخترعُوا كلَّ ما من شأنِهِ خدمةُ وتحسينُ وتسهيلُ عِيشةَ بني البشرِ، بينما يعملُ العربُ على نشرِ الإرهابِ والتفريقِ والكراهيةِ بين الأديانِ والمذاهِبِ؛ ويُدمّرون أوطانَهم، ويذبحُ الأخُ أخاه باسمِ الدينِ، ويعيثون في الأرضِ فسادًا.

وهجَرَ كثيرون «جحيمَ» بلادِ العربِ، وأنا منهم، إلى «نعيمِ» بلادِ الغربِ، لأنّهم ضاقوا ذرعًا بما وصلت إليه أحوالُ بلادهم، إذْ لا حول لهم ولا قوة.

ولكن، هل أهلُ الغربِ ملائكةٌ أمْ مِثاليُّون؟ أليسوا همُ الذين اخترعُوا الأنواعَ المُختلفةَ من الأسلحَةِ الأشدّ فتكًا بالبشرِ والحجرِ؟ وهل كان العربُ أو المسلمون همُ الذينَ أشعلوا الحربين العالمِيتين في القرنِ الماضِي، واللتَيْن أُزهِقَتْ فيهما ملايينُ الأرواحِ ودُمِّرَتْ بُلدانٌ عديدةٌ؟

ثمَّ، هل كانَ العربُ أو المسلمون، همُ الَّذين دمّرُوا هيروشيما وناكا زاكي وقتلوا مئاتِ الآلافِ في دقائق معدودات من دونِ أن يهتزَّ لهم جفنٌ؟

وهل كانَ العربُ أو المسلمون، همُ الَّذين غزَوا القارَّتَين، الأميركيةِ والأستراليةِ، وقتلوا الملايين من سُكانِهما الأصليّين ليؤسِّسُوا دُولًا، يتبجَّحُ مسؤولوها بأنها معاقلُ للحريةِ والديمقراطيةِ وحقوقِ الإنسانِ؟

ومن خطفَ مليونَ إنسانٍ من إفريقيا وساقَهُم مُقيدِين، وشَحَنَهُم في البواخرِ كما تُشْحَنُ الحيواناتُ الضاريةُ والكريهةُ، ليقضيَ منهم مئاتُ الآلافِ في البحرِ، وليُستعبَدَ الباقون ويُسَخَّروا في بناءِ الولاياتِ المتحدةِ الأميركيةِ، أقوى تلك الدولِ؟؟؟ ومن أعطى مسؤوليها حقَّ فرضِ العقوباتِ، مزاجيًا، على دولٍ وأشخاصٍ، ماديّين أو معنويّين، من غيرِ مواطنيها، وإرغامِ الدولِ الضعيفةِ، على

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة - مونتريال العدد 423 تاريخ 2018/9/28.

أن تكشفَ لهم عن بياناتِ مواطنيها الشخصيةِ وعن أملاكِهم وأموالِهم فيبتزّونهم ليسلبوها؟؟؟ أليس هذا شأنُ العصابات؟؟؟ وكم من دولة صادروا أموالَها المودعةَ في بنوكِهم؟؟؟ ألا يُعدُّ هذا خِيانَة الأمانَةِ؟؟ واللائحة طويلة.

قديمًا قيل: «لكلِّ عالمٍ هفوةٌ ولكلِّ جوادٍ كبوةٌ»، وأضيف: «ولكلِّ شعبٍ غفوةٌ». فيوم كان العربُ في أوجِ عزِّهم وحضارتِهم، كان أهلُ الغربِ يعيشُون في جهلٍ مُطبَقٍ. ومع الزمن، وحَسْبَ قوانين وسُنَنِ حيَوَاتِ الشُّعوبِ، هبطُوا من علیائِهم وأصبحوا محكومين من شعوبٍ أخرى، ودخلوا في سُباتِ نومٍ عميقٍ لمئاتِ السِّنين. ولمَّا بدأوا يستيقظون راحَ أهلُ الغربِ يَكيلون لهم الضربةَ تِلوَ الأخرى، ليبقَوا غائبين عن الوعي. تقولُهُم رجلًا اعتدتْ عليه عِصابةُ أشقياءٍ فأفقدُوه رُشْدَه، وكلّما فتحَ عينَيهِ ليستعيدَ وعيَهُ، عاجَلَهُ أحدُهم بضربةٍ أعادَتْهُ إلى الغيبوبةِ.

فيومَ شعرَ أهلُ الغربِ أنَّ محمدَ علي باشا، إثرَ احتلالِه سوريا في ثلاثينيّاتِ القرنِ التاسعِ عشر، أصبحَ بصددِ تأسيسِ دولةٍ عربيةٍ قويّةٍ، قد تتمكّنُ من وراثَةِ السّلطنةِ العثمانيةِ، حشدتْ دولُ أوروبَّا الاستعماريةُ، بقيادةِ بريطانيا، القُوى بحجةِ مساندةِ البابِ العالِي لاستردادِ «ممتلكاتِه». فطردتْ ذلك «الغازي المغتصبِ» وأعادتْ تحجيمَه واليًا على مصر. ثمَّ راحَ عُمّالُ بريطانيا وفرنسا يبثُّون الشقاقَ والحِقدَ والكُرهَ في نفوسِ من عاشوا مئاتِ السِّنينَ بوئامٍ تامٍّ بينهم، مستغلِّينَ اختلافَ معتقداتِهم الدينيةِ لتشتعلَ الفِتنُ الطائفية في جبلِ لبنانَ وتمتدَّ إلى دمشق. وهذا تحضيرًا لما ستنفذَانه في بدايةِ القرنِ العشرين، من تقسيماتِ سايكس – بيكو إلى وعدِ بلفور. وتستغلُّ بريطانيا «طيبَةَ» قلبِ الشريفِ حسينِ، وتعده بدولة عربية من دون تحديد معالمها، فيثور على السّلطنةِ العثمانيةِ، وتساعدُ، في الوقتِ عينه، آلَ سعود في بسطِ سيطرتِهم على شِبهِ الجزيرةِ العربيةِ؛ فكان أن تقاتل الإخوة، ودُحِرَ «الشريفُ» وقُضِيَ عليه وعلى حُلمِه، هو ورفاقه، في تأسيسِ دولةٍ عربيةٍ على أراضي العربِ.

وإبَّان استعمار بريطانيا وفرنسا، إثر الحرب العالمية الأولى، لتلك الدويلات التي اصطنعتها اتفاقية سايكس – بيكو، فتحت بريطانيا «العظمى»، أبوابَ فلسطين واسعةً أمامَ هِجرةِ اليهودِ إليها من جميعِ أنحاءِ العالمِ؛ ليقومَ هؤلاء في العام 1948، بإعلان «دولتهم» وبطردِ نصفَ شعبِ فلسطين من أراضيهم وبيوتِهم، وأمام أعيُنِ وبمباركةِ، من يتشدقون بأنّهم حماة «حقوق الإنسان»، أهلِ الغربِ قاطبةً؛ في حين كانت تلكَ «الدويلات» ضعيفةَ القُوى هزيلةَ السلاحِ، منها

ما لم يكن قد مضى على استقلالها، عن ذلك الاستعمارِ، بِضعُ سنينَ أو لم تكُنْ قد استقلّتْ بعد.

ثمّ أعادوا الكرَّةَ في لبنان، وبمساهمةٍ فعّالةٍ من «دولةِ صهيونَ»، بتأجيج حربٍ، ألبسُوها ثوبَ «الطائفية»، في الرّبعِ الأخيرِ من القرنِ العشرين، لتتوقفَ كي تبدأ الحربُ الأولى على العراقِ في العامِ 1990، بقيادةِ الولايات المتحدة الأميركية، «راعيةِ الحُريةِ والديمقراطيةِ وحقوقِ الإنسانِ». ثم تُتبِعُها بحربٍ تدميريةٍ في العام 2003، قطّعَت أوصَالَهُ وهجّرَتْ وقتلت الملايين من أبنائهِ، أطفالًا ونساءً وشُيوخًا. ولا ننسى سعيَ ودورَ بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية في تأجيجِ الفكرِ الإسلامِي المُتطرّفِ، بخِدعَةِ «الجهادِ المقدَّسِ»، بدءًا من أفغانستان إلى العراق ثم إلى دولِ ما سُمِّيَ «بالربيع العربي»، إلى ما أصابَ ويصيبُ ليبيا واليمن وسوريا، من دمارٍ وقتلٍ وتشريدِ الملايين. كلُّ هذا في سبيلِ تحقيقِ غاياتِهما ومصالحِهما وسرقَةِ ثرواتِ بلادِ العربِ. ولست أدري ماذا يُخَبَّءُ لنا بعد إعلانِ «دولة اليهود القومية»؟

ومع هذا، لا أنكر أبدًا تقاعُسَ، بل غيابَ وتخلّفَ، من يسمَّون «قادة الدول العربية»، عن القيامِ بواجبَاتِهم في توعِيةِ شعوبهم وتوحيدِ القُوى، لعلَّنا ننجو من هذا التشرذُمِ القاتلِ، فتصبح بلادُنا قويةً وقادرةً على التصدّي لما تواجِهُهُ من أخطار. راجيًا الله ألّا يكون لأيٍّ منهم دورٌ فيما حصلَ أو ما يحصل. والله أعلم.

فلتكنْ جريمةُ نيوزيلندا الأخيرةَ[1]

يوم الجمعة الواقع فيه 2019/3/15، وبنفْسٍ ملؤها الحقد والكراهية على «المهاجرين المسلمين» أو «غير البيض»، دخل المدعو برنتون تارانت إلى مسجدين، على التوالي، في نيوزيلندا وراح يطلق النار، بدمٍ باردٍ، عشوائيا على أناسٍ، ذنبهم أنهم كانوا مولّين وجوههم شطر ربهم يصلّون، وأردى منهم خمسين رجلًا. وكأنّه قد عانى هو شخصيًّا من ظلم ووحشيّة من احتلّوا أستراليا وقتلوا أعدادًا هائلة ممن كانوا يعيشون فيها منذ آلاف السنين، ناسيًا أو متناسيًا بأنّه واحدٌ من أبناء أولئك المحتلّين. نرجو الله أن تكون هذه الحادثةُ الأخيرةَ.

بالتأكيد لم تكن هذه هي الحادثة الأولى التي يُعتدى فيها على المصلّين سواء في المساجد أم في الكنائس، على أيدي مجرمي «القاعدة»، ثم ابنتها «داعش»، إن في البلاد الإسلامية والعربية، أو في غيرها. ولم ننسَ بعد تفجير الكنائس في مصر، ثم قتل سبعةِ مواطنين مصريين أقباط وجرحِ تسعة عشر آخرين كانوا عائدين من زيارة دير القديس صموئيل في المِنْيَا جنوب القاهرة.

ولكن بماذا يختلف حال دونالد ترامب، رئيس الولايات المتحدة الأميركية، عن حال برنتون تارانت، من حيث كراهية المهاجرين والمسلمين؟ وكلاهما يتحدرُ ممن احتلوا بالقتل البلاد التي يعيش فيها؟ لا شكَّ في أنّ هناك بَوْنًا شاسعًا بين الاثنين. فإذا كان الأستراليُّ تارانت قد قتل خمسين «مهاجرًا مسلمًا»، فترامب ومن سبقه من رؤساء الولايات المتحدة الأميركية، وحلفاؤهم، قد تسبّبوا بقتل مئات الآلاف من المسلمين والمسيحيين وغيرهم، في الشرق الأوسط وحده، هذا عدا عن تهجير الملايين منه. ألم تكن بريطانيا خلف تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، منبع الفكر المتطرّف؟ ثم ألم تكن الولايات المتحدة الأميركية وراء الدعوة إلى «الجهاد المقدّس» بوجه السوفييت في أفغانستان في أواخر سبعينيّات القرن الماضي، وإطلاق مارد التعصّب مع تأسيس «تنظيم القاعدة»، خدمة لمصالحها إبَّان الحرب الباردة؟ ثم لزرع الفوضى في البلدان المحيطة بإسرائيل، التي غرسها بيننا الاستعمار القديم، عملا بقرارات مؤتمر العام 1907 في لندن، ولا يزال ورثتُه يتابعون رعايتَها؟ عذرًا إذ هي، عنيت «إسرائيل»، التي أصبحت تدير سياساتهم بقوة المنظمات الصهيونية، وبخاصّةً في الولايات المتحدة الأميركية.

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة - كندا العدد 434 تاريخ 2019/3/29.

فإذا كنَّا يا إخواني، في البلاد العربية والإسلامية، نأمل في أن تكون حادثة نيوزيلندا الأخيرة من نوعها، فالأمل وحده ومن دون العمل لا يُجدي نفعًا. والعنف سيولّد أعنف منه، فعندما تُملؤ النفسُ بالحقدِ والكراهية، يموت فيها حسُّ الإنسانية، ويصبح الشخص وحشًا ضاريًا تسيّره غريزة القتل. وإذا كان الحيوان المفترس يقتل ليتغذّى، فالوحش البشري يتمتع ويتلذّذ بقتل أبناء جنسه، بينما لا يقتلُ النمرُ نمرًا والذئب لا يقتل ذئبًا. وتلك الدماء التي سالت في نيوزيلندا وما سبقها في أنحاء متفرقة من العالم، تفرضُ على كلٍّ منا، مهما كان موقعه أو مهنته أو درجته، أن يعمل جاهدًا لوقف هذا المسلسل الإجرامي، لا تُجاه المسلمين والمسيحيين فقط بل تجاه البشر أجمعين، مهما كانت أعراقهم وألوانهم ودياناتهم ومذاهبهم. وإن كنّا لا نستطيع إيقافه في العالم أجمع، فلنعمل على تحصين وحماية بلادنا من أخطاره، وأبنائنا من الوقوع في شباك مدبّري تلك الجرائم.

وليبدأ كلٌّ من بيته ثم حيّهِ ثم مدينته ثم وطنه. وليكن الجهل أولَ عدوٍ نحاربه، فهو أصل كلِّ علّة، وأهمّها التعصّب والتزمّت والغلو في الدين. ومحاربة الجهل لا تكون في تعليم القراءة والكتابة فقط، بل في التوعية من الأخطار الآنّية وممّا تخبّئه الأيام. ولنغرسْ في قلوب وأذهانِ أبنائنا أنّ الناس أخوة في الوطن وفي الإنسانية. ومن خالفني في رأيي أو ديني أو مذهبي هو أيضًا أخي وليس عدويّ. وبقدر ارتفاع درجة كلٍّ منّا في وطنه تعظم مسؤوليته.

فمسؤولية القادة السياسيين تكون أولًا في وضع مصلحة الوطن والمواطن فوق كل مصلحة. ثم في العمل على المساواة الكاملة بين المواطنين مهما كانت انتماءاتهم الدينية أو السياسية. وفي وضع المناهج الدراسية الموحدة، وخاصة في التربية الوطنية. ويبقى تأمين فرص العمل من الأولويّات، فكم من جريمة كان مرتكبها من دون عمل؟

ومسؤولية الإعلام والإعلاميّين هي في تقديم الخبر الصادق والتحقّق من صحّته ومن خلوّه من سموم التفرقة بجميع أشكالها، وفي نبذ كلّ ما يسيء إلى وحدة المجتمع وقيمه وسلمه وسلامته؛ وفي توعية متابعيهم لعدم الوقوع في حفر وفخاخ ما ينشر على مواقع الإنترنيت والتواصل الاجتماعي. وعلى سبيل المثال فبالأمس «أوضحت فيسبوك أنها تتصدى، حاليا، لأكثر من 200 منظمة على مستوى العالم تؤمن بتميّز العرق الأبيض، مشيرة إلى «أنّها تعمل على إزالة ما تنشره هذه المنظمات من محتوى على منصّة فيسبوك بتكنولوجيا الرصد الآلي». ولنخنُقْ صوتَ التطرّف ونُعلي صوت الاعتدال.

ومسؤولية رجال الدَّين عظيمةٌ، إن لم تكن الأعظم أيضًا، إذ عليهم يقع حمل تبيان تعاليم الدين الصحيحة، بما فيها من التسامح ومحبّة الآخرين، سواء كانوا من أبناء دينهم أم لا. وأليس كلّ الأديان تدعو إلى السلام وتحرّمُ القتل؟ ولتكن خُطبهم وعظاتهم دروسًا في الرحمة والمحبة والتسامح. فالله محبة وهو الرحمن الرحيم.

ومسؤولية المدرسة والمعلمين لا تقلُّ أهميّة عن غيرها، فعتبة المدرسة هي أول ما يدوسه الطفل بعد عتبة منزل والديه. وما يتعلمه في المدرسة، طفلا، يرسخ في عقله وقلبه مدى الحياة، فـ «العلم في الصغر كالنقش في الحجر». وليكن تعليم التاريخ لأخذ العبر ولبناء مستقبل سليم معافًى، لا لزرع بذور التفرقة بين أبناء الوطن الواحد، ولا لنكئ الجِراح. وليكن تعليم التربية الوطنية والقيم الأخلاقية والدينية لبناء المجتمع السليم والمواطن الصالح، الذي لا يُشترى ولاؤه لغير وطنه بكنوز الدنيا كلها. وهذا أيضًا واجبُ أصحاب القلم أجمعين، من أدباء وشعراء ومؤرخين وغيرهم.

قد يقول بعض من قرأ هذه المقالة بأنّها من الأحلام أو هي مثالية، فأقول بأنّ الأعمال العظيمة تبدأ حُلمًا، ومن ليس له مثلٌ أعلى وهدفٌ يسعى إليه ضاعت أيامُه سدًى.

اللهم، أنت السلام فاجعلْه يعمّ جميع أنحاء العالم أجمع.

العلمنة الكيبيكية[1]

يبدو أنّ السيد فرانسوا لوغو، وأفرادَ حكومته، ماضون في تنفيذ وعودٍ انتخابيةٍ، ضاربين عرض الحائط بما إذا كان تنفيذ بعضها قد يُشكِّلُ مخالفاتٍ دستوريةً أو إنسانيةً أو أضرارًا على شريحة واسعة من المواطنين. فبعد تلْفِ ثمانية عشر ألف طلب هجرة، ما ألحق الضرر بنحو خمسين ألف إنسانٍ، قدّموا إلى الجمعية الوطنية في كيبيك، مشروع القانون 21 في عَلمَنة الدولة، والذي ينصُّ على حظر ارتداء الرموز الدينية على موظفي الحكومة، كالقضاة وضبّاط الشرطة والمدّعين العامّين وحرّاس السجون، بالإضافة إلى معلمي المدارس الابتدائية والثانوية المنتمين إلى القطاع العام، «انطلاقًا من مبدأ الفصل بين الدولة والأديان، والحياد الديني للدولة، والمساواة بين جميع المواطنين، وحرّية المعتقد والدين.»

لستُ هنا بصدد الاعتراض على النظام العَلماني، لأنّني من مؤيدي فصل الدين عن الدولة، كما أنّني أرى انّ الدين شأنٌ بين الإنسانِ وربِّه. ولست كذلك في معرض الدفاع عن الرموز الدينية أو من يرتديها أو يحملها، ولكنّي أرى في مشروع القانون هذا مخالفةً لمبدأ الحرية الشخصية التي يكفلها الدستور والشرعتان الكيبيكية والكندية، وشرعةُ حقوق الإنسان التي أقرّتها منظمة الأمم المتحدة واعترفت بها أيضًا الحكومة الكندية.

فباسم الحرية الشخصية شَرَّعَت الحكوماتُ المتعاقبةُ، المساكنةَ التي هي بمفهوم الأديان كلِّها، زِنًى موصوفٌ. وإنّي أرى فيها أهمَّ العواملِ والأسبابِ التي تؤدّي ليس فقط إلى تفكيك الأسرة بل إلى انحلالها وإلغائها أيضًا، وفي هذا تفكيكٌ مؤكّدٌ للمجتمع، لأنّ الأسرةَ أساسُ المجتمع.

وباسم الحرية الشخصية شرَّعتْ أيضًا زواج المثليين، بل لم تكتفِ بالسماح لهم بالمساكنة، ولا باللِواط والسّحاق، وإن كانت الأديان تحرّمهما، فالحيوانات لا تمارسهما.

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الرسالة - كندا العدد 435 تاريخ 2019/4/17. وكيبيك هي كبرى المقاطعات الكندية بالمساحة، وثانيتها بعدد السكان.

وباسم الحرية شُرِّع «التحشيش». وباسم الحرية الشخصية سُمح للنساء السيرُ في الطرقاتِ شبهَ عارياتٍ. وفي القوانين نصوصٌ تجرّمُ التحرُّش. فبالله عليكم، يا سيد لوغو وزملاءه، ماذا ستقولون لرجلٍ رأى إحدى تلك النساء وقد خُيِّلَ إليه، وهو تحت تأثير الحشيش (القِنّب)، أنَّها بِعُريِّها تراوده عن نفسه؟ ثم أتعتقدون أن روح النّبيّ يوسُفَ قد حلّتْ في جميع الرجال؟ وخاصةً إن كانوا «محشّشين»؟

بعد كلِّ هذه التشريعات والإباحات باسم الحرية، تعملون على منع مواطنٍ من أن يضعَ على رأسه قلنسوةً أو على صدره صليبًا، أو سيدةٍ من أن تُغطِّيَ شعرها. أليست هذه أيضًا من الحريّات الشخصية؟ فعن أيّ حريةٍ أو مساواةٍ تتحدثون؟

وكم أخاف أن يأتِيَ يومٌ تصبحُ فيه ممارسة العلاقات الجنسية، وباسم الحرية الشخصية أيضًا، علنيةً على الطرقات وفي الحدائق العامة والأسواق التجارية... ويُنبَذُ فيه المحتشمون.

ثمَّ لماذا لا تسمحون، وباسم الحرية أيضًا، بقيادة السيارة تحت تأثير الكحول أو الحشيش؟ ستقولون بأن هذا يشكِّلُ خطرًا عليهم وعلى الآخرين. هذا صحيح، ولكن ألا ترون خطرًا على المجتمع ولو في واحدٍ مما شرَّعتم أو سمحتم به؟ أم أنّ الخطر على المجتمع أصبح محصورًا في أصحاب الرموز الدينية فقط؟

فهل لك يا سيد لوغو أن تشرح لنا مفهومَكم للعَلمنة؟ هل هي حقًّا فصلُ الأديان عن الدولة؟ أم هي حربٌ على الأديان وما فيها من قيمٍ؟ أم أنّكم تسعون منذ اليوم لكسب بعض الأصوات الانتخابية للدورة القادمة؟ فأيهما أهمّ يا سيد لوغو، مقعدٌ في البرلمان أم سلامةُ الدولة والمجتمع؟ أنا أفهم العلمنة ألا يكون الدينُ مصدرَ القوانين والأنظمة في الدولة، خوفًا من أن يتدخلَ رجالُ الدين في شؤونها. وهذا لا يعني تدميرَ الأديان، أو التخلِّي عن القيمِ والمثلِ الإنسانية والقواعد الأخلاقية، التي من دونها تعود المجتمعات إلى شريعة الغاب. ستقول يا سيد لوغو، بأنّ القوانين والأنظمة وشرعة الحقوق الكيبيكية ترتكز على تلك القيم والمثل والقواعد. وهذا ما أعرفه جيدًا، ولكنَّ النصوصَ شيءٌ وتطبيقَها أمرٌ آخر. وإذا كان الدستور يضمن حرية الدين، افلا يكون في تدمير الأديان مخالفة للدستور؟ فكيف أسكن بيتًا لا سقفَ ولا أبوابَ له؟

ويحضرني هنا ما حصل في إحدى دول الشرق العربي في ثمانينيات القرن الماضي: يوم أثارت إحدى الجماعات الدينية أحداث شغب بوجه نظام تلك الدولة. ومن الأساليب التي اتبعها ذلك النظام لمحاربة تلك الجماعة، أن راح أفرادُ أحد أجهزته الأمنية يعملون على نزع «الحجاب» (وتسمية الحجاب خطأ لغوي،

والصواب هو الخمار) عن رأس أي امرأة «محجبة» وأينما رأوها. فكانت ردَّة فعل المواطنين عكسيّةً، فعوضًا عن أن يتضاءل عدد «المحجبات» فقد تضاعف مرَّاتٍ، لا مرة واحدة، كذلك أصبحت المساجد تغصُّ بالمصلّين، ما جعل كثيرين منهم يصلّون على الطرقات أمام أبواب المساجد. لم يكن كلُّ ذلك من قبيل التقوى إنما كان نَكالًا بذاك النظام.

فتأكد يا سيد لوغو، أنّه إذا كان عدد «المحجبات»، اللواتي ترونهم اليوم في الطرقات والشوارع، يقدّرُ بالمئات فسترونهنَّ غدًا بالآلاف. وكذلك عدد حاملي الصليب ومعتمري القلنسوة وغيرِهم ممّن يشملهم مشروع قانون العلمنة هذا. فحبذا لو تتعظوا من تجارب الآخرين.

ولذا أنصح لك يا سيد لوغو ولحكومتك وحزبك، بخاصَّةً إذا كنتم تأملون في الربحِ في الانتخابات القادمة، بأن تعودوا لا عن هذا القانون فقط، بل أن تدرسوا جيدًا، في المستقبل، وعودكم الانتخابية، وآثار تنفيذِ أيٍّ منها قبل صياغة نصوص تنفيذها أو نصِّ أيّ مشروع آخر.

لا تصدقوا أمي[1]

يروى أنّ جنديًّا قُتل في إحدى المعارك الحربية، وعندما هدأت حدة القتال قام رفاقُه بنقل جثته إلى المستشفى الميداني. وبينما كانوا يُهيّئُونها لتسليمها فيما بعد إلى ذويه، عثروا في جيبه على رسالة يقول فيها:

أكتب هذه الرسالة ولا أدري من سيقرأها. أنا اليوم جنديٌّ في جيشٍ معرّضٍ في كل لحظة للدخول في معركة حربية قد أُقتلُ فيها. فإذا حدثَ هذا وسمعتم أمّي تقول من على أحد أجهزة الإعلام: «لقد نذر ابني نفسه للاستشهاد في سبيل الوطن ولحماية ترابه»، فلا تصدِّقوها لأنّي أُحبُّ الحياة وأكره الموت سِيَّان عندي ما كان سببه. وإذا قالت لكم بأنّها سعيدةٌ في أن تراني أُزَفَّ شهيد الوطن، فلا تصدقوها لأنّها كانت تحلم أن تراني أتسلمُ يدَ عروسٍ تلدُ لها أحفادًا تستعيدُ فيهم براءةَ طفولتي. أجل لا تصدِّقوها ولا تصدقوا أختي أو أبي أو أخي إن قال أحدُهم كلامًا مماثلًا، فقد تكونُ تلك المذيعةُ الجميلةُ المغناجُ قد أقنعتهم بترداد مثل تلك الكلمات الجوفاء، لتهوّن عليهم حزنَهم بفقدي. صدِّقوا فقط دمعةَ وحسرةَ أمِّي وانكسارَ أبي في وحدتيهما.

وذاك الذي سينشرُ صورتي على صفحاتِ وسائلِ التواصلِ الاجتماعيّ، مدّعيًا عُمقَ صداقتنا ووفاءَه وإخلاصَه لي، بكلماتٍ منمّقةٍ انتقاها من أعذب ما كتبه أشعرُ شعراء العرب، فلا تصدِّقوه لأنّه منافقٌ، إذ بالأمس القريب قصدتُه سائلًا أن يُقرضني بعض المال لأشتريَ دواءً لوالدتي، فأعادني خائبًا، زاعمًا أنَّه يعاني من ضيقِ ذات اليد، وأنا أعرفُ جيدًا أنَّها حجةٌ واهيةٌ.

وقولوا لفخامة رئيسِ البلاد: إنّي لست بحاجة إلى وسامٍ يُوضع على نعشي ميتًا، بل كنت بحاجة إلى أن ألمسَ رعايته أبًا وأنا على قيد الحياة.

وقولوا له ولأصحاب الدولة والمعالي والسعادة و... بأنّي لم أكنْ بحاجةٍ إلى بضعِ كلماتٍ معسولاتٍ يأبّنونني بها، بقدر ما كنتُ بحاجة إلى بضعِ دريهماتٍ يوفرونها لي ولأمثالي من تلك الأموال التي سرقوها ونهبوها من خيرات بلادي، وتركوني فقيرًا أكافح شظف العيش وقساوته، بينما يعيشون هم وعائلاتهم في القصور والشّقق الفخمة الفسيحة المُحاطة بجميع وسائل وأساليب الحماية، فلو عدلوا لأمنوا الخوف ولما احتاجوا إلى ما أو من يحميهم. وهم أيضًا يتنعمون بالمراكز ومنافِعِها ويتنقلون بأفخم وأحدث السيارات تحميهم المواكب والقوافل من

[1] نشر هذا المقال في مجلة المستقبل الكندي عدد تموز - آب 2019.

الحرَّاس، الذين يكيلون الإهانات والشتائم والتهديد والوعيد لمن يتجرّأ على الاقتراب من أيٍّ منهم.

وقولوا لذاكَ الذي نصّبَ نفسه زعيمًا على أبناء طائفتي ومنطقة تجمعهم، مدعيًا حماية مصالحهم هم والطائفة، بألَّا يُكلِّف نفسه بزيارةِ أهلي لتقديمِ واجبِ العزاء بكلام المنافقين، فيوم كانت أمّي بحاجةٍ إلى عمليةٍ جراحية تفوق كلفتُها قدراتنا أنا وأبي وإخوتي مجتمعين، قصدت داره بِضعَ مراتٍ، ممنيًا النفس في أن يمدّ لنا يد العون للحصول على موافقة وزارة الصحة على التكفُّل بنفقات تلك العملية، أبلغني أحد حراسه بأن لا وقت لديه لاستقبالي، وأنّ علينا أن نتدبّر أمرنا بأنفسنا.

فلماذا إذًا أضحي بنفسي في سبيل وطنٍ لم يقدِّم لي ولأمثالي، مسؤولوه أيًّا من مقوّماتِ العيش الكريم؟ وجُلُّ ما أذكره من جميلِ هذا الوطن تلك القرية التي ولدتُ فيها ولعبتُ بين حاراتِها وعلى أزقتها، وكتبت اسمي بالفحم أو بالطبشور على جدرانها، مع أترابٍ كانت تربطني بهم براءةٌ ضاعت مع الأيام.

لم أحلمْ يومًا أن أُدفنَ تحت تراب وطني، بل حلمت ولم أزلْ أن يكون لي قطعةٌ صغيرةٌ من ذاك التراب، أبني عليها بيتًا صغيرًا تشاركني العيشَ فيه فتاةٌ طالما حلمتُ بها، وأولادٌ أتمنى أن أُرزقَ بهم منها، ألاعبهم أطفالًا ويعينونني في شيخوختي.

لا نطلب، أنا وأترابي، من أولئك المسؤولين سوى أن نعيش على هذه الأرضِ آمنين غدرات الزمن، إذا مرض لنا أبٌ أو أمٌّ أو طفلٌ أن يلقى العلاج والدواء، لا أن يموتَ على أبواب المستشفيات، أو أن أمدَّ يدي أمام المسجد أو الكنيسة، سائلًا بعض مالٍ أَسدُّ به رمقًا أو أدفعُه بدلا لأتعاب طبيبٍ. وعندما يبلغُ الحلمَ ولدٌ لنا أن يجد فرصة العمل الشريف في وطنه، لا أن يُضطرَّ إلى هجري بحثًا عن لقمة العيش.

وجُلُّ ما نطلب هو أبسط ما يحتاج إليه أحدُنا كي يعيش إنسانًا محفوظَ الكرامة، سقفًا وأربعةَ جدرانٍ تقينا قرَّ الشتاء وحرَّ الصيف، وماءً نقيًّا نشربه ونغتسل به، وهواءً نظيفًا نتنشّقه، وتيارًا كهربائيًّا ينيرُ عتمة الليالي، ومدرسةً يتعلم فيها أبناؤنا، من دون أقساطٍ مُرهِقةٍ تفرضُ علينا أن نحرمَهم ونحرِمَ أنفسنا كثيرًا من المأكلِ والملبسِ كي نسدِّد قيمَها، ووسائلَ عامَّة تنقلنا من وإلى مراكز أعمالنا بكلفةٍ تتناسبُ مع مداخيلنا، في ظلِّ نظامٍ وقوانين عادلةٍ تساوي بيننا جميعًا وتُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

صدقوني حينما قرّرتُ الانضمام إلى جيشِ بلادي لم افكِّرْ في أيٍّ من تلك الشعارات الفارغة، بل كانت غايتي الوحيدة ذلك الراتب الذي حسبت أنه سيقيني العوز.

رحم الله الإمام عليًّا إذ قال: «الفقرُ في الوطنِ غُربةٌ».

عذرًا إخواني اللبنانيين[1]

لم أكن أجرُؤ يومًا، على أن أسمح لومضةِ حلمٍ، أن تخطرَ في مخيلتي، فترينيي صورةً واحدةً شبيهةً بما يجري اليوم على أرض لبنان، وأينما وُجِدَ لبنانيون، منذ السابع عشر من هذا الشهر، الذي أصبح يومًا مشرقًا في تاريخ لبنان الحديث. لقد كسر اللبنانيون نير الزعامات المذهبية والطائفية وخرجوا إلى الساحات، خارج الكنيسة والجامع، موحَّدين رافعين راية واحدة وهاتفين بكلماتٍ موحّدةٍ: «الشعب يريد إسقاط النظام». هذا النظام الطائفي البغيض، الذي فرضه علينا الأجنبي منذ أواسط القرن التاسع عشر، والذي تسبّبت نزوات ورغبات زعماء طوائفه بقتل وجرح وتهجير مئات الآلاف من اللبنانيين، وبتدمير النفوس قبل الحجارة، بالإضافة إلى المصابين بعاهات دائمة. هؤلاء «الزعماء» الذين وضعوا مصالحهم الخاصة فوق مصلحة وطنهم. واستولوا، باسم الدين والمذهب ومصلحة الطائفة، على عقول جماعات من المواطنين البسطاء الطيّبي القلوب، فأعادوهم إلى عصور العبودية. ثم عاثوا فسادًا وملأوا خزائنهم من أموال الشعب.

أخواتي وإخواني اللبنانيين الشرفاء، كلّما كنت أسمع أولئك البسطاء يهتفون: «بالروح بالدم نفديك يا زعيم»، كان صدى هذه الكلمات يُدمي فؤادي، قبل أن يُجرّحَ أذنيَّ، فيتملّكني اليأس، ولسان حالي يقول: نحن لسنا شعبًا بل نحن «قطعان غنم». ولكن بعد ثورتكم هذه، مجتمعين نساء ورجالا، شيبًا وشبابًا، أطفالا وفتيانًا، على الفساد والمفسدين، وعلى ما أوصلونا إليه من الحرمان من أبسط حاجات المعيشة الإنسانية؛ هذه الثورة التي أقرَّ القاصي والداني بأنها مثال للرقيّ والحضارة، أيقنت أنّني كنت على خطأ. فأرجوكم أن تعذروني وتسامحوني.

وهذه القطرات من الدمع التي رأيناها تسيل من عين ذلك الجندي، خوفًا من أن يتلقى أمرًا بتفريق جموع إخوانه في الوطن وهم ينشدون: «كلنا للوطن»، كانت أبلغَ من مئات المقالات. فلا يا أيها البطل، لا تواري دمعتك هذه فما هي إلّا سِمة عمّا يجيش في نفسك من العزّة والكرامة وحبّ الوطن. فقد أصبحتُما، رمزًا من رموز الثورة الشريفة المباركة.

[1] كتبت هذا المقال ونشرته على الفيس بوك في 2019/10/27 إثر اندلاع ثورة 2019/10/17 في لبنان.

ثمَّ ألم يكنْ حلمًا مستحيلا هذا المشهد الرائع الذي رأيناه اليوم، حين تقاطرت أيادي شابات وشبان وأطفال لبنان مشكلين سلسلة بشرية، يزيّنها علم لبنان وحده، امتدت من صور جنوبًا إلى طرابلس شمالًا؟

فشكرًا لك يا إلهي إذ أحييتني إلى هذا اليوم لأرى حقيقةً ما كنت أحسبه لن يتحقق إلّا بمعجزة خارقة. وأعود أدعوك أن تجعلني أرى بلدي هذا ينعمُ بحكمٍ صالحٍ عادلٍ في دولةٍ مدنية ديمقراطيةٍ، يتساوى فيها الجميع في الحقوق والواجبات والعيش الكريم آمنين مطمئنّين، أحرارًا غير مرتهنين لأيٍّ كان. فأغادرُ، بعد ذلك، هذه الدنيا قرير العين مطمئنًا على مستقبل أبنائنا وأحفادنا.

اللهم إنك قريبٌ تجيبُ دعوة الداعي إذا دعاك. اللهم استجبْ.

لبنان ما بعد 17 تشرين[1]

عصرَ اليوم السابع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2019، نشرت وسائلُ الإعلام خبرًا مفاده أنّ الحكومة اللبنانية، إبَّان درسها موازنة العام 2020، قرّرت فرض ضريبة على المكالمات والرسائل النصّيّة عبر تطبيق «واتس أب» (WhatsApp). وبعد قليل أوضح وزير الاتصالات بأن هذه الضريبة ستشمل جميع التطبيقات المشابهة، وأنَّه قرارُ مجلس الوزراء مجتمعًا. فانتشر الخبر بسرعة البرق على وسائل التواصل الاجتماعي.

تأكد اللبنانيون أنَّ السلطة الحاكمة لن تتوانى عن فرضِ أيِّ ضريبة أو رسمٍ تراه يساهم في تخفيض العجزِ المالي الذي تسبب به الفساد والإهمال والهدر وسوءُ أداء الحكومات المتعاقبة، بأشخاصها الذين ورثوا السلطة من الحرب، التي سُمّيتْ «أهلية»، فأثرَوا ثراء فاحشًا، بينما تفشّى الفقرُ والبطالة في صفوف الشعب، كما تراجعت أو انعدمت الخدمات التي تديرها مؤسسات الدولة. إنَّهم يسرقوننا وعلينا السدادُ.

ومع بداية عتمة ذلك اليوم، نزل إلى الشارع، وبشكلٍ عفويٍّ، نحوٌ من عشرين شابًا، وعملوا على منع السير على جسر فؤاد شهاب في وسط بيروت. ظننتُ حينها أنَّ الأمر لا يعدو كونه حركة اعتراضية عابرة. ولكن عوضًا عن أن يتراجع هؤلاء الشبّان بعد بعض الوقت، رأينا عددهم يتزايد سريعًا، وأنَّ تحركاتٍ مشابهةً بدأت تنطلق في معظم شوارع بيروت، ثمّ تتمدّد إلى سائر المدن اللبنانية من الشمال إلى الجنوب ومن الساحل إلى الداخل. فشعر وزير الاتصالات بالذنب فأطلَّ علينا معلنًا أنَّ تلك الضريبة لن تطبق قبل بداية العام القادم وهي لم تزل فكرة. فازدادت أعداد المتظاهرين ونزلت الفتيات لتقفن بجانب الشبّان. ثم عاوَدَنا بإطلالة أخرى معلنًا التخلي عن فكرة تلك الضريبة.

ولكن فات الأوان. فما أن انتصف الليل حتى امتلأت معظم الساحات بالمتظاهرين، وقُطعت معظم الطرقات الرئيسية. وفي اليوم التالي أقفلت المدارس والجامعات والمصارف والدوائر الرسمية.

[1] نشر هذا المقال في مجلة المستقبل الكندي - مونتريال – السنة الرابعة – عدد كانون الثاني 2020.

وفي صباح اليوم الثالث، غدا عددٌ من طلاب الجامعات، شابات وشبانا، بالنزول إلى ساحتي الشهداء ورياض الصلح، حاملين أدوات التنظيف، لرفع ما خلفته مواجهاتٌ جرَت بين المتظاهرين وقُوى الأمن في تينك الساحتين، في ساعة متأخرةٍ من الليلة السابقة، إثر أعمال شغبٍ تسبَّبَ بها مندسون مغرضون.

وتوالت الأيام وأعداد المتظاهرين تزداد يومًا بعد يوم. ورقيُّ وحضارةُ حَراكهم أعادا الصورة الحضارية للبنانيين، أمرٌ لفتَ أنظار العالم أجمع.

لقد بدأ الحلم يتحقق، شباب لبنان يريدون وطنًا عزيزًا تديره دولةٌ صالحةٌ عادلة، لا مزرعة. فقد ثاروا على الطبقة السياسية الفاسدة التي امتصّت دماءهم وحولت دولتهم إلى أفشل الدول، وأغرقتها بالديون حتى حافة الإفلاس.

فيا إخواني، حاملي مشعل الثورة، مهما رأيتم من هذه السلطة من تسويف ومماطلة على الرغم من مرور مائة يوم على انطلاق ثورتكم هذه، وعلى الرغم من هذه الحكومة الجديدة التي طلعوا بها علينا منذ أيام، فلا تيأسوا ولا تضعفوا ولا تهنوا، فأنتم الأعلَون. فإنّي أراهم يتخبطون خوفًا على مصيرهم، ومن حسابهم العسير يوم ينقلبوا عن «عروشهم». فابقَوا لهم بالمرصاد. وتأكدوا بأنَّكم إذا توقف حَراككم قبل أن تجنوا ثماره، فسيعودون أشرسَ وأعنف مما دأبوا عليه منذ ثلاثين عامًا. ولكن لا تنزلقوا إلى العنف.

أعزائي الثوار الشرفاء، كي تبلغوا غايتكم، فإنّي أقترح عليكم أن يكون أول ما تسعَون إليه هو الانتخابات النيابية المبكرة، حتى تحت القانون الحالي بكل مساوئه، شرطَ ألَّا يتخلف أيٌّ منكم عن الاقتراع لتكون لكم الأكثرية المطلقة في مجلسٍ يعيد إنتاج سلطة تشريعية موثوقة، قادرة على المعالجة الملحّة لهذه الأزمة الاقتصادية والمالية التي وصلنا إليها، وتعملُ في الوقت عينه على تنظيم قضاء مستقلٍّ استقلالًا تامًّا، ليكون قادرًا على بسط العدالة بين المواطنين، ومراقبة ومحاسبة الفاسدين ومخالفي القوانين والأنظمة مهما علا شأنهم.

ثم ينكبُّ ذاك المجلس، على إعادة تنظيم وتحديث القوانين والأنظمة، بما يضمن العدالة والمساواة والعيش الكريم لجميع المواطنين، في ظلِّ دولةٍ مدنيّة أساسها المجتمع ككل لا الطائفة ولا المذهب.

وإنّي أرى تحقيقَ ذلك في التالي:

1 - قانون انتخابٍ غيرُ طائفي، أساسه الدائرة الفردية، يقترع فيها المواطن في مكان سكنه، لا حيث سُجِّلَ أجدادُه أو آباؤه في العام 1932.

2 – قانون تنظيم الأحزاب الوطنية غير المرتبطة بأي جهة دينية أو مذهبية أو خارجية.

3 – إعادة تنظيم المدارس ومن دون إشراف الهيئات الدينية المباشر أو غير المباشر عليها، وتوحيد برامج التعليم.

4 – إلغاء النصوص والامتيازات الطائفية بجميع أشكالها. وتوحيد قوانين الأحوال الشخصية.

5 – تسهيل وتبسيط المعاملات الرسمية للمواطنين، وتعديل وتحديث القوانين، كي تكون نصوصُها واضحةً محدّدةً، من دون التباسٍ أو تعقيدٍ أو تعجيزٍ، وعدمُ ترك الاستنسابية للموظف في أيٍّ من الأمور. واعتمادُ الكفاءة والنزاهة، والشّخص المناسب في المكان المناسب. وتفعيل المراقبة المسبقة واللاحقة على أداء العاملين في جميع الدوائر.

6 – إقرار الضمان الصحي، طبابةً واستشفاءً، لجميع المواطنين واعتماد البطاقة الصحية كي لا يشعر المواطن بالذلِّ والمهانة في السعي للحصول على الموافقة المسبقة عند الحاجة إلى العلاج. وإقرار ضمان الشيخوخة أسوة بالدول التي تحترمُ كبارَها، احترام الابن البارِ لأبويه.

7 – تأمين وسائل العيش الكريم للمواطنين كافّة، وفي بيئة نظيفة وصحية.

8 – وعلى المستوى الاقتصادي، تعزيزُ وحمايةُ الصناعة والزراعة. واعتمادُ مبادئ: أنَّ الضرائب المرتفعة تزيد في الركود، وأنَّ الدولة تاجرٌ فاشلٌ، وأنَّ الحرية الاقتصادية لا تعني الفوضى والاستغلال، وأنَّ التنافسَ الشريفَ يؤمِّن للمواطن الأسعار الفُضلى والنوعيّة الجيدة، وأن لا استثماراتٍ جديدة من دون الاستقرارِ الأمنيّ والقانونيّ والضريبيّ وسهولةِ المعاملات؛ وأنَّ الرقابة النزيهة ضروريّةٌ جدًّا.

وأخيرًا، لا تنسوا محاكمةَ ومحاسبةَ من أوصلوا لبنان إلى أسفل قائمة، الدول، سواء اقتصاديًّا أم اجتماعيًّا.

ودفَنْتُ حُلُمِي[1]

بالأمس (الثلثاء 2020/1/28) أطلّ علينا دونالد ترامب، وإلى جانبه نتنياهو، بمشروعه المسمى «صفقة القرن»، الذي يعرض فيه رؤيته لحلّ قضية فلسطين. فكان أول تعليقٍ لمصر، أكبر دولة عربية، أن «دعت الفلسطيني والإسرائيلي إلى درس خطة السلام وفتح قنوات لمعاودة المفاوضات برعاية أميركية». وتلاه تعليق المملكة العربية السعودية، أغنى دولة عربية، أنها: «تشجع البدء بمفاوضات مباشرة للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليّين تحت رعاية الولايات المتحدة».

فدَفَنْتُ حُلُمِي.

هذا الحلم الذي عاش في مخيلتي مذ بلغت الرُّشد، بأن تعاودَ قدمايّ وطْأ أرضٍ زُرتُها، قبل اغتصابها، وكنت طفلًا لم يبلغ التاسعة بعد. وبعدما حُرِمنا من دخولها ثانية، كنت كلّما نظرت إلى الجنوب من على شرفة منزلنا في جديدة مرجعيون، أقول في سرّي: هل سأتمكن يومًا من زيارة تلك الأرض قبل أن أغادر هذه الحياة الدنيا؟

وتمرُّ أيام الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة وأنا أسمع كلام حكّام العرب بالتهديد والوعيد لتحرير أرض فلسطين وطرد مغتصبيها. فخاضوا الحروب الخاسرة، وأضاعوا الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ومزارع شبعا وتلال كفرشوبا.

وفي كلِّ مرّة كان حكام العرب الأشاوس يتهمون أميركا بأنّها تحيك المؤامرات ضدّهم وضدّ أنظمتهم.. وعوضًا عن التصدي لتلك «المؤامرات»، رأيناهم يعودون إلى الأميركيين، متسولين المعونة في إيجاد الحل، مقدمين التنازل تلو الآخر. فخسّرونا أيضًا كرامتنا.

فماذا تنتظرون من الأميركيّين، يا حكّامنا «الكرام»، ألم تطلعوا على تاريخ أو واقع من تستجدون العون منه؟ ألا تعرفون من أسس دولة الولايات المتحدة الأميركية وكيف؟ لقد بعث الأوروبيون إلى ما سموه يومها بالعالم الجديد،

[1] كتبت هذا المقال في 2020/1/29.

بمجموعات من المجرمين، أُطلقوا من السجون، لتثبيت استعمارهم لأرض ذلك العالم، ثم ألحقوا بهم مجموعاتٍ من المومسات تعزيزًا لغايتهم تلك. فقام أولئك المجرمون بقتل الملايين من أصحاب تلك الأرض؛ ليؤسّسوا دولة شعبٍ لقيطٍ لا أصالة ولا قيم له، مبدأه مصلحته، حتى ولو كان ثمنها التضحية بالآباء والأبناء. وألم تروا مدى تحكم الصهيونية، حاليًّا، بجميع مراكز القرار في تلك الدولة؟ ويوم كانوا بصدد وضع دستور هذه الدولة، طالب بنيامين فرانكلن، أحدُ عقلائهم وبنظرته البعيدة المدى، تضمينَ ذلك الدستور، نصًّا يمنع اليهود من دخولها لدرء خطر سيطرتهم على مقدرات بلاده.

أمّا ضياع فلسطين، فالتّهمة توجه دائمًا إلى بريطانيا بأنها المسؤول الوحيد، عن وعد بلفور الصادر في 2 تشرين الثاني من العام 1917، وقبل استيلائها على فلسطين، ولكنّ الواقع التاريخي أثبت أن وودرو ويلسون، رئيس الولايات المتحدة الأميركية يومها، وافق عليه، مسبقًا في 13 تشرين الأول 1912. وقد انتخب ويلسون هذا، ذو الميول الصهيونية، بدعم من المنظمات والشخصيات الصهيونية في أميركا، واستمرت ولايته من العام 1912 لغاية 1920. وكان يومها الاعتقاد سائدًا لدى أغبيائنا، بأنّ أميركا هي حامية الحرياتِ وحقوقِ الإنسان. كما أن فوز أيّ رئيسٍ للولايات المتحدة كان ولم يزل، يضمنه ذلك الدعم الصهيوني. وقد يشذُّ حال جون كينيدي عن هذا، ولذا تمَّ، حسب رأيي، اغتيالُه، الذي لم يُعرفْ حتى اليوم سببُه أو من وقف وراءه.

أما نحن، يا «حكامنا الكرام»، فلم تنفكّوا عن وصفنا بأننا «خير أمةٍ» أخرجت للناس، وأنّنا مميزون بصبرنا على المصائب، التي تسبّبونها أنتم. وتفاخرون بأنّ أرضنا هي مهبط الرسل والأنبياء. فيؤسفني القول بأن لو لم نكن بحاجة إلى الإصلاح لما بعث الله تعالى إلينا أولئك الأنبياء لهدايتنا وإصلاحنا. ثم ألم نعد إلى جاهليتنا وخلافاتنا وتقاتلنا فورَ وفاة خاتم النبيين، محمد ﷺ؟ وألم يكن السبّبُ في ذلك هو التهافت على كرسي الخلافة؟ وكم من الأرواح زُهقت في الحروب لأجلها؟

فكيف نكون، نحن وأنتم «خير أمةٍ» أخرجت للناس، وقد فرّقنا جهلنا وعبادتُكم العروشَ والمناصبَ، شعوبًا وشيعًا وطوائف تتقاتل وتتذابح ويشرّد بعضُنا بعضًا في سبيلها؟

وكيف نكون «خيرَ أمةٍ» أخرجت للناس، وقد استُغِلَّت فينا نصوصُ الدين بالاجتزاء أو التأويل، إمّا بأوامركم أو تحت أنظاركم، لغسل أدمغة العامّة ليتحولوا

إلى أدواتٍ تديرونها بأيديكم أو بأيدي أزلامٍ لكم، لتحقيق غاياتٍ مُغرضة مشبوهة ولمصالح جهات خارجية؟

وكيف تكونوا من «خيرِ أمةٍ» أخرجت للناس، وقد وقفتم أنفسكم والبلادَ التي تحكمونها، لمصالح الدول الغربية خوفًا على كراسيكم وعروشكم؟

وكيف تكونون من «خيرِ أمةٍ» أخرجت للناس، وقد عبدتُم فروج النساء، واستعبدتم الرجال الذين «ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، حتى فجَّر الأغبياء أنفسهم طمعًا بالحور العين، عملا بفتاوى جهاد النكاح وغيره؟

وكيف تكونوا من «خيرِ أمةٍ» أخرجت للناس، وقد عبدتم جمْعَ الأموال بأيّ وسيلة كانت، وكنْزَها؟ وأفقرتم رَعَاياكم وخرّبتم بلادكم، بفسادكم وسرقة أموال شعوبكم، لتملأوا جيوبكم، ولتبنوا القصور الفخمة لكم ولأبنائكم، ولتشتروا السيارات واليخوت الفارهة، والطائرات الخاصة، ولتشبعوا شهواتكم الجنسية؟ أولم تَرَوا أنّ الذين سبقوكم إلى الدار الآخرة، لم يأخذ معه أيٌّ منهم قرشًا واحدًا مما جمع؟

فخسئتم من حكامٍ خانوا الأمانات، وأضاعوا الكرامات، والأرض، ودمّروا الحجر، وقتلوا وهجَّروا البشر، في سبيل حُكمٍ زائلٍ.

لعنكم الله في الدنيا وفي الآخرة.

القضاء في الأربعينيّات[1]

كان المرحوم رضا بك التامر من القضاة المشهود لهم. وكان «مفوض الحكومة لدى مجلس الشورى» هو آخر المناصب التي تولاها قبل الاستقالة، للدخول في معترك الانتخابات النيابية في العام 1956. وقد سمعته يومًا يروي للمرحوم والدي، الذي كانت تربطه به صداقةٌ وثيقة، قال: في إحدى سنوات الأربعينيات[2]، لاحظنا ارتفاعًا متزايدًا في أسعار اللحوم الطازجة، من دون معرفة السبب. وعلى الرُّغم من تذمّر الناس لم يتوقف ذلك الارتفاع. فرأيت من واجبي أن أفعل شيئًا ما. فغدوت في صبيحة أحد الأيام، وعلى غير عادة، إلى دكّان الجزار المجاور لمسكني، الذي بادرني بكلماتِ ترحيبٍ يشوبها بعض التلعثمِ من الشعور بالمفاجأة. فأجبته بكلامٍ فيه بعض القساوة، قائلاً: ما هذا الذي تفعلونه أيها الجزارون؟ ولماذا ترفعون الأسعار؟

فردَّ بصوت مرتجف: هذا ليس بأيدينا نحن، يا بك.

فقلت: أصدقني القول كي لا تضطرني إلى اتخاذ ما لا يسرُّك.

قال: إنهم تجار الجملة الذين يرفعون الأسعار. أما نحن فنضيف عليها نسبة الأرباح المعتادة فقط.

قلت: أعطني فورًا أسماءهم وعناوينهم، وإلا اعتبرتك شريكهم.

وفور تزويدي بما طلبت، سطرت مذكرات بإحضار كلٍّ منهم إلى المحكمة مخفورًا وفورًا، وأبلغتها حسب الأصول إلى القُوى الأمنية، ومع ساعٍ خاص. ثم ذهبت إلى قهوة الغلاييني[3] مصطحبًا جريدة الصباح، حيث مكثت حتّى ما قبل موعد بدء الجلسات بنحو ربع الساعة، فقمت بمكالمة رئيس قلم المحكمة هاتفيا من هاتف المقهى. فإذا به يبادرني قائلا: أين أنت يا بك؟ فجرس جهاز الهاتف لا يتوقف عن الرنين. وأعتقد أنَّه لم يبقَ أحدٌ من السياسيين لم يسأل عنك.

قلت: هل أحضرت القوى الأمنية المطلوبين؟

---

[1] تذكرت هذه الحكاية، فكتبتها في 2020/2/25 أي في اليوم 131 من انطلاق ثورة 17 تشرين الأول 2019. ونشرت على الفيس بوك.

[2] من القرن العشرين.

[3] وكان موقعها حيث يقوم حاليًا مجمع «الموفمبيك» السياحي.

قال: أجل، وأعتقد أنَّ هذا هو سبب كثافة الاتصالات الهاتفية.

قلت: حسنًا، فوافني أنت، إذًا، إلى قاعة المحكمة، مصطحبًا «الثوب» والملفات، ومن دون أن تبلغ أحدًا. وسأدخل أنا من الباب الخلفي لنبدأ الجلسات فورًا.

وأردف قائلا: ولما استويت على كرسي المقاضاة طلبت إحضار تجار اللحوم. فكان لعنصر المفاجأة دورٌ عظيمٌ في عدم تمكنهم من تبريرٍ منطقيٍّ وموثّقٍ لزيادات الأسعار. فأصدرت بحق كل منهم العقوبة التي تسمح بها القوانين المرعية. وهكذا، انتهت الأزمة وعادت الأسعار فورًا إلى حجمها الطبيعي.

تذكرت هذه الحكاية، فكتبتها لأبيّن للجميع أنّ القضاء اللبناني في أيامنا هذه، ليس بحاجة إلى نصوص تنظّم استقلاله، بقدر ما هو بحاجة إلى إرادة القاضي وحرّية ضميره وقوّة شخصه.

في استقلالية القضاء[1]

إنَّ ما يتعرض له، حاليًا، مشروع مرسوم التشكيلات القضائية، كما أعدّها مجلس القضاء الأعلى، وبخاصّة اعتراض وزيرة العدل وتأخرها في توقيعه، أعادني إلى أحد مواقف الوزير والنائب السابق الأستاذ إدمون رزق، أطال الله عمره، يوم كان وزير العدل في حكومة الرئيس الدكتور سليم الحص، أطال الله عمره، في عهد المرحوم الرئيس الأستاذ إلياس الهراوي.

كان ذلك في العام 1993، يوم أحال مجلس القضاء الأعلى مشروع مرسوم التشكيلات القضائية، إلى وزير العدل، الأستاذ رزق، فقام هذا الأخير بتوقيعه من دون مراجعة تفاصيلها. ثم حمله، مع مرفقاته، إلى مقرّ رئاسة الوزراء، وقدمه إلى الرئيس الحص للتوقيع.

فقال له الرئيس الحص: لديَّ سؤال.

فقال الوزير رزق: أرجو إرجاءه إلى ما بعد التوقيع.

لم يعترض الرئيس الحص ووقّع المرسوم من دون تأخيرٍ أو تلكؤ. بعد ذلك سأله الوزير رزق عمّا كان يريد أن يسأله.

فقال الرئيس الحص: لم يكن سؤالي من قبيل التدخّل في تفاصيل التشكيلات، بل كان فقط لمعرفة المركز الذي سينقل إليه القاضي فلان.

فأجابه الوزير على استفساره بعد مراجعة لوائح التشكيلات.

ثم انتقل الوزير رزق إلى مقرّ رئيس الجمهورية. ولما وضع مشروع المرسوم بين يدي الرئيس الهراوي، قال هذا الأخير: عندي سؤال.

فقال له الوزير رزق: رجاء دعه إلى ما بعد التوقيع.

فقام الرئيس الهراوي بتوقيع المرسوم من دون أيّ تردد. فقال له الوزير رزق: والآن ما هو سؤالك يا فخامة الرئيس؟

فأجابه الرئيس: لم يكن سؤالي للتدخل في تفاصيل التشكيلات أبدًا، بل كنت أرغب في معرفة من سيكون في مركز كذا في بعبدا.

فأجابه الوزير على سؤاله، أيضًا بعد مراجعة اللوائح.

---

[1] كتبت هذا المقال في 2020/4/9 ونشرته على الفيس بوك

فكم نحن اليوم بحاجة إلى رجالٍ من أمثال الوزير رزق والرئيسين الهراوي والحصّ؟

فيا معالي الوزيرة، السيدة ماري كلود نجم، والتي، قبل أن تكوني وزيرة العدل، كنتِ محامٍ في الاستئناف، كما الوزير رزق، وكنتِ أيضًا بروفسور لدى كلية الحقوق والعلوم السياسية في جامعة القديس يوسف في بيروت، ورئيسة قسم القانون الخاص ومديرة مركز الدراسات الحقوقية للعالم العربي، واستاذة زائرة في جامعة بانتيون في باريس[1]؛ أي أنك من العارفين جيدًا بحاجات البلاد، وبخاصّة حاجتها إلى قضاء مستقل؛ كم كنّا نتمنى أن يكون موقفك من مشروع التشكيلات القضائية الحالي، مشابهًا لموقف الوزير الأستاذ إدمون رزق، ولو بعدم التأخر في توقيعه فقط، بعدما رده إليكِ مجلس القضاء الأعلى عملا بالأنظمة والقوانين المرعية.

[1] l'université Paris Panthéon Assas

فرّقونا صغارًا، ويدعوننا

إلى الوحدة كبارًا![1]

غرسوا في قلوبنا بذور التفرقة الطائفية والمذهبية، منذ كنّا أطفالًا، لا يعرف واحدنا ماذا تعني كلمة «دين». فبعدما عرفنا أسماءنا، وقبل أن نعرف انتماءنا الوطني، قالوا لنا: أنت مسلمٌ وذاك مسيحيٌّ. ثم قالوا: أنت سنيٌّ وذاك شيعيٌّ وذلك دُرزيٌّ. وأولئك: مارونيّ وأرثدوكسيّ وكاثوليكيّ وبروتستانتيّ...

في الأعياد الإسلامية ألبَس المسلمون أطفالهم الثياب الجديدة، وأطعموهم أشهى المأكولات وكعك ومعمول العيد، أمام أعين أطفال المسيحيين، الذين قال لهم آباؤهم بأنّ هذه ليست أعيادنا. وفي الأعياد المسيحية، كان أطفال المسيحيين، يزهون بثياب الشعانين والفصح والميلاد، يأكلون أصناف الحلوى الشهية ويتفاقسون البيض المسلوق المزين بأجمل الألوان، والمسلمون يقولون لأطفالهم: هذه ليست أعيادنا.

كل ذلك ولم يكن أيٌّ منا يعرف، في طفولته، من العيد سوى تلك الثياب والأطعمة. فلماذا مُنعنا من أن نتشارك فرحة تلك الأعياد سويةً؟

في المدرسة، وقبل أن أبلغ العاشرة، درسنا في كتاب التاريخ، المعتمد من قبل وزارة التربية الوطنية، أن السبب في اندلاع أحداث العام 1860 في جبل لبنان، بدأ خلافًا بين ولدين كانا يلعبان «الكلة»، أحدهما دُرزي الأهل والثاني مارونيّهم. ففهمت عقولنا الطرية بأنّ الدروز والموارنة أعداء.

ولما بلغنا الرشد، قرأنا في الدستور أنّ: «كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دون ما فرق بينهم».

وأنّ: «لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة لا ميزة لاحد على الاخر الا من حيث الاستحقاق والجدارة حسب الشروط التي ينص عليها القانون.»

ويوم أصبح العمل واجبًا معيشيًا، على كلٍّ منا، فُوجئنا بأنّ مذهبنا الديني، لا الكفاءة العلمية أو الجدارة الشخصية، هو الشرط الأول والأساسي والأهم، للحصول على الوظيفة العامة. وأنّ لأبناء كلّ مذهبٍ سقفًا في درجات سلّم تلك

[1] نشرت هذه المقالة بتاريخ 5 تشرين الأول 2020، على موقع المنبّه الإلكتروني.

الوظيفة لا يحقُّ له أن يتجاوزه. وأنّ اللبنانيين، بالتالي، مصنّفون درجات بحسب تلك المذاهب المعترف بها قانونًا، وبأعداد أبنائها. أمّا من وُلد من أبٍ ليس على أيٍّ من تلك المذاهب، فيسمى، في وطنه، من الأقليّات، على الرغم من أنّ أباه وأجداده ولدوا وعاشوا وماتوا في هذا الوطن.

فنظام المحاصصة الطائفية والمذهبية، هذا، بدأ بنظام «القائمقاميتين»، واحدة مارونية والأخرى درزية، الذي فرضه قناصل الدول الغربية والسلطنة العثمانية في بداية أربعينيات القرن التاسع عشر، بديلا عن نظام الإمارة اللبنانية الذي دام لما يزيد عن القرون الثلاثة. ثم استبدلوه بنظام «المتصرفية» في العام 1860. وإبّان الانتداب الفرنسي فرض مندوبه السامي عرفًا على اللبنانيين بتوزيع الوظائف العامة بحسب مذاهبهم. وبعد الاستقلال استمرت الحكومات المتعاقبة، في تطبيق هذا العرف، حتى جاء «اتفاق الطائف» فثبت هذا العرف نصًّا دستوريًا في العام 1989، ليوقف «حروبا» عبثية دامت 15 سنة، بين أبناء الطوائف والمذاهب. فكان أن استغل «أمراء الميليشيات» هذا الأمر، ليحوّلوا «المذاهب» إلى «أحزابٍ سياسية» تخدم مصالحهم الخاصة، مدّعين أنهم حُماةٌ لمصالحها؛ وذلك جرّاء زحف الكثيرين من أبناء تلك المذاهب إلى أعتاب أولئك «الأمراء»، لكلٍّ منهم أمرٌ دعاه لهذا الزحف، فمنهم من اضطرته إلى ذلك الأبواب المغلقة على فرص العمل، ومنهم المستنفعون، ولو على كراماتهم، بالإضافة إلى أصحاب النفوس اللواتي لا تستطيع العيش إلّا بالاستعباد.

وعلى الرغم من هذا كلّه، فلا ينقطع أولئك «الأمراء» عن دعوة اللبنانيين إلى أن يكونوا يدًا واحدة في سبيل وطنهم. أمّا حينما يروا مجموعة مواطنين، من غير أتباعهم، متآلفة أفكارهم، يطالبون بتغيير أو إصلاح هذا النظام؛ فيعمدون إلى إثارة النعرات الطائفية أو المذهبية، ويتقاذفون التُهم فيما بينهم، كي يعيدوا تفريق أولئك المتآلفين.

ويطلع علينا منهم من يدعو، مرّات عديدة، إلى إلغاء النصوص الطائفية من الدستور والنظام، وعلى الّغم من أنّ بيده أن يفعل ذلك، فنراه يعمل عكس ما يقول.

وقد بحثت في معاجم العربية، التي هي أغنى لغات العالم، لعلّني أجد كلمة لوصف هذا الفعل، ألطف من كلمة «نفاق». فهل لي من معين من أساطين اللغة؟

هل نعرف نحن حقًّا عدوّنا؟[1]

معرفة العدوّ أهمّ الأسس لوضع الخطط الصائبة والكفيلة في التغلب عليه، سواء في الحرب المستعرة أم المحتملة، أم حتى لاتقاء شرّه. وهذا لا يكون فقط في معرفة عديده وعدته وأنواع وكميات ما يملك من أسلحة وعتاد. بل يتوجّب أن نعرف دقائق أهدافه وتفكيره وطباعه، ما لا يمكن الوصول إليه إن لم نعرف حقيقة ما يؤمن به من معتقدات دينية وقومية واجتماعية وتعاليمها، بالإضافة إلى ما يتمسك به من عادات وتقاليد موروثة أو مكتسبة، ومن دون أن ننسى أيضًا تاريخه وتراثه. وأول ما يتوجب للوصول إلى هذه الغاية، هو تعلم لغته وإتقانُها بكلّ دقائقها وتفاصيلها للتمكن من الفهم السليم والدقيق لكل ما سبق وذكرناه.

بالتأكيد هذا ليس مطلوبًا من المواطنين جميعا، بل هو واجبٌ على أجهزةٍ ومؤسساتٍ رسميةٍ تُنشِئها الدولة خصّيصا لهذه الغاية.

وإذا كان في البلاد العربية بعض مؤسساتٍ تعلِّم اللغة العبرية، كجامعة الملك سعود مثلًا، فهذا غير كافٍ. فلو كلَّفَ أيٌّ من حكّامها أحد مستشاريه، وهم كثرٌ والحمد لله، أن يُجريَ بحثًا بسيطًا في مواقع «غوغل» لتبيَّن له أن العدوَّ الإسرائيليّ قد مضى، ومنذ زمنٍ بعيد، إلى أبعدَ من ذلك بكثير.

وأكتفي هنا بعرض مقتطفات موجزة من بحثٍ لفوزي البدوي بعنوان: «بعض ملامح الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الإسرائيليّة»، على موقع «الأوان» الإلكتروني[2]:

1 - جامعة بار ايلان:

يدور البحث في الإسلام الوسيط في هذه الجامعة في قسمين: الأول هو قسم دراسات الشرق الأوسط في العالم الإيراني، والإسلام الوسيط، وصلته باليهودية، والفقه السنّي الوسيط؛ وفي الدراسات التاريخية والاجتماعية والسياسية في الإسلام الوسيط. والقسم الثاني هو قسم اللغة والآداب العربيّة الذي يعتبره بعضهم

[1] نشرت هذه المقالة على موقع «المنبّه» الإلكتروني بتاريخ 2020/10/20.

[2] https://www.alawan.org/2017/12/21/%d8%a8%d8%b9%d8%b6-%d9%85%d9%84%d8%a7%d9%85%d8%ad-%d8%a7%d9%84%d8%af%d9%91%d8%b1%d8%a7%d8%b3%d8%a7%d8%aa-%d8%a7%d9%84%d8%b9%d8%b1%d8%a8%d9%8a%d9%91%d8%a9-%d9%88%d8%a7%d9%84%d8%a5%d8%b3%d9%84%d8%a7/

أنّه أفضل قسم للغة العربيّة في العالم، من جهة محتوى الدراسة وقيمة الأساتذة الباحثين وتميزه بتخصصات لا تعرفها جامعات أخرى مثل التراث «العبربي»[1] والدراسات القرآنية ومذهبي الحنابلة والأشاعرة والشعر القديم، والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي الوسيط والتاريخ العسكري للشرق الأوسط.

2 - **جامعة حيفا**:

وفيها أربعة أقسام تقدّم دروسًا ذات صلة بتاريخ الإسلام الوسيط. أهمّها: قسم اللغة والآداب العربيّة. وقسم تاريخ الشرق الأوسط، ويهتم بالتاريخ السياسي والاقتصادي والديموغرافي للعالم الإسلامي.

3 - **الجامعة العبريّة في القدس**:

تعتبر هذه الجامعة من أقدم المؤسسات اليهوديّة ثم «الإسرائيلية» التي اهتمت بإنشاء مدرسة للدراسات الشرقية منذ سنة 1926 أسستها جماعات من المستشرقين اليهود الألمان الذين استوطنوا فلسطين. وقد اشتهرت هذه الجامعة بنشر مخطوطات عربيّة، منها بعض أجزاء أنساب الاشراف للبلاذري.

وكان أشدَّ المتحمّسين لقيامها عالمُ الفيزياء اليهودي الشهير ألبير أينشتاين الذي وهبها بعد موته كل تراثه العلمي ومخطوطاته وكتبه في مكتبة تحمل اسمه، والفيلسوف اليهودي الالماني مارتن بوبر وعالم النفس اليهودي الشهير سيغموند فرويد. وقد وضع حجر الاساس لبنائها في العام 1918 وفتحت ابوابها في غرّة نيسان عام 1925 على جبل المكبر.

وفيها كلية تحتوي على عدة مراكز بحث من بينها «مركز الدراسات الآسيوية والإفريقية» الذي تتفرع عنه أربعة أقسام هي: قسم اللغة والآداب العربيّة، وقسم دراسات شرق آسيا، وقسم الدراسات الأرمنية والهندية، وقسم الدراسات الإسلاميّة والشرق أوسطية. وترتبط بهذه الأقسام وحدات بحث من بينها خمسٌ ذات صلة بالدراسات العربيّة والإسلامية. هي: وحدة «مشروع اللهجات العربيّة»، و«مشروع المعجم العربي العبري»، و«مشروع معجم الشعر العربي القديم» ووقفية ماكس شلوسنجر (Max Schloessinger Memorial Fund) اللاهوتي واللغوي اليهودي الألماني المولد الامريكي المقام (1877-1944) الذي يرجع إليه شخصيا نشر شرح ابن كيسان على معلقة عمرو بن كلثوم ورحلة الداد هاداني.

[1] العبري – العربي.

ومما نشرته هذه الوقفية من النصوص العربيّة نذكر: «جوامع أدب الصوفية وعيوب النفس ومداواتها» و«فضائل بيت المقدس» لأبي بكر بن أحمد الواسطي، وكتاب «أدب المريدين «لابي النجيب السهروردي، كما نشر كتاب «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان» لجلال الدين السيوطي.

كما نشرت هذه الوقفية نصوصا مختارة من الادب «العبربي» اختارها وعلّق عليها عميد الدراسات العبربية البروفيسور يهوشواع بلاو وصدرت سنة 1980، بعنوان «المختار من النصوص باللغة العربيّة اليهوديّة אלמכתאר מן אלנצוץ באללגה אלערביה אליהודיה ثم نشرت «إيلاّ ألماغور» كتاب «ذمّ الدنيا» لابن أبي الدنيا سنة 1984 وعلّقت عليه ...

بالإضافة إلى سلسلة بعنوان «أشتات في اللغة العربيّة والإسلام» افتتحتها بإصدار كتاب أرييه ليفين بعنوان «اللّسانيات العربيّة من خلال علم اللهجات» ثم تلتها «دراسات في الرواية الإسلاميّة المبكرة» بأشراف الباحث الفلسطيني سليمان بشير. أمّا في مجال الآداب واللغة فقد كان لهذه الوقفية دور مهمّ أيضا بنشرها معجم مفهرس لستّة من الشعراء الجاهليين بإشراف البير أرازي وسلمان مصالحة ونشر بالعربية تحت عنوان: «العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين...

4 - جامعة تل أبيب:

تحتوي هذه الجامعة على كليات عديدة تقدم دروسا حول العالم الإسلامي الوسيط من بينها قسم تاريخ الشرق الأوسط وافريقيا، وهو قسم يهتم خصوصا بالتاريخ الحديث والمعاصر... وبالثقافة «العبربية Judeo- Arabic الوسيطة»، والتاريخ السياسي للشرق الأوسط. كما يوجد فيها قسم للغة العربيّة والدراسات الإسلاميّة، يقدم دروسا في الإسلام المبكر، وتاريخ الاندلس والأدب العربي القديم وعلم الكلام في الوسط الشيعي الوسيط... (انتهت المقتطفات من بحث فوزي البدوي).

هذه المعلومات تقودنا إلى طرح الأسئلة التالية، على السادة حكّام وقادة البلاد العربية:

هل تكبد العدو الإسرائيلي نفقات تأسيس وتشغيل هذه المؤسسات الجامعية حبًّا بالعرب والإسلام؟ أم لماذا؟

أين هذا العدد غير المعروف ممن تخرجوا في هذه المؤسسات؟ وأين وماذا عملوا ويعملون؟

ألا يعقل أن يكونوا قد زُرعوا في البلاد العربية خدمة لمصالح إسرائيل؟ ولم ننسَ بعدُ الجاسوس «كوهين» الذي أعدم في سورية في ستينيّات القرن الماضي بعد أن وثّقَ علاقاته مع أعلى المسؤولين السوريين منتحلا شخصية مغتربٍ سوريّ عائدٍ من الأرجنتين يحمل اسم «كامل أمين».

وألا يعقل أن يكون بعض أولئك الذين نصّبوا أنفسهم حماة الإسلام والمسلمين، وشكّلوا جماعاتٍ من المغرّرين للقيام بأبشع وأفظع الجرائم باسم الدين، أمثال أبي بكر البغدادي، وأبي مصعب الزرقاوي وغيرهما؟

رسالة من التاريخ[1]

إلى السيد رئيس الجمهورية اللبنانية

عندما قرأت نصّ رسالتك الأخيرة[2] إلى مجلس النواب، لم أكن أتوقع، كما ظنَّ بعضهم، أن أقرأ فيها، ولو إشارة واحدة إلى نيّتك في التنحّي، لأنّ شهوة السلطة، وحبّ المراكز والكراسي والألقاب، يقفان دون ذلك حاجزًا منيعًا. وما فهمته من مضمون تلك الرسالة، المصاغة بأسلوبٍ إنشائيّ مع بعض الأخطاء اللغوية، مما لم تقله بصراحة، هو أنّك تريد إلغاء تكليف الرئيس سعد الحريري بتشكيل الوزارة، كي لا تُحَمَّل وحدك مسؤولية التعطيل، استنادًا على قاعدة «ما خلّونا»، أو ما شابهها من عبارات التنصل من المسؤولية التي من واجب الرئيس القوي تحمّلها. علمًا بأنّني أعتبره، هو أيضًا، شريكَك في تلك المسؤولية.

فإن كنت تعتمد، بقاعدتك المذكورة، على ضعف ذاكرة الشعب، فتأكّد من أنْ ليس للتاريخ وحده ذاكرةٌ تحفظ وتسجل الأحداث والأقوال، فبين اللبنانيين أيضًا كثيرون ممن لا ينسون الحسنة والسيئة.

وكمواطنٍ عاديٍّ، أُرجو أن تعلم بأنّه لا يزالُ عالقًا في ذاكرتي وفي دفاتري، الكثيرُ مما تسبَّبتْ لنا به أعمالُك من الأذية، مذ كان سعد الحريري لم يزل طفلًا. وسأكتفي بالتالي منها، ولكن من دون التطرق إلى ما قيل عن استقبالك جيشَ شارون على أبواب بيروت يوم احتلّها في العام 1982:

أولًا: بعدما تحقّق الرئيس أمين الجميل، في العام 1988، من عدم إمكانيّة تجديد ولايته، وبالرغم من وجود حكومة، لا مستقيلة ولا مُقالة، كلّفك برئاسة الحكومة العسكرية التي بُتِرت باستقالة نصف أعضائها، فور صدور مراسيم تعيينهم. فرُحتَ تسعى لدى الرئيس حافظ الأسد لتسهيل انتخابك خلفًا للرئيس الجميل. والكثير من اللبنانيين ما زالوا يذكرون تلك الرسالة، التي نشرتها جريدةُ السفير في حينه، والتي بعثت بها إليه تستجديه كرسي الرئاسة، فتكون بالمقابل «جنديًّا في جيشه».

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة المستقبل الكندي – مونتريال- عدد الأول من حزيران / يونيو 2021 – السنة الخامسة. وقد كنت أنوي التوقف عن كتابة المقالات في هموم الوطن، ولكن تأخير تشكيل الوزارة في لبنان لما يقارب الأشهر العشرة، ما أظنّ أنه مفتعلًا، دفعني لكتابة هذا المقال.

[2] بتاريخ 2021/5/18.

ثانيًا: ولمَّا تحقّقتَ من عدم اكتراث الرئيس الأسد لما سألت أو عرضت، أعلنت، في الرابع عشر من شهر آذار 1989 ما ادعيت يومها أنّها «حرب التحرير من السوريين»؛ فكانت البداية بأن قتلت مدافعُك، في صباح ذلك اليوم، في ساحة اليونيسكو في بيروت وحدها، عشراتِ اللبنانيين، من المدنيين والتلاميذ المتوجهين إلى مدارسهم. بينما ادعى أتباعك بأنّها كانت مدافع ميليشيا «القوات اللبنانية. ثم رُحت توزّع صواريخك على سائر الأحياء والمناطق التي كانت تسمّى «الغربية». ولمّا طاول ردّ أحد المليشيات، التي كانت تسيطر على تلك الأحياء والمناطق، أحدَ خزّانات الغاز في أطراف برج حمود، أطلقت مقولتك الشهيرة: «التعتيمُ بالتعتيم، والتعطيشُ بالتعطيش»، فقطعتَ الكهرباء والماء عن أحياء بيروت «الغربية»، لما لا يقلُّ عن الأشهر التسعة. فكانت نتيجة حربك هذه الكثير من القتلى والجرحى وتدمير العديد من الأبنية السكنية والمتاجر...

ثالثًا: عندما عجِزتَ عن «طرد السوريين» حوّلت نيران أسلحتك باتجاه المناطق التي كانت تسيطر عليها ميليشيا «القوات اللبنانية»، حلفاء الأمس، بما عُرف بحرب «الإلغاء». ولمّا طالب رأس الكنيسة، التي تدّعي انتمائك إليها وحرصك على مصالحها، البطريرك صفير، رحمة الله عليه، بوقف ذلك التقاتل، بعثتَ إليه مجموعةً من أحقر أزلامك، الذين لم يكتفوا بالعبث بموجودات مقرّه في بكركي، بل وجهوا إليه، أيضًا، أسوأ الإهانات والتصرفات المخزية...

رابعًا: وبنتيجة عدم اعترافك باتفاق الطائف، رفضت تسليم القصر الجمهوري والقطعات المسلحة التي كنت تتحكم بمصيرها، بالحُسنى، إلى السلطة التي انبثقت عن ذلك الاتفاق، بالرغم من علمك بأنّ قوتك العسكرية أضعف من أن تقاوم القوة العسكرية السورية التي كُلّفت بتطبيق الاتفاق المذكور. فكان أن تخلّيت، بعد سبع وأربعين دقيقة صمود، لا عن تلك القطعات والقصر فقط، بل عن بناتك وزوجتك أيضًا، وهربت إلى السفارة الفرنسية. فأسفر تعنّتُك هذا عن مئات القتلى والجرحى، من العسكريين، الذين آمنوا بطروحاتك وصدّقوا تعهداتك، بنفوس طيّبة.

خامسًا: ومنذ عودتك من منفاك في باريس، وحتى ما بعد تسنّمك كرسي الرئاسة، وأنت تُصمُّ آذاننا بتعهدك بالإصلاح والتغيير، فحصدنا، عوضًا عنهما، الإفلاس والتفقير والتهجير.

سادسًا: وبعد أول انتخاباتٍ نيابيةٍ تلت تلك العودة الميمونة، أبرمت ما سُمّي ب«تفاهم مار مخايل»، مع «حزب الله»، حليف سوريا، اللذين كنتَ تدّعي عداوتهما، وبأنّك سعيت إلى استصدار قرار مجلس الأمن رقم 1559، الذي من

مقتضياته، حلّ جميع المليشيات، بما فيها «حزب الله»، وتسليم أسلحتها إلى الدولة اللبنانية، وبانسحاب القوات السورية من الأراضي اللبنانية.

سابعًا: لقد فرَغتْ كرسي رئاسة الجمهورية لسنتين ونصف السنة، لأنّ حلفاءك عطّلوا انتخاب خلفٍ للرئيس ميشال سليمان، كرمى لعيونك أنتَ أيها الرئيس القوي.

ثامنًا: ولم أنسَ بعد، تلك الحكومات التي عُطِّل تشكيلُها، كرمى لعيون صهرك؟ بدءًا بتأخير تشكيل حكومة الرئيس سعد الحريري إثر الانتخابات النيابية في العام 2009، لما يقارب الخمسة أشهر. ثم تأخير تشكيل حكومة الرئيس نجيب ميقاتي، في العام 2011، لما يقارب الخمسة أشهر أيضًا. ثم حكومة الرئيس تمام سلام، في العام 2014، لما يزيد عن الأحد عشر شهرًا. وحكومة الرئيس سعد الحريري الثالثة، في العام 2018، وعلى الرغم من أنك اعتبرتَها أولى حكومات عهدك، فقد تأخر تشكيلها أكثر من ثمانية أشهر. واليوم وها قد مضى على انفجار مرفأ بيروت، وعلى استقالة الرئيس حسان دياب، ما يزيد عن تسعة أشهر، وعلى تكليف الرئيس الحريري ما يزيد عن الأشهر الستة، فقد رهنتَ تشكيلَ حكومته هذه، بما تسمّيه «الآلية الدستورية» في التشكيل، ناسيًا أو متناسيًا أنّ لبنان قد أصبح بلدًا مفلسًا، وأن اللبنانيين أصبحوا من أفقر شعوب العالم. فأيهما أهمّ يا «أبا الكل»، «الآلية الدستورية» أم الشعب والبلد؟

فلبنان الذي كان جنّة الشرق، قد تحول في عهدك إلى جهنم، التي وعدتنا بها، فماذا تنتظر بعد كي تتنحّى؟ أمّا إن كنت ترى أنّ هناك ما هو أسوأ له من جهنم، فأرجوك أعلمنا كي لا نحلم بالخلاص من نارها.

واذكر دومًا، يا فخامة الرئيس، أنّ التاريخ لا يمنعه الخوفُ من حليفٍ أو تابعٍ أو نسيبٍ، مهما عظمت قوته، من أن يدوّن في دفاتره أعمال السابقين، سواء كانتَ قد رفعت الشعب والوطن إلى الجنّة، أم أوصلتهما إلى جهنم.

والتاريخ لا يتملّقُ ولا يرحم.

سؤال إلى السيد رئيس الجمهورية

السيد الرئيس، أنا مواطن لبناني عادي، تجاوزت الثمانين من سنوات العمر، لم أتبوأ يومًا أي مركزٍ في أي إدارة أو مؤسسة حكومية، ولم أنتسب إلى أي حزبٍ أو تنظيم سياسي، فقد كان عملي في القطاع الخاص، ومنه خمسة عشر عامًا في القطاع المصرفي. ويوم أُفلس (برفع الهمزة) بنك إنترا، في العام 1966، كنت مديرًا لأحد فروع بنك آخر.

قبل أن يبدأ مصرف لبنان عمله في أول نيسان من العام 1964، الذي أُسّسَ بموجب قانون النقد والتسليف في 1963، انهارت بضع مصارف تجارية، وكان تأثير ذلك على القطاعين الاقتصادي والمصرفي ضئيلًا جدًا. وعلى رغم الإفلاس المتعمد لبنك إنترا في العام 1966، كما أشرت آنفًا، تابع القطاع المصرفي نموّه. وبعد ذلك بزمن وجيز، قام مصرف لبنان بتصفية بضعة مصارف، ولم يتأثر القطاع المصرفي ومعه القطاع الاقتصادي.

وفي العام 1975، بدأت الأحداث المؤسفة التي استمرت نحوًا من خمس عشرة سنة، واستمر القطاع المصرفيّ في صموده ما يزيد عن ربع القرن بعد توقف تلك الحرب. وأذكر جيدًا أنّ إبّان تلك الحرب، وبالتحديد، في أوائل ثمانينيّات القرن الماضي، كنت في زيارة عمل في العاصمة الفرنسية، فوجئت أن بعض الصرّافين الفرنسيين، على شارع الشانزيليزيه، الذي تعرفه جيدًا، كانوا يبدّلون الليرة اللبنانية بالفرنك الفرنسي، أو غيره من سائر العملات، وبالعكس، أي أنّها كانت لم تزل عملة متداولة عالميًا باعتبارها من العملات القويّة.

فهل لك أيها السيد رئيس الجمهورية القوي، أن تجيبني على سؤالٍ يدور في خلدي منذ ما يزيد عن السنتين، وهو:

على الرغم من تلك الأزمات، التي عدّدتُها آنفًا، وبخاصّةٍ، في العقود الأربع منذ العام 1975، التي تعاقب فيها على كرسي رئاسة الجمهورية ستة رؤساء، وحتى إبّان فترة الفراغ الرئاسي التي سبقت انتخابك، بقي القطاع المصرفي رمزًا من رموز صمود لبنان؛ فهل لك أن تفسّر لي، ولأمثالي من اللبنانيين، أيّها الرئيس القوي، لماذا انهار هذا القطاع، وانهار معه اقتصاد لبنان بالكامل، وأصبحت نسبة الفقر فيه تزيد عن ثلاثة أرباع سكانه، قبل مضي نصف مدة عهدك القوي؟ وأين قوتك التي وعدتنا بأنّك وحدك القادر على فرض «الإصلاح والتغيير»؟ أم أن هذه القوة تلاشت لأنّهم «ما خَلُّوكم»؟ ومن هم هؤلاء الذين «ما خلُّوكم»؟ أم أنك اكتفيت فقط بتنفيذ وعدك بإيصالنا إلى جهنم؟؟؟

رسالة ثانية من التاريخ[1]

إلى السيد ميشال عون

اليوم، الثلاثين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2022، تنتهي مدّة أسوأ عهدٍ عرفه اللبنانيون، منذ إعلان «دولة لبنان الكبير»، ويغادر «رئيسه» «قصر الشعب»، غير مأسوفٍ عليه.

شكرًا «فخامة الرئيس»، سابقًا، لقد «أوصلتنا» إلى ما لم نكن نحلم به قط، حتى من ألدّ أعدائنا. ففي نهاية مسيرتك «المشرِّفة»، يا طويل العمر، بلغ لبنان جهنمَ التي وعدتنا بها، هل نسيت؟ أم هذا هو وعدك بأن تسلم لبنان لخلفك، أفضل مما تسلمته؟؟

ثلاثة أرباع من بقي في لبنان من «شعبه العظيم» باتوا فقراء، يتسولون لقمة العيش. خزينة الدولة تنوء تحت عجزٍ غير مسبوق، جرّاء ديون بعشرات المليارات من الدولارات، سُرِقت أموالها. البنوك مفلسة. الاقتصاد انهار بالكامل. الدولار الذي كان يومًا يعادل ليرتين وعشرين قرشًا، يحلّقُ قُربَ الأربعين ألف ليرة. العتمة شاملة. المياه إمّا ملوثة أو مقطوعة. معالم الحضارة التي وصل إليها لبنان، بفضل مبادرات أبنائه الفرديّة، اندثرت تحت رماد وحطام نصف مباني بيروت ومرفئها، الذي دُمِّر، منذ ما يزيد عن العامين، بأضخم تفجير غير نووي، ولم نزل ننتظر نتيجة التحقيق فيه، التي وعدتنا بأن نعرفها في مدة خمسة أيام. هل نسيت؟

لقد كانت بداية مسيرتك تلك، في العام 1982 بمصافحة قادة جيش العدو، إبّان احتلاله لعاصمتنا، «ست الدنيا» بيروت. ثم أصدرتَ أوامرك إلى المغرّرين بوعودك البرّاقة، من جنود جيشنا، بعدم السماح، حتى للعجائز، بنقل «ربطة الخبز» الواحدة، مما كان يسمّى «بيروت الشرقية» إلى أختها «بيروت الغربية». هل نسيت؟

وبعدما تولَّيتَ رئاسة حكومة عسكرية، عرجاء، في الربع الأخير من العام 1988، عمدت إلى تعطيل عملية انتخاب خلفٍ للرئيس أمين الجميل، لأنّك كنت تطمح إلى أن تكون أنت، لا غيرك، ذلك الخلف. فاحتللت قصر بعبدا، وأطلقت عليه اسم «قصر الشعب». ولتجذب عواطف الشباب التوّاقين إلى الأمن والحرية والسيادة، رحت تجيش أنفسهم بخطابات «شعبوية» جوفاء.

[1] كتبته بمناسبة انتهاء ولاية رئيس الجمهورية ميشال عون ونشرته على الفيسبوك.

وفي صباح 14 آذار/ مارس، 1989، أعلنت حربك لتحرير «المنطقة الغربية» من الاحتلال السوري، فسقطت أولى قذائفك في مستديرة الأونيسكو، على حافلات كانت تنقل التلاميذ إلى المدارس، فأصابت العشرات منهم، بين قتيل وجريح. وراحت قذائفك، بعد ذلك، تتناثر على المباني السكنية، من دون أن تطال «المواقع العسكرية السورية المهمّة». ولما أصابت إحدى قذائف «أعدائك»، خزانًا للغاز في منطقة الدورة، أطلقت مقولتك، التي لم ولن أنساها: «التعتيم بالتعتيم، والتعطيش بالتعطيش»، فأمرت بقطع ماء الشفة والكهرباء، على مدى تسعة أشهر، عن سكان «بيروت الغربية»، الذين ادعيت أنّك تريد «تحريرهم من الاحتلال السوري»، ولكنّك كنت في الواقع، تعمل على «تحرير أرواحهم من أجسادهم». هل نسيت؟

وبعدما فشلت في حربك تلك، أخذتك الحميّة والغِيرة، إذ كيف يتسبب التقاتل، قبل بضع سنوات، بين حركة «أمل» و«حزب الله»، بأن يقتل الأخ أخاه، ابن أمّه وأبيه، فأطلقت قذائفك تُجاه المناطق التي كانت تحت سيطرة القوات اللبنانية، «حلفائك بالأمس القريب»، معلنًا هدفك بتوحيد البندقية «المسيحية». فتسبَّبْتَ، أيضًا بأن يقتل الأخ أخاه، وبقتل وجرح المئات، إن لم يكن الآلاف، من «المسيحيين» الذين لم تزل تدّعي حمايتهم. بالإضافة إلى تدمير العديد من المباني والمنشآت. هل نسيت؟

وبعد إقرار «وثيقة الطائف»، التي رفضتَ الاعتراف بها، رفضتَ أيضًا تسليم قصر بعبدا إلى الرئيس المنتخب، إلياس الهراوي، فاعتصمت فيه، مع بضعة آلاف جنديٍّ لبنانيٍ، شحنت نفوسهم بالكلام الوطني البرّاق، بوجوب الدفاع عن ذلك القصر، «رمز الجمهورية والسيادة والاستقلال»، وكنت تعلم جيدًا أنك ستخوض حربا خاسرة، فصمدتَ سبعًا وأربعين دقيقة، قبل أن تهرب بمفردك، وتتركهم خلفك، ومعهم أفراد عائلتك، زوجتك وبناتك، لتلجأ إلى السفارة الفرنسية. فكانت النتيجة قتل واختفاء المئات من أولئك الجنود. فهل رفّ لك جفنٌ يومها؟ أم هل عملت على معرفة مصيرهم إبّان توليك كرسي الرئاسة؟ هل نسيت؟

وبعد خروج جيش النظام السوري من لبنان في العام 2005، عدت، من منفاك في باريس، «مظفرًا» بعد مفاوضات غير مباشرة مع ذلك النظام، وأتباعه، رافعًا شعار «الإصلاح والتغيير»، بكلمات جوفاء، بقيت تطلقها حتى الأمس. ولكنّ شهوة الجلوس على كرسي رئاسة الجمهورية، لم تهمد، بل زادها اشتعالا، حميّتك وغيرتك، من انتخاب الرئيس إميل لحود، وهو قائد سابق للجيش، كان يومًا تحت إمرتك. فتحالفت مع من وعدك بذلك الكرسي، ولغاية في نفسه، إذ هو

يعلم جيدًا تاريخك، وما تُسرّه في نفسك. وقد زاد تلك الشهوة، تأجّجا فيما بعد، انتخابُ قائد آخر، لذلك الكرسي، هو الرئيس ميشال سليمان. هل نسيت؟

ولتحقيق رغبتك تلك عمدت، منذ ما بعد ذلك التحالف، إلى سياسة التعطيل، واختلاق القلاقل، وتعميق الانقسامات الطائفية والمذهبية، مدعومًا ممن حالفوك، على قاعدة: «الغاية تبرّرُ الوسيلة» مهما كان الثمن. هل نسيت؟

وبعد تعطيلكم عملية انتخاب سواك، لخلافة الرئيس سليمان، لنحو الثلاثين شهرًا، تحقّق حلمُ عمرك. وبدلا عن الوفاء بوعدك في الإصلاح والتغيير، بحجة «ما خلّونا»، رحت تغطُّ في النوم العميق، على ذلك الكرسي «الوثير»، تاركًا الحبل على غاربه لصهرك المدلّل وأتباعه، لمتابعة سيرهم على طريق الفساد، بوقاحة تفوق زملاءهم وشركاءهم في اغتصاب مقاليد التحكم برقاب اللبنانيين، تحت مظلة حماية حقوق الطوائف والمذاهب. إلى أن دفع اللبنانيون ثمن كرسيك هذا، بتحول لبنان من جنّة الشرق، إلى جهنّم المعمورة بأكملها.

حتى إخواننا العرب، أشاحوا بوجوههم عنّا، جرّاء ما بغّضَ دولةَ «لبنانك العظيم» إليهم، من أفعال وأقوال من نصّبك «رئيسًا». هل نسيت؟

ولكن، اطمئن، فسيذكر التاريخ «إنجازاتك» كاملة غير منتقصة، وأهمّها أنّ الجهة الوحيدة التي انتفعت منها، من غير الفاسدين، هي «الدولة» التي اغتصبت أرض فلسطين.

فلا أعاد الله على لبنان عهدًا مثل عهدك.

خواطر في اللغة

خطر العامية على الفصحى[1]

كنا نظنّ أنّ من أهمّ الأخطار على اللغة العربية الفصحى، تعثُّرَ بعضِ الكُتَّاب والقُرَّاء بأخطاء في كتاباتهم أو تلاواتهم، سواء في أصول وقواعد النحو والصرف أم في استعمال الكلمات في غير معانيها. أضف إلى هذا اعتمادَ اللهجة العاميّة عوضًا عن الفصحى في الكثير من الأفلام السينمائية والمسرحيات والبرامج الترفيهية. وفي تكرار قراءة الأجيال الصاعدة وسماعها تلك الأخطاء، ومن مصادر متعددة، ما يجعلها تترسخ في أذهانهم على أنها من اللغة الصحيحة. فاللغة اقتباسٌ، وإتقانُها ينتج من استمرار قراءة النصوص وسماعها، وبقدر ما تكون هذه النصوص صحيحة وسليمة تزداد سلامةُ وصحّةُ الملكةِ اللغوية لقارئها وسامعها.

ولكن مع «عصر» محطات التلفزة الفضائية والإذاعة التجارية، زاد الأمرَ خطورةً، احلالُ اللهجة العامية محل الفصحى في الغالبية العظمى من برامج هذه المحطات بما فيها، أحيانًا بعض النشرات الإخبارية. أضِفْ إلى هذا تلك الأغاني والأعمال التي يسمونها فنيّة، واعتماد اللهجة العامية في الإعلانات التجارية وغيرها...

قد يبرر بعضُ القيّمين على تلك المحطات، هذا الأمر بأن العامية أسهلُ على العامّة فهمًا من الفصحى، بالإضافة إلى رغبتهم في توسيع دائرة التواصل بين أبناء الأقطار العربية كافة بحيث يصبح بإمكان ابن الخليج أن يتحادث مع ابن الجزائر كلٌ بلهجته العامية فيفهمها الآخر. وهنا أسأل: ألا يمكن للفصحى أن تفيَ بهذا؟؟؟ وهل قصّرت يومًا عن التعبير عن فكرةٍ أو رأيٍ أو خبرٍ...؟؟؟

ولكنّني أرى الأمر بمنظار آخر. فمسؤولية جهاز الإعلام في التثقيف والتنشئة أعظم من مسؤولية المدرسة والجامعة، فإذا كان تلامذة هاتين يُعدون بالآلاف، فمتابعو ومشاهدو أجهزة الإعلام يُعدون بالملايين. وبالتالي على هذا الجهاز أن يقدّم البرامج التي ترفع المستوى الفكري والثقافي والصحي والأخلاقي والوطني،

[1] نشر هذا المقال على صفحتي في Facebook وصفحة جمعية أصدقاء اللغة العربية – مونتريال. كما كان موضوعه محور حديثين شاركت فيهما على أثير إذاعة الشرق الأوسط في كندا في العامين 2016 و2017.

للمشاهد أو المستمع لا أن يهبط هو إلى درك هواهيهما الغريزي. فالطفل يهوى اللعب فهل يجوز أن تساير المدرسة هواه وتقصر برامجها على اللعب؟

فالأمر غير ما يدَّعُونه. إنّ العناصر البشرية الشابة، نساءً كانوا أم رجالا، الذين يتقنون اللغة العربية أصبحوا، للأسف، قلائل جدًا إن لم نقل نادرين، وهذا عائد لعدة أسباب أهمها مستوى التعليم الذي يتجه انحدارًا، منذ برهة1 من الزمن، وفي غالبية الأقطار العربية. ونظرًا لهذا العدد الهائل من تلك المحطات والإذاعات، فقد أصبح مُكلفًا جدًا استخدام من يتقنون هذه اللغة، وهذا بالتالي سينعكس سلبًا على النتائج المالية لأعمالها، وهي التي في معظمها تجارية، تسعى إلى الربح. أضف إلى ذلك المبدأ المعتمد، غالبًا، في استخدام العنصر النسائي، القائل: «كوني جميلة واصمتي»، بصرف النظر عن سائر الكفاآت. فالمذيعة الجميلة المغناج... تجتذب الكثير من المشاهدين الرجال، ذوي النفوس الضعيفة... مهما بلغت تفاهة البرنامج، لأنه صِيغَ أصلا على قاعدة الحصول على أكبر كميّة من الإعلانات التجارية. فالأمر في معظمه إذًا ماديٌّ قبل كل شيء، ولا من يبالي بما قد تسبّبه تلك البرامج من إساءة سواء إلى الأخلاق أم الثقافة بجميع فروعها.

فما كنا نشكو منه سابقًا من تلك الأخطاء في اللغة، والتي كانت محصورة في كتابات بعض الكتاب، ضاعف انتشارَها محطاتُ الإذاعة والتلفزة الماديةُ الغاية، أضعافًا مضاعفة. فقواعد اللغة أصبحت في خبر كان. وإذا ما تفوّه أحدهم بكلام يعتقده فصيحًا، فهناك الكارثة، فلا ضير عنده إذا نصب الفاعل أو كسر المفعول به أو رفع المجرور، ولا تسأل عن حركات سائر الحروف.

أمّا عن مخارج الحروف فحدث ولا حرج. (أرجو أيها القارئ الكريم ألا تكون من الذين سيسألون ما المقصود بمخارج الحروف). فلن تفاجأ إذا سمعت بعض الحروف تُنطق من الأنف أم من قعر الحنجرة. كما بلغ تأثير اللهجة العامية أيضًا، حد ذوبان بعض الحروف في بعضها الآخر، فحرف الثاء تحول إلى السين أو التاء، والذال ضاعت في الزّاي، والظاء أصبحت زايًا مضخمة، والضاد (أحد أسماء اللغة العربية) اضمحلت في الظاء، أما القاف فحلّت محلّها الألف أو الكاف لدى بعضهم أو الجيم لدى الآخر، والجيم في مصر لم يعد لها وجود لأنها أمست چيمًا. حتى التاء والطاء اقترب تمازجهما كذلك السين والصاد...

أمّا استعمال الكلمات في غير معانيها فقد كان للعامية الباعُ الطويلُ فيه، ومن الصعب حصره في عدد معدود منها. ونادرون هم الذين يعودون إلى المعاجم

---

1 البَرهة، بالفتح والضـم، تعني المدة الطويلة عكس ما تعتقد الغالبية. أما المدة القصـيرة فهي الهنيهة. وفي لسان العرب: البُرْهَة والبَرْهَة جميعًا: الحِينُ الطويل من الدهر، وقيل: الزمانُ.

للتأكد من أنهم يستعملون الكلمة في معناها الصحيح، بمن فيهم من مشاهير الكُتَّاب والأدباء والشعراء. وإذا ما عاد أحدنا إلى المعجم لوجد العجائب في ذلك. ولا ننسى أيضًا غزو الكلمات الأجنبية ألسنةَ أولئك المذيعين، ما جعل الكثير من المفردات العربية تنتقل إلى عالم النسيان، سواء من ذاكرة المذيعين أم الغالبية العظمى من أبناء الأقطار العربية أجمعين.

ولا ننسى أيضًا تلك الكتب والروايات الرخيصة، وخاصة المترجمة منها، ذات الموضوعات التي تجذب الناشئة، المكتوبة بلغة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى. وأخيرًا، والخوف من أن يكون ليس آخرًا، بدعة كتابة العربية، على وسائل الاتصالات الحديثة والإنترنت، بالأحرف اللاتينية، حتى أنهم استعاضوا بالأرقام عن الأحرف العربية التي ليس لها شبيهٌ في اللاتينية.

لقد قيل: «إن اللغة القومية للإنسان هي الغذاء الروحي الذي ينمّي شخصية الفرد في نطاق الأمة، ويحفظُ الأمة حيّة في كيان الفرد». وعليه أضيف: إن المحافظة على أسس وقواعد اللغة ومعاني كلماتها، لا يمكن أن تكون سبب تحجرها أو انغلاقها، بل من شأنها أن تيسر لنا فهم تراثنا وتاريخنا بشكل سليم وواضح وسهل، يُمَكِّننا من بناء حاضرٍ ومستقبلٍ مرتكزين على قواعد صلبة ومتينة. أمّا إدخال أسماء وتعابير جديدة لمكتشفات حديثة ليس لها ما يعبر عنها في اللغة، فقد تكون العربية من أكثر اللغات قبولا به، إذ أن تاريخها حافل بذلك.

لغتنا تراثنا فلنحافظ عليها.

تلاوة الأخبار فنٌّ[1]

لقد أصبحت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، من إذاعة وتلفزيون، المصدر الرئيسيَّ لاستقاء الأخبار. وراح بالتالي، يتراجع يومًا بعد يوم، دورُ الوسائل المقروءة من جرائد ومجلات. وعلى الرُّغم من هذا فإنّنا نرى كثيرًا من قارئي النشرات الإخبارية لا يراعون أصول التلاوة التي تمكن المستمع من المتابعة والفهم. فقارئ الجريدة مثلا، إذا تعذر عليه فهم جملة ما، أو مرّت عليه لحظة سهوٍ، فسهل جدًا عليه إعادة القراءة غير مرّة كي يفهم كنه الخبر. أما المستمع فيستحيل عليه ذلك.

وفي نظري كمستمعٍ، إن المبدأ الأساسي في كتابة وتلاوة نشرة الأخبار هو أن يفهم المستمع ما يُتلى عليه من دون عناء أو جهد. وصياغة نصّ الخبر لوسيلة الإعلام المسموعة تختلف عنها في ذلك المعدِّ للمقروءة. وللوصول إلى هذه الغاية أقترح التقيّد بما يلي:

في كتابة النص:

اعتمادُ الجملة القصير قدر الإمكان، والابتعادُ عن الاستطراد الطويل الذي قد يجعل المستمع يتوه عن وصل السابق مع ما يتبعه.

اعتماد اللغة السهلة والأسلوب المبسّط والابتعاد عن المفردات الغريبة، انطلاقًا من مبدأ أن ليس كلُّ المستمعين أدباء أو ضليعين في أصول اللغة.

تجنب الأخطاء اللغوية سواء في أصول علمي النحو والصرف أم في المعاني، فما يؤسف له أن الكلمات التي تستعمل حاليًا في غير معناها كثيرةُ العدد.

في التلاوة:

مراعاة قواعد النحو، فلا يُرفع المجرورُ أو يُنصبُ المرفوعُ...الخ.

مراعاة النُطق الصحيح والسليم بالأحرف، فالذالُ يجب أن تبقى ذالا، والقافُ ليست همزةً... الخ. مع مراعاة مخارج الحروف، فالحرف الذي أصله من الحلق

[1] نشر هذا المقال على صفحة جمعية أصدقاء اللغة العربية – مونتريال على الفيس بوك. كما قرأته على أثير إذاعة الشرق الأوسط في مونتريال – كندا- من ضمن حوار مع الإعلامي الأستاذ فيكتور دياب في برنامجه الثقافي «ما خلصت الحكاية» في خريف العام 2016.

لا يجوز نطقه من الأنف أو من أقصى أعماق الحنجرة... وكذلك ترك التضخيم والترخيم في نطقه، فالتاء ليست طاءً وبالعكس...الخ.

التفريقُ في المدِّ بين الألف والفتحة، والواو والضمة، والياء والكسرة.

التأني في القراءة من دون بُطءٍ مملٍّ أو سرعةٍ ترهق المستمع.

مراعاة أصول الوقف، بحيث لا تُقطعُ كلمةٌ من جملة وتُلحقُ بالتالية أو بالعكس. كذلك مراعاة أصول تسكين الحرف الأخير من الكلمة الموقوف عليها، مع مراعاة قاعدة عدم التقاء الساكنين، بتحريك الحرف ما قبل الأخير إذا كان ساكنًا نحو «حتى مطلعِ الفَجْرِ» تصبح عند الوقف «حتى مطلعِ الفَجِرْ». ولا ننسى أيضًا القاعدة التي تقول: «لا يُبدَأُ في العربية بساكنٍ».

مراعاة نغمة الصوت عند الوقف لإظهار الفرق بين الاستفهام والتعجب والانتهاء، أو أنه للوصل بما يليه.

وأخيرًا وليس آخرًا فنشرة الأخبار ليست قصيدة شعرٍ أو خطابًا جماهريًا أو أغنيةً ملحنة.

اللغة خزانة التراث[1]

لغتُنا خزانة تُراثنا وبقدر محافظتنا على قواعدها ومعاني كلماتها يمكننا فهم هذا التراث فهمًا سليمًا وسهلاً. كلنا نعلم أنّ الكثير من الكلمات يقِلُّ استعمالها مع مرور السنين، لسبب أو لآخر، حتى الندرةِ أحيانًا، فتصبح بالنسبة للأجيال اللاحقة من غريب الكلام، مما سيرتب على القارئ المستقبلي أن يعود إلى المعاجم لفهم معانيها. فإن كان كاتبها قد اعتمدها في غير المعاني التي وضعت لها أساسًا، فسيجد هذا القارئ الصعوبة، أو حتى الاستحالة أحيانًا، في فهم ما يقرأ. فلو قرأ بعضنا اليوم مثلاً المقطع التالي بما فيه من كلمات، كثيرا ما تستعمل اليوم، وكتبت بمعانيها الأساسية لالتبس عليه فهم قصد كاتبه. وهذا نصه:

«بينما كنت ذاهبًا إلى بلدة كذا صادفني صديقٌ قائلاٍ: في طريقك هذه يا صديقي، مخاطر صعبة قد تؤخرك عن الوقت المحدد للمشاعر التي أنت بصددها. فشكرت له النصيحة وانصعت إلى حيث أشار فبلغت غايتي عن طريق لا حزونة فيها.»

بالتأكيد، الكثيرون ممن سيقرأون هذا المقطع لن يفهموا قصد كاتبه إلاَّ إذا عادوا إلى المعاجم ليجدوا التالي:

مخاطر: حسب لسان العرب لابن منظور:

المَخاطِرُ، المراقي، أي الدرج. والخطر يجمع على أخطار.

مشاعر: لا تعني الأحاسيس، ولا هي جمع شعور لأن الشعور مصدر والمصدر لا يجمع، إلّا إذا تحول إلى اسمٍ بذاته. ففي لسان العرب: المَشاعِرُ الحواسُّ؛ والمَشاعِرُ المعالم التي ندب الله إِليها وأَمر بالقيام عليها، مفردها شعار ومشعَر. وفي «محيط المحيط»: «مشاعر الحج، معالمه الظاهرة للحواس.»

انصاع: هذا الفعل لا يعني مطلقًا: أذعن أو خضع لكذا. ففي القاموس المحيط للفيروز بادي: انْصاعَ: انْفَتَلَ راجِعًا مُسْرِعًا. وفي لسان العرب: انْصاعَ أَي انْفَتَلَ راجعًا ومَرَّ مُسْرِعًا. وفي محيط المحيط: انصاع الرجل انصياعًا انفتل راجعًا مسرعًا ومرّ.

---

[1] نشر على صفحة جمعية أصدقاء اللغة العربية 2015/2/19. كما قرأته على أثير إذاعة الشرق الأوسط في مونتريال – كندا- إبان حلقة حوار مع الإعلامي الأستاذ فيكتور دياب في برنامجه الثقافي «ما خلصت الحكاية» في خريف العام 2016.

حزونة: في لسان العرب: الحُزونةُ الخُشونة، ومنها: حُزونة الجبال. وفي محيط المحيط: الحزونة، غلاظة الأرض وشدتها.

على الرُّغم من أنّ معظم ما حوى هذا الكتاب قد نُشر في حينه، في الصحف والمجلات وعلى بعض وسائل التواصل الاجتماعي، فقد كانت غايتي من وضعه الرغبة في حفظ مقالات وكتابات في موضوعات مختلفة، ممّا كان يجول في خاطري كلّما مرّ أمامي حدث أو مناسبة أو أمرٌ أثار في نفسي رغبة الكتابة

ولذا اخترت له عنوانا:

«خواطر من أيام العمر».